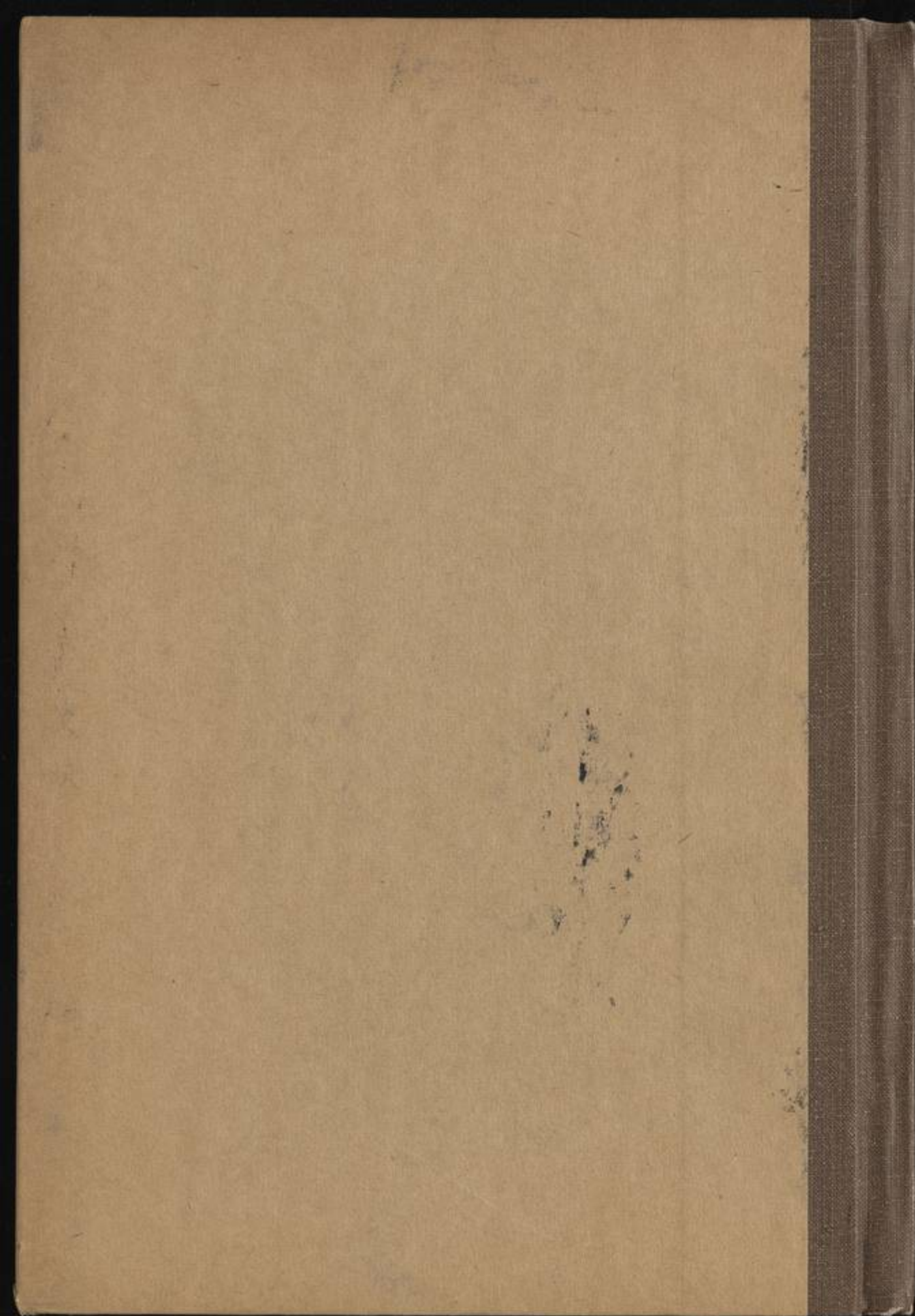
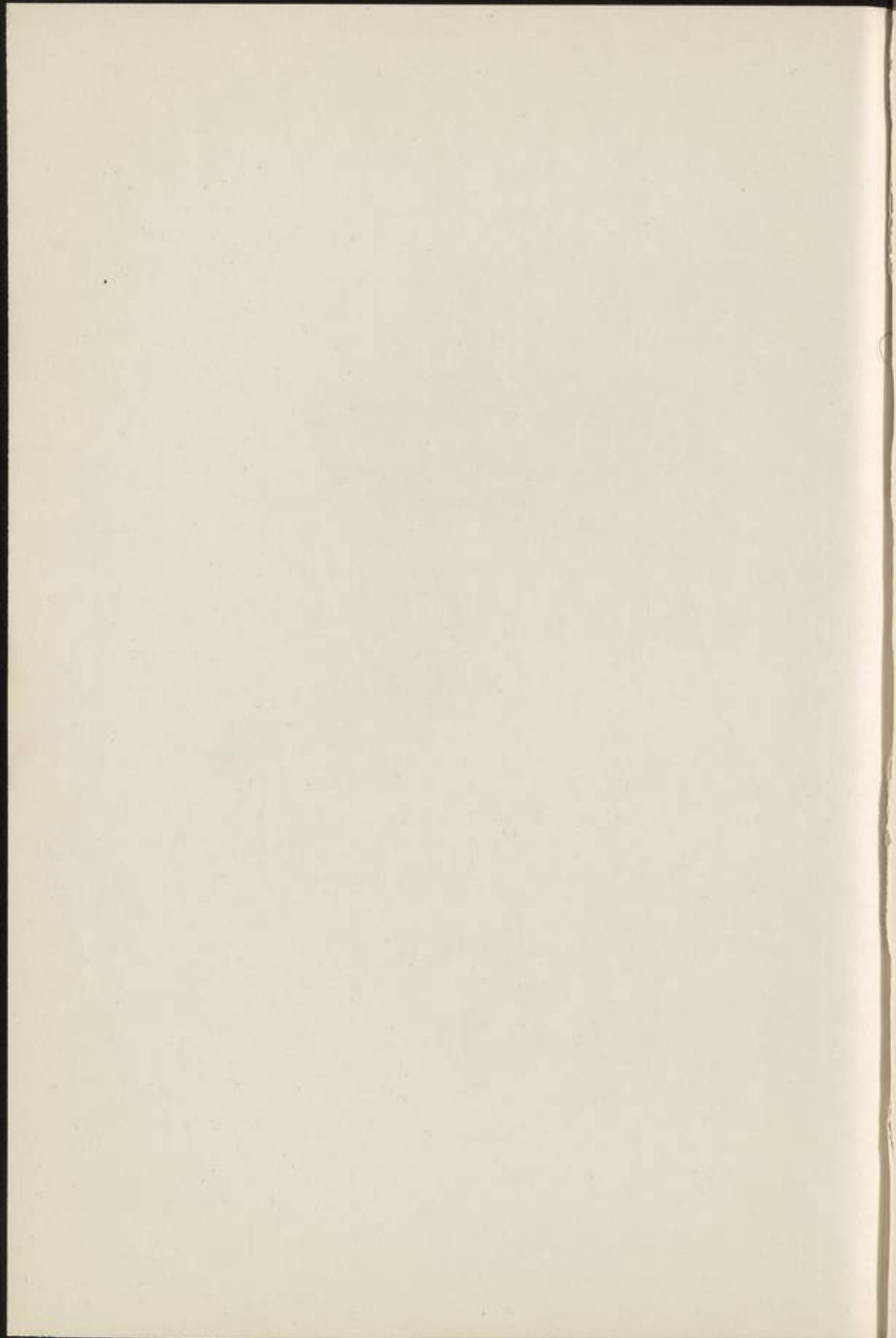


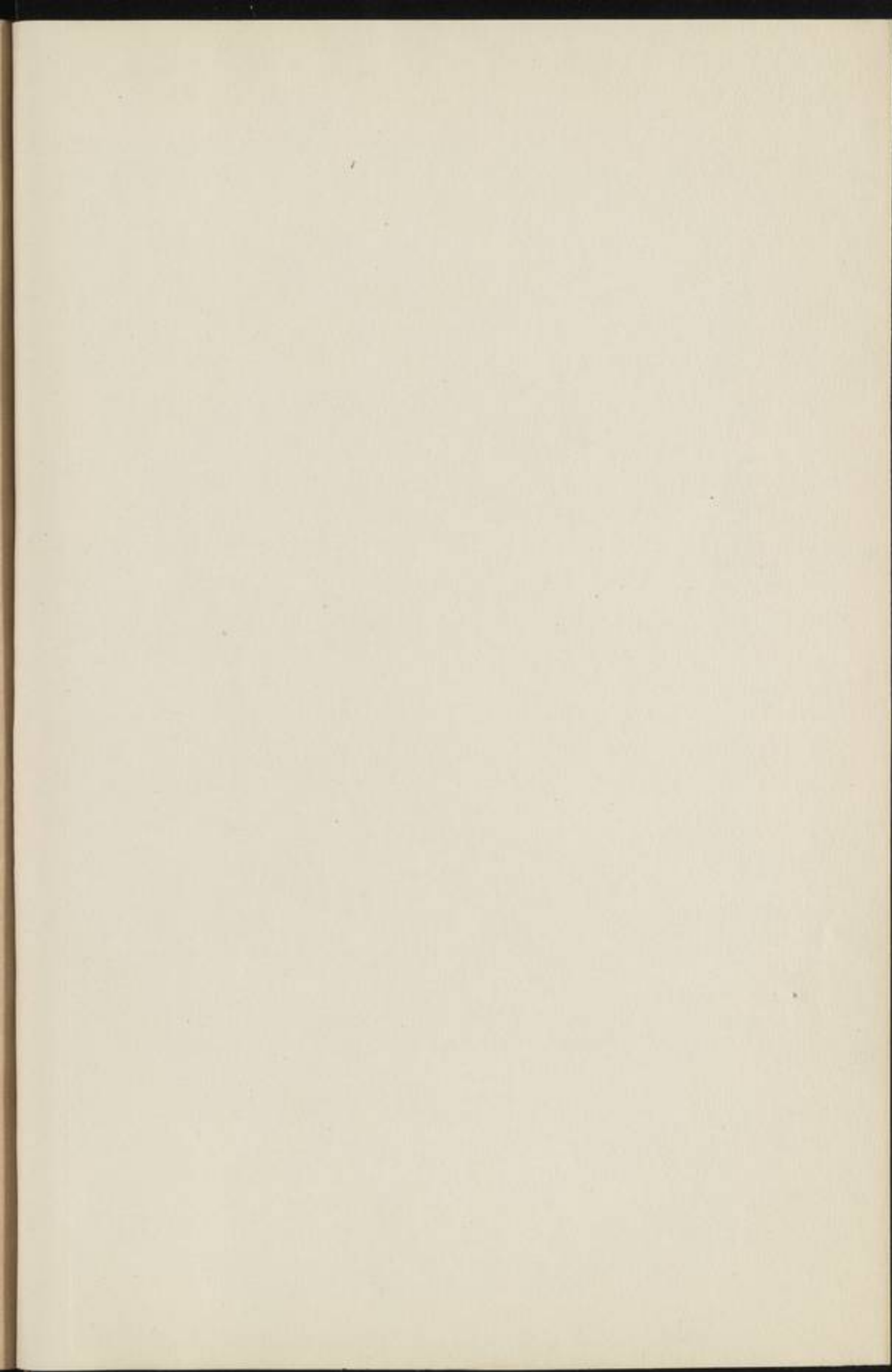


Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES







306 242

الريكتور

محمد أحمد خلف الله

صاحب الأغاني
أبو الفرج الأصفهاني الرازي

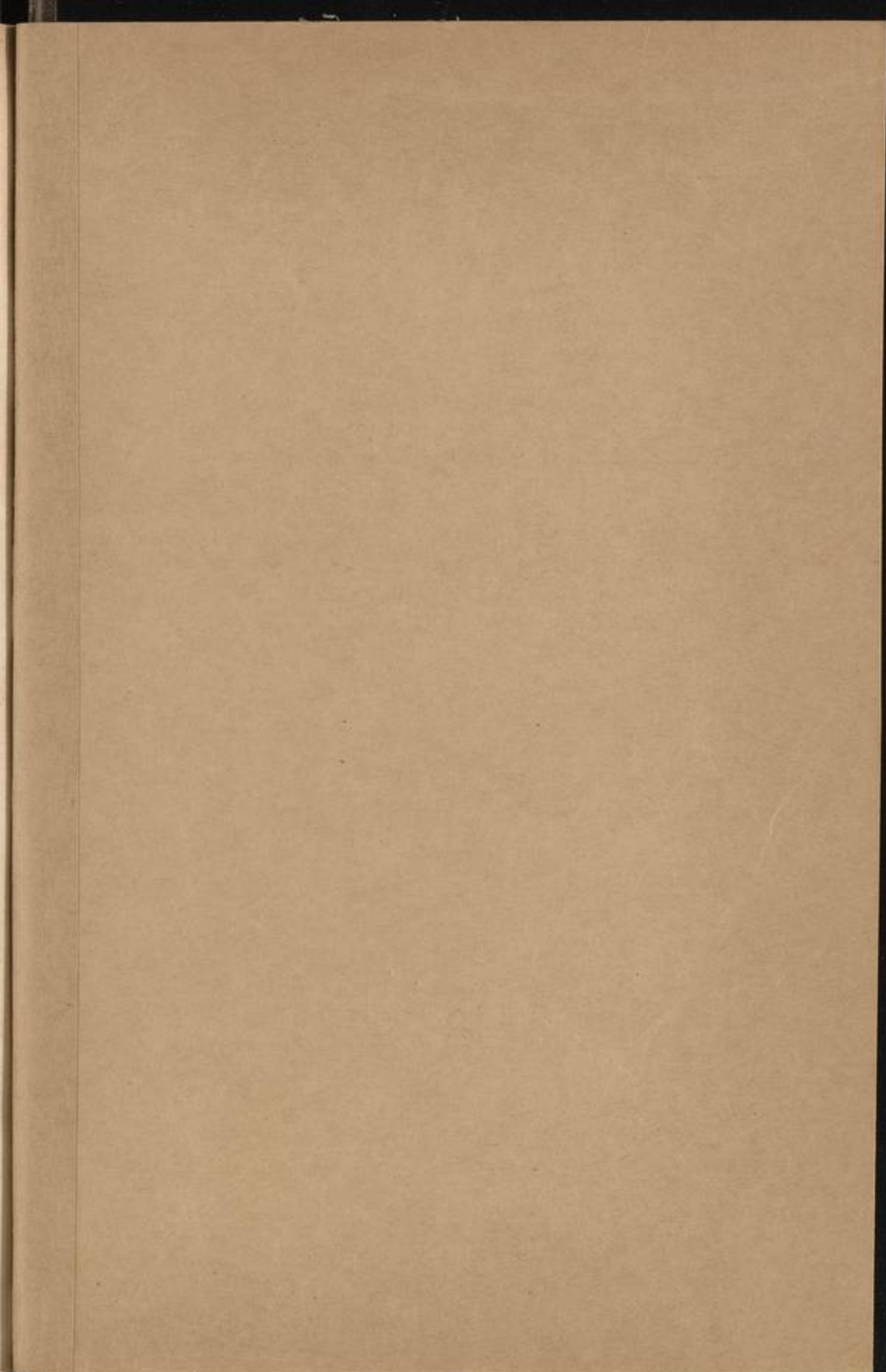


اتنم الطبع والنشر

مكتبة نخضة مصر ومطبعتها
١٨ شارع كامل صدقي، الفجالة،

مطبعة نخضة مصر

١٩٥٥



الدكتور
محمد أحمد خلف الله

صاحب الأغاني أبو الفرج الأصفهاني الرازي

الطبعة الأولى

١٩٥٣



ماتزم الطبع النشر

مكتبة النهضة مصر

مطبعة النهضة مصر

893.7Is1

DK

92826

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

بفلم الأستاذ أمين الخولي

هذه كلمة ليست من التقريظ القديم ، ولا من التزكية الحديثة ، التي يلتبسها صاحب مطبوع ليتأثر بها قارئه ، أو بعبارة أصرح ، ليتأثر بها مشتريه !!

ولن تكون كذلك ، لأن القلم العريان ، الذي كتبها لا يحسن أن يستر نفسه ، في هذا السبيل . . . ولأن من كتبت عنه قد مرتته الأحداث ، على ألا يكون رأيه في نفسه ، من رأى الناس فيه .
فستكون هذه الكلمة شيئاً من التحليل ، إلى جانبه شيء من التاريخ . .
وهذا كل ما يمكن أن تكونه . .

وأصحاب الأخلاق ، حين يتعرضون لشيء من الحكم الخلقى ، يعينهم التفريق بين الحكم على العمل ، والحكم على العامل . . ولا يختلط عليهم الأمر في شيء من ذلك .

وأصحاب التقدير الفنى ، الواعى ، اليوم ، يعمدون إلى فهم الأثر الفنى ، عن طريق فهمهم لصاحبه ، نفسياً واجتماعياً ؛ كما يعدون الأثر الفنى نفسه وسيلة لاستكمال فهم لشخصية صاحبه . . ولا يرون قيمة للنقد الفنى - بعامه - أو النقد الأدبى - بخاصة - إذا لم يقيم على هذا الأساس ، من التفاعل بين الأثر وصاحب الأثر . .

وإذا كان الأمر كذلك فإن من الخير حين نعمد إلى شيء من التقدير

لهذا الدرس ، عن « ابى الفرج الأصفهاني » ، أن نحدث عن العمل والعامل ، وننظر إلى المؤلف والتأليف .

وهذا المؤلف ، أو الدارس — بعبارة أصح عند أصحاب الغد — من الشبان ، الذين جمعنى بهم أو اصر المعرفة المتعاونة ، سنوات طويلا ، فى اجتماعات خاصة ، وفى مجالس الدرس العامة ، وفى الرحلة المتعلمة ، وفى الزيارة المتوادة ، . وفى مناسبات متنوعة .

وكانت سنوات هذه الصلة بالدكتور محمد خلف الله ، أطول من مثلها فى حياة سائر أصدقائى ، من أصحاب الغد ، لظروف عملية ، من الشدائد المعلمة ، اختبرت فيها الأيام تلك الصلة ، بل فتنها ، كما تفتن النار الذهب ، على حد التعبير المعروف . . فتكشف لكل منا من أمر صاحبه ما يجعله أدق معرفة ، وأصل حكما ، وأصح قولا .

والقارىء المتصل بجو الحياة الفكرية ، خلال البضع السنوات الأخيرة ، يعرف من تلك الظروف ما لا يحتاج معه إلى شرح ؛ ويعرف حادث رسالة « الفن القصصى فى القرآن الكريم » ، وما اتصل بها من أحداث عقلية ، وخلقية ، واجتماعية ، صارت اليوم من حق التاريخ العقلى ، لمصر الحديثة ، الذى يترفع عن أن يقود أحد خطاه ، أو يواجهه وجهة ما ، فى تدوين هذه الصفحة من تاريخ الحياة الفكرية ، والحرية العقلية ، فى مصر والشرق الأوسط . وإن كان من واجبنا — بلا مرا — أن نسلمه الوثائق الرسمية ، عن هذه الأحداث ، ليصدر فى نزاهة سامية ، حكمه الأخلد من حكم أى سلطة ، تحمى حقا فى الأرض ، أو تقيم عدلا . .

ولا ينتظر القارىء أن يسمع منى هنا كلمة ما عن شخص أو شىء يتصل بهذا الحدث الأكبر . . وإنما أشرت إليه فى كلامى عن الدارس

والدكتور محمد خلف الله ، لأشير إلى نتائج امتحان الجامعة في هذا الدارس .
ثم امتحان الجامعة بهذا الدارس ..

فقد كشف امتحان الجامعة فيه عن شاب يؤمن بالعلم ، في هذا العصر ،
ويطلب تفسير ذلك العلم لظواهر الحياة ، فنية أو غيرها ، ويوجه درسه
الأدبي إلى هذه التفسيرات الجادة ..

والإيمان بالعلم هو كل الفرق ، بين شباب الغرب ، وشباب الشرق ..
وهو جملة ما يتميز به الغرب ، حين يجد ويتقدم .. ولا يسلم للشرق فيعبث ،
ويتردد ، ويتوقف . أو يحمد ...

وإيمان ، خلف الله ، بالعلم ، هو الذي يجعله يؤمن بأن التطور والتدرج
هو الناموس ، الذي يسود الحياة ويضبطها ، فيؤمن بما عليه من واجب ، في أن
يدفع الدرس الأدبي شبرا ، أو فترا ، أو إصبعاً ، إلى الآمام .

ولكل أولئك اقتحم هذا الدارس ما اقتحم ، في دراسته العليا ، من
النواحي الفنية ، يلتمس لها التفسير العلمي ، الذي تعين عليه ثقافة العصر ، والذي
لا تأنف منه المعرفة الإنسانية الناهضة اليوم .. ويبغى بذلك كله ، أن يقول
شيئاً يصحح خطأ ، أو يفسر مبهماً ، أو يزيل حيرة .. وليس كل ذلك وما
إليه إلا ما قصده الجامعة ، حين شرطت ، في الدراسات العليا لأبنائها : أن
تفيد العلم فائدة محققة !!

وما قيمة الإيمان بالعلم ، والإيمان بنواميسه ، في تسيير الحياة إلا في أن
يدفع هذا الإيمان صاحبه إلى أداء واجبه الاجتماعي ، بإزاء ما يتكشف له
من حقائق العلم ، وصحاح النواميس ، وما الواجب الاجتماعي عليه ، والحق
للحياة عنده ، إلا أن يعال الناس بما عرف ، ويكشف لهم عنه . بدعوة

مؤمنة . . لا يشودها شيء في هذا السبيل ، ولا تصدها عنه صعوبة ، حتى تأخذ الحياة به ، وتضمه إلى تراثها ، وتمثله في سيرها . . ثم تتقدم إلى شيء جديد بعده .

وفي سبيل هذا الواجب ناضل خلف الله ، وأوذى . . فاحتمل ، وصبر . وإن يدم ذلك سنوات ليست بالقصيرة ، في حياة الفرد ، ولكنها ليست بالطويلة أيضا في حياة الأمة . . فإذا كانت قد كفرت به رجعية عامية ، أو جامعية زائفة فإنه ما لبثت أن آمنت به خاصة مستتيرة ، قدرت عمله ، وقضت له ، ولدى الزمن من التقدير ما هو أدق منهجا ، وأطول عمرا . . وكذلك كان امتحان الجامعة فيه خيرا ، كفر عن شرور ، كشفها امتحان الجامعة به . . وتلك هي التي نعف ونعفى أنفسنا من ذكرها أو وصفها ، ونترك للتاريخ الحر أن يقول فيها ، مالا نخرج معه ، ولا حياء فيه . .

وحسبنا الآن أن نجمل ذلك ، في الآية الكريمة الجامعة لنا موس حياة الآراء وصراعها ، ونصرها ، من قول القرآن الحكيم : لقد ابتغوا الفتنة من قبل ، وقلبوا لك الأمور ، حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون . .

تلك ملامح عامة من شخصية صاحب هذا الدرس ، وخطوط كبرى من صورته ، لم يلمحها خيال ذو هوى ، ولم يصورها بيان مفتون ، بل كشف عنها امتحان الجامعة فيه ، كما سمعت .

وتلك الملامح هي التي أرجو أن يتبينها القارئ ، فيما بين يديه من درس الدكتور خلف الله . . فيجد فيه آثارا واضحة للإيمان بالعلم ، والاطمئنان

إلى ناموس التطور المتدرج .. والشعور بالواجب الاجتماعي أمام الحقيقة المستبينة ، والجهر بهاعن طمأنينة ، ودون تهيب .. وهو ما أرجو وآمل ، أن يكون قد توافر منه «خلف الله» في درسه «لأبي الفرج» ما توافره منه في رسالته الأولى عن : «الفن القصصى في القرآن الكريم» ، فيكون قد وفق للكشف عن جانب من شخصية رجل قَدَّم للآداب العربية أضخم مجموعة خبرية ، ثم لعله شغل تاريخ تلك الآداب ، بأكثر ما شغله به إنسان . فكان من الحق أن يعرف الناس صاحب هذا العمل ، ومقدم تلك المادة ، فتكون معرفة للعامل ، لا بد منها ، ولا استغناء عنها ، في معرفة العمل وتقديره ... على ما أسلفنا صدر هذه الكلمة .

ولا أحتكم في حرية القارىء لكتاب «الدكتور خلف الله» ، فألقاه بحكم لى عنه ، أو حكم للجنة المناقشة فيه .. لا أحتكم في حرية القارىء بهذا ، كما أوقن أن «الدكتور خلف الله» لا يميل إلى هذا الاحتكام ، لأنه عرف قيمة الحرية وناضل في سبيلها ، وآمن بحقه فيها ، ولا يصدق ذلك كله إلا حين يؤمن بحق الآخرين في تلك الحرية ...

فهل يرى القارىء أن «الدكتور خلف الله» ، قدم من الدرس لشخصية «أبي الفرج» ونفسيته ، ما لا بد منه لتقدير كتاب الأغاني والاستفادة منه ؟ .. أو يرى القارىء حاجة الصورة إلى شيء من الأضواء ؟

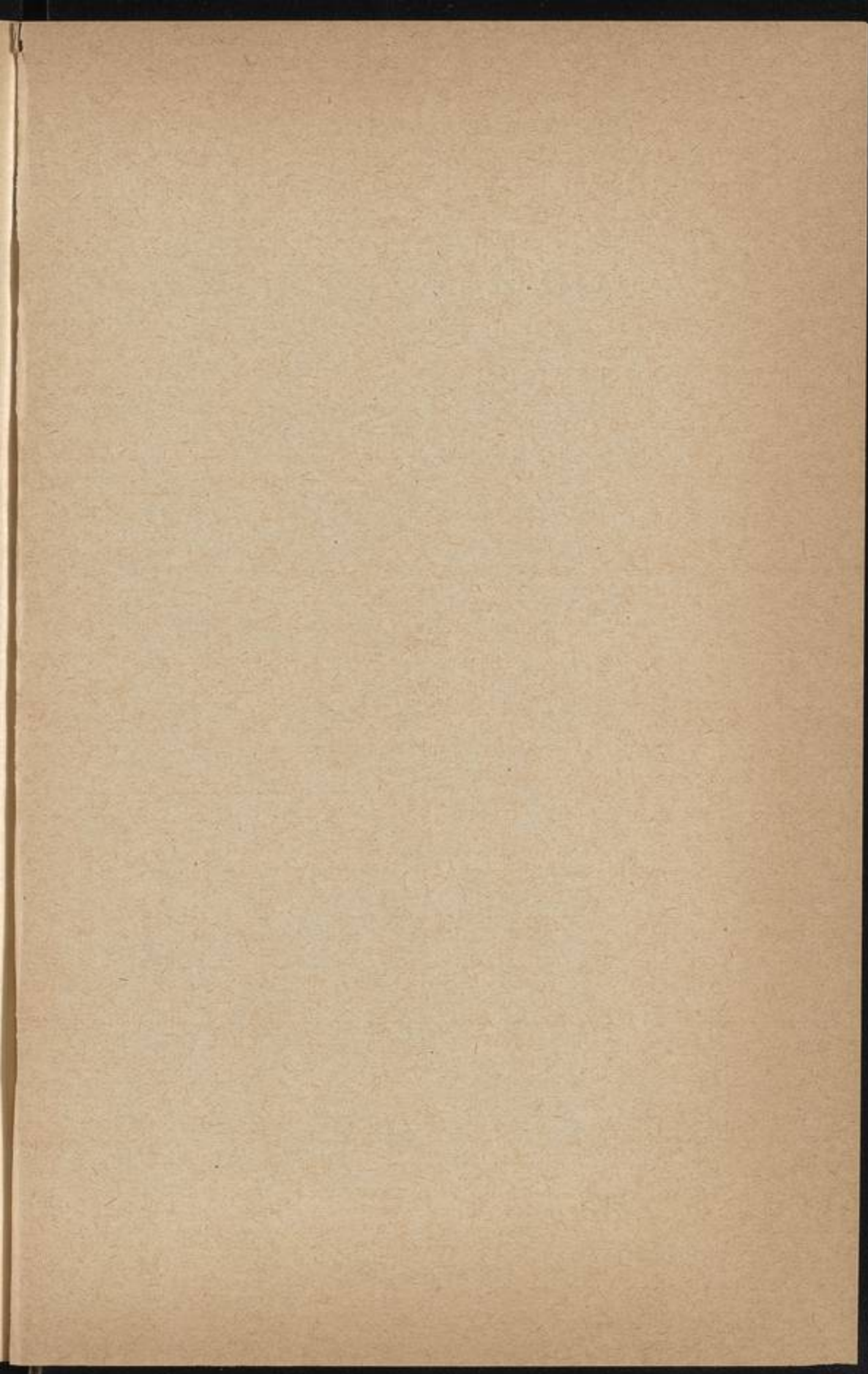
هذا ما سيقوله القارىء ، بعد أن يفرغ من قراءة الكتاب فليمض في قراءته حراً ملتصقاً آثار شخصية العامل في عمله .

وسلام عليه حين يبدأ ، وحين ينتهى .

وسلام عليه حين يعجب أو ينقد ؟

أمين الخولى

في مصر الجديدة ٢ يونيو سنة ١٩٥٣



تمهيد

لا نستطيع أن نمضى فى دراسة أبى الفرج الراوية قبل أن نعرف أولا وقبل كل شىء ما الراوية ؟

وحدود هذا اللفظ كما ترسمها المعاجم كثيرة . لعل أقربها إلى ما نحن بصدد من حديث عن الراوية فى الأدب والتاريخ هى التالية .
الراوية هو البعير أو البغل أو الحمار الذى يستقى عليه الماء . والرجل المستقى أيضاً راوية . . .

ورجل رواء إذا كان الاستسقاء بالراوية له صناعة . يقال جاء رواء القوم . .

وفى حديث بدر فإذا هو بروايا قریش أى إبلهم التى كانوا يستقون عليها . . يقال لسادة القوم الروايا قال أبو منصور وهى جمع راوية شبه السيد الذى تحمل الديات عن الحى بالبعير الراوية . . .

قال الجوهري رويت الحديث والشعر راوية فأنا راو فى الماء والشعر من قوم رواء . ورويته الشعر ترويه أى حملته على روايته وأرويته أيضاً . وتقول أنشد القصيدة يا هذا ولا تقل أروها إلا أن تأمره بروايتها أى باستظهارها (١) .

وواضح من كل هذه الحدود أو من كل هذه المعانى أن النقل من المعانى الأولى لهذه المادة وأنه كثيراً ما يكون المحور الذى تدور حوله استعمالات هذه المادة . وإذا كان النقل الذى يهمنى فى هذا الموطن هو نقل الأنباء والآراء أو النقل العلمى بمعناه الواسع الشامل كان من المستحسن أن نقصر الحديث عليه .

والنقل الدقيق يبدأ بالتحمل أى بجمع الراوى للأنباء والآراء أو

(١) راجع مادة روى فى كل من أساس البلاغة والنهاية واللسان .

للمرويات من طرقها المختلفة وأساليبها المتنوعة ولهم في التحمل حديث طويل لسنا بحاجة إليه في هذا الموطن ما دمنا سنعرض له في الباب الثالث إن شاء الله .

والراوى بعد التحمل يقابل ويصحح المرويات . يقابل ما سمعه فوعاه أو ما سمعه فدونه على ما عند غيره من الأقران ممن أخذ معه عن الشيخ أو يصحح ما سمعه على الشيخ نفسه أو على نسخته وهذا هو ما نستطيع تسميته بتصحيح النقل أو تصحيح السماع .

وعلى الراوى أن يحتفظ بالمرويات كما أخذها عن الشيخ من غير تغيير أو تبديل فيها وذلك بحفظها عن ظهر قلب ووعيا في الذاكرة وقد يضم إلى ذلك تدوينها في كتاب وذلك من حين التحمل إلى حين الأداء . ومن هنا نراه يشترطون في الراوية القدرة على الضبط وإلا تطرق الخلل إلى المرويات . وهذه أيضا من المسائل التي لن نحتاج إليها في هذا الموطن والتي سنتحدث عنها في الباب الثالث إن شاء الله .

أما الأداء فهو الذى يهمنا في هذا الموطن وهو الذى يجعلنا نفهم بوضوح وجلاء مدلول هذا العنوان (أبو الفرج الراوية) .

الأداء هو نقل المرويات مع تبليغها إلى الغير بأية طريقة من طرق النقل والتبليغ وذلك قد يكون بالكتابة إليه أو بالإملاء عليه أو بالمحادثة الشفهية أو ما شاكل ذلك من طرق للنقل والتبليغ . لكن على أى أساس تكون التأدية ويكون التبليغ ؟ أعلى أساس الصحة في النقل ؟ أم على أساس صحة المنقول وصدق قضاياه ؟

هنا لابد لنا من وقفة مع مختلف الرواة لنفهم أسلوبهم ونقف على طريقتهم ونضع أيدينا على ما هو الأساس .

ونبدأ من هؤلاء برواة الحديث فهم وأن يكونوا أحدث عهدا من رواة الشعر إلا أنهم هم الذين قاموا أولا ببحث هذه المسألة ودرسها درساً علمياً حسب طبيعة عملهم وانتهوا من كل ذلك إلى نظريات تعرف عنهم وتنسب إليهم .

يقول ابن الصلاح في مقدمته ، ومتى قالوا هذا حديث صحيح فعناه أنه اتصل سنده مع سائر الأوصاف المذكورة وليس من شرطه أن يكون مقطوعا به في نفس الأمر إذ منه ما يتفرد بروايته عدد واحد وليس من الأخبار التي أجمعت الأمة على تلقئها بالقبول .

وكذلك إذا قالوا في حديث إنه غير صحيح فليس ذلك قطعاً بأنه كذب في نفس الأمر إذ قد يكون صدقا في نفس الأمر وإنما المراد به أنه لم يصح إسناده على الشرط المذكور والله اعلم^(١)

فهذا النص - وبخاصة الفقرة الأخيرة منه - يشير إلى أن الأساس الأول الذي تدور عليه الرواية عند رواة الحديث إنما هو الصحة في النقل والتأكد من أن هذا الحديث قد ورد حقا عن رسول الله .

ولعل مما يؤكد هذا القول أنهم عند حديثهم عن التصحيحات التي قد يقوم بها الراوى قالوا أولا بإيراد المرويات كما سمعها وعلى ما فيها من أخطاء ثم يتبعها بما شاء من التعقيبات والتصحيحات^(٢) . إذا كان من يحق لهم ذلك لتقدمهم في العلم ومعرفةهم بالاحاديث . وليس يخفى أن مدار الفكرة هو أن الراوية إنما يهتم أولا وقبل كل شيء بالصحة في النقل .

والنقل على هذا الأساس في الأحاديث وفي الآثار المروية عن رسول الله هو الأمر الواجب الإتيان ذلك لأن المقصود الأول والآخر لرواة الحديث إنما هو التأكد من أن الرسول عليه السلام قد قال ذلك حقا أو فعله أو أمر به ليكون حديثا تجري حوله البحوث الفقهية مادامت السنة هي المصدر الثاني من مصادر التشريع .

وعلى هذا الأساس أيضا أساس الصحة في النقل يمتضى رواية الشعر واللغة وليس يخفى أن أساسهم مستمد من طبيعة صناعتهم التي هي التأكد من أن هذا الشعر قد قاله فلان وأن تلك اللفظة نطقت بها العرب ولعله

من هنا وقف بعض النحاة موقفهم المعروف من أحاديث الرسول عليه السلام حيث نراهم لا يعتمدون عليها في وضع القواعد النحوية لأنها كثيراً ما تروى بالمعنى^(١) وأعتقد أنا لسنا بحاجة إلى أن نمضى إلى أبعد من هذا الحديث عن رواة الحديث واللغة .

أما الأخباريون وهم الذين نغنى بهم في هذا الوطن فقد اختلفوا فيما بينهم وتوزعتهم الأسس السابقة من صحة في النقل أو صحة في المنقول وهذا التوزع هو الذى سيضع أيدينا على الفروق المميزة لنوعين من الأخباريين هم المؤرخون والرواة .

جاء في طبقات الشعراء لابن سلام ، وكان ممن هجن الشعر وأفسده وحمل كل غناء محمد بن اسحاق مولى آل مخزومة بن المطلب بن عبد مناف وكان من علماء الناس بالسير فنقل الناس عنه الأشعار وكان يعتذر منها ويقول لا علم لي بالشعر إنما أوتى به فأحمله ولم يكن ذلك له عذرا فسكرت في السير من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط وأشعار النساء فضلاً عن أشعار الرجال ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود أفلا يرجع إلى نفسه فيقول من حمل هذا الشعر ومن أداه منذ ألوف من السنين والله يقول وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما ابقى^(٢)

وواضح أن ابن اسحاق إنما يذهب مذهب الرواة أو مذهب من يرى أن واجبه الحمل والتبليغ وأن ابن سلام إنما يذهب مذهب المؤرخين الذين يطلبون الحقيقة ويرون أن واجب الإنسان ألا يحمل إلا ما هو الحق أو ما يتوقع أنه الحق . فالأول إنما يحرص على النقل والثاني إنما يحرص على صحة المنقول وإن قاس هذه الصحة باعتبارات خاصة بالسند .

وجاء في الطبرى ، وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادى في كل ما أحضرت ذكره فيه ، مما شرطت أنى راسمه فيه : إنما هو على ما رويت من الأخبار التى أنا ذاكرها فيه والآثار التى أنا مسندها إلى رواتها فيه . دون

(١) ١/٥ خزائن الادب

(٢) ٤ طبقات الشعراء ط ليدن سنة ١٩١٣

ما أدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه إذا كان العلم بما كان من أخبار الماضين وما هو كائن من أنباء الحادئين غير واصل إلى من لم يشاهدتم ولم يدرك زمانهم إلا بأخبار المخبرين ونقل الناقلين دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس . فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشعنه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهها في الصحة ولا معنى في الحقيقة فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا وإنما أتى من قبل بعض ناقله إلينا وأنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا . (١)

وواضح أن الطبري قد ألزم أن يؤدي المرويات على نحو ما أدبت إليه حتى ولو كان فيها ما يستنكره القارئ أو يستشعنه السامع وليس يخفى أنه يريد أن يقول إنني إنما أحرص على الصحة في النقل .

نعم إن الطبري يذكر في هذا النص أيضا أنه قد يعتمد في القليل اليسير إلى ما يدرك بحجج العقول ويستنبط بفكر النفوس وذلك قد يدل على القصد إلى الصحة في المنقول ولسنا نعارض للطبري موقفان موقوف هو الكثير الغالب يحرص فيه على الصحة في النقل . وموقف هو اليسير القليل يحرص فيه على صحة المنقول الأمر الذي قد يوجد عند غيره والذي سنجعل منه نقطة البدء في الفصل بين الراوية والمؤرخ بعد لحظة إن شاء الله ،

وجاء في معجم البلدان (حتى لقد ذكرت أشياء كثيرة تأباها العقول وتنفر عنها طباع من له محصول لبعدها عن العادات المألوفة وتنافرهما عن المشاهدات المعروفة وإن كان لا يستعظم شيء مع قدرة الخالق وحيل المخلوق وأنا مرتاب بها نافر عنها متبرئ إلى قارئها من صحتها لأنني كتبها حرصا على إحراز الفوائد وطلبا لتحصيل القلائد منها والفرائد فان كانت حقا

فقد أخذنا منها بنصيب المصيب وإن كانت باطلا فلها في الحق شرك ونصيب لأنى نقلتها كما وجدتها فأنا صادق في إيرادها ولتعرف ما قيل في ذلك حقا كان أو باطلا فإن قائلا لو قال سمعت زيدا يكذب لأحييت أن تعرف كيفية كذبه . وها أئمة الحفاظ الذين هم القدوة في كل زمن وعليهم الاعتماد في فرائض الشرع والسنن لم يشترط أكثرهم في مسنده وهي أحاديث الرسول التي تبنى عليها الأحكام ويفرق بها بين الحلال والحرام لإيراد الصحيح دون السقيم ونفى المعوج وإثبات المستقيم ولو لم يخرجهم ذلك عن أن يعدوا في أهل الصدق أو يتزحزحوا عن مراتب الأئمة والحق إنهم أوردوا ما سمعوه كما وعوه وإنما يسمى كذابا إذا وضع حديثا أو حدث عن من لم يسمع منه أو روى عن من لم يرو عنه فأما أن يروى ما سمع كما سمع فهو من الصادقين والعهدة على من رواه عنه إلا أن يكون من أهل الاجتهاد فله أن يرويه ثم يزيفه ولولا ذلك لبطل كثير من الأحاديث وعلينا الاقتداء بهم والتمسك بحبلهم (١) .

وواضح أن صاحب المعجم يجعل مدار الثقة في نقل الأخبار أو مدار الصدق والصحة فيها الصدق في النقل والصحة في الإسناد وهو يجري في ذلك على قاعدة رواية الحديث ويطلب إلى غيره أن يتمسك بحبلهم . وهنا شيء يجب أن نلتفت إليه هو أن صاحب المعجم يفرق بين الراوى وبين المجتهد ويجعل من حق الثانى أن يروى الحديث ثم يزيفه ذلك لأن هذه التفرقة بين الراوى والمجتهد في رواية الأحاديث هي التي تريد أن نعتمد عليها في التفرقة بين المؤرخين ورواة الأخبار حين نقول إن عمل المؤرخ هو رواية ثم استبعاد أو رواية تريد الوصول إلى ما هو في نفسه صحيح أو الوصول إلى الحقيقة التاريخية . أما الرواة فانما عليهم أن يعتمدوا في عملهم صدق النقل وصحة الإسناد . والراوى على ذلك هو ناقل الخبر دون نقد لمتنه صدقا كان ذلك المنقول أو كذبا فليس عليه من بأس في ذلك . وإنما

البأس كل البأس في الوضع أو في الرواية عمن لم يرو عنه أو في التحديث عمن لم يسمع منه أو يأخذ عنه بمكاتبات أو أجازات .

ولسنا في هذا الموقف بصدد بيان أدوات التزييف وعوامل الوصول إلى الحقيقة فقد تختلف الأدوات والسبل ولعل من أحسن ما يشار إليه في هذا المقام ما كتبه ابن خلدون في المقدمة وبخاصة في الفصل الأول منها وما كتبه كل من الأستاذين أسد رستم وحسن عثمان الأول في كتابه مصطلح التاريخ والثاني كتابه في منهج البحث التاريخي فليرجع إلى هذه الكتب من يريد الوقوف على سبل الوصول إلى الحقيقة التاريخية . وهناك أيضاً قد يجد فصولاً قيمة عن صنيع الرواة .

هذا الراوى الذى وقفنا على شيء من صفاته له خطره وقيمه من الناحية العلمية وله صفاته المميزة التى تفرق بينه وبين المؤرخ . بل له أحيانا شخصيته الجبارة التى قد تضع شخصيته المؤرخ إلى جانبها وتصبح لا عمل لها إلا بعمل الراوى ولا وصول لها إلى الحقائق إن لم تؤمن بذلك الراوى وما قدم لها من مرويات وما حفظ لها من وثائق .

ويأتى هذا الخطر الراوى من صفتين تلازمانه فى كل بيئة وفى كل أمة . وأولى هاتين الصفتين القدم . فالراوى أسبق ظهوراً فى حياة المعارف من صاحبه لا فى تاريخ التاريخ فحسب بل فى تاريخ كل فرع من فروع العلم وكل لون من ألوان الفنون والآداب . ومن هنا كان أبعد غورا وأرسخ قدما فى تاريخ الفكر البشرى وأظننا لسنا بحاجة إلى أن نقدم شيئاً من الأدلة أو البراهين حيث نقول إن تاريخنا العلمى ثبت أنه قد وجد راوى الحديث قبل أن يوجد المشرع المجتهد أو الفقيه . ووجد راوى الشعر واللغة قبل أن يوجد العالم بالشعر وباللغة . ووجد راوى الأخبار والأحداث قبل أن يوجد المؤرخ لأن كل ذلك من البديهيات التى لا تحتاج إلى دليل أو برهان .

أما الصفة الثانية فهى صفة تعتمد على الأولى وتستمد قوتها منها وتلك

هي صفة السيادة فالراوى لا سيما في حياتنا الفكرية الإسلامية العربية متسلط جبار فهو قد سيطر على حياتنا العلمية ورسم لنا الخطوط التي يجب أن نسير عليها في مختلف الميادين ومن هنا كان له من الانصار والاعوان من يقدره ويرى الخير كل الخير والبركة كل البركة في أن يتمسك بحبله وينسج على منواله وقد خلقت هذه السيطرة قدسية في عقول المقلدين تجعل النقد الذي يقوم به المؤرخ والمجتهد من الأمور الصعبة التي لا يقبلها أمثال هؤلاء ولن يدب النشاط الفكرى في حياتنا العلمية إلا بعد أن نتخلص من سلطان هؤلاء الجبابرة الرواه . ولن نتخلص من سلطانهم إلا حين نقف على الصغير والكبير من أمورهم ونعرف كيف جمعوا آراءهم وكيف كونوا معرفتهم وعلمهم وعلى أى أساس من الأسس الفكرية كانوا يصدرون حين خلفواها من تراث وحين رسموا ما رسموا من خطط ومناهج .

إن التجديد لن يكون حتى نناقش هذه الأسس وحتى نقوم بهذه المعارف لنعرف إن كان حقاً ما خلف الأقدمون أو باطلاً وصادقة هذه المعرفة أو كاذبة أما أن نتلقى ما يقولون ونردد ما يرون بدون أن نكمل نقد المؤرخ وتزييف المجتهد فإن سيؤدى حتماً إلى الجذب والفتناء .

هاتان الصفتان هما اللتان تمسكنان للراوى وتثبتان قدمه وهما اللتان نستطيع أن نحيلهما إلى عوامل شيخوخة وضعف لو كان فينا جانب من قوة وفصل من نشاط .

أما الفروق فتأتى من طبيعة عمل كل منهما ونستطيع أن نجعل أهمها فيما يلى :

١ - أنه لما كان عمل الراوى - النقل والنقل ليس غيره - كان معبراً عن رأى غيره في الحقيقة ومصوراً لوجهة نظر الآخرين . وذلك بخلاف المؤرخ الذى يحاول أن يصور لنا الحقيقة كما رآها ومن وجهة نظره هو ومن هنا نجد وحدة في عمل المؤرخ ونجد تعدداً في عمل الراوى ذلك لأنه قد يروى آراء مختلفة ومتعارضة في أكثر الأحيان .

على أن هذا الصنيع من الراوى له خطره فى الميدان العلمى ذلك لأن هذا الاختلاف وهذا التعارض لها أثرهما القوى الواضح فى محاولة الوصول الى الحقيقة وفى العمل على تجديد العلم ونشاطه وعلى دوامه واستمراره فلو لا هما لكان الجمود فى الحركة العلمية ولما كان الوصول الى الحقيقة فى غاية الحرج والمشقة ويكفى منا نظرة بسيطة الى أخبار الآحاد التى قد تصورهما كاذبا أو أسطورة خارقة . وكفى عانى العلماء من أخبار الآحاد؟

ب — أنه لما كان حظ المؤرخ من العلم الوصول الى الحقيقة كان من حقه أن يستغنى عن إيراد كثير من الأخبار التى لا يرتضيها العقل ولا يؤمن بها العلم وهو فى ذلك على العكس من الراوى الذى من ألزم لوازمه أن يروى ما يقع تحت يده من الأخبار حتى ولو آمن بأن ما يرويه من المصنوعات والأكاذيب أو من الأوهام والأساطير .

والراوى هنا يقدم للعلم خدمة جليلة ذلك لأنه هو الذى سيمكننا من دراسة خطوات التقدم والترقى فى حياة الفسك البشرى ويرينا كيف كان يفسر الأقدمون الظواهر ويعلمون المسائل ويمضون فى الشرح وفى التأويل .

ولو حاولنا أن نطلب إلى الرواة أن يصنعوا ما يصنعه المؤرخون من الاستغناء عما لا يعتقدونه الحق أو عما يعتقدونه الكذب لأضعنا على أنفسنا تراثا قد يمكننا من الوصول الى الحقيقة كما يحفظ لنا كثير من المواد التى لا يكون التاريخ تاريخا إلا بها . ويكفى الراوى أنه كان ولا يزال لمثل هذه الأشياء الحافظ الأمين .

ج — أنه لما كان حظ الراوى النقل والنقل ليس غير كان عليه أن يتوقف حين لا يجد ما يرويه وهو فى ذلك على العكس من المؤرخ الذى يكون من حقه أن يعتمد على البراهين النظرية والأدلة العقلية فيقدم المقدمات ويستنتج النتائج ويستنبط من الأمور ما يملأ به الفراغ ليقدّم لنا صورة الحقيقة كما رآها وكما آمن بها ويقدمها كاملة غير منقوصة إن وجد إلى ذلك السبيل .

والراوى حين يقف موقف الحافظ الحريص على هذه المسائل إنما يقدم
للعلم خدمة جليلة ذلك لأنه هو الذى سيأعدين العلم وبين الكذبة الوضاعين
كما أنه هو الذى سيقدم لنا الدليل على الكثير من أخطاء المؤرخين .

تلك هى أهم الفروق المميّزة أو الصفات البارزة لكل من الرواة
والمؤرخين وهى صفات أو فروق تستمد قوتها وحيويتها من صنيع كل منهم
وطبيعة عمله وعسى أن تكون من الواضوح بحيث تمكننا من فهم مدلول
عنوان هذا البحث كما تمكننا من درس أبى الفرج على أساس علمي .

وإذا كان لا بد من كلمة نختم بها هذا التمهيد ففى أنه يجب ألا يختلط علينا
الأمر فى فهمنا لشخصيات الأقدمين فنخاطب بين الرواة والمؤرخين وبخاصة
حين يكون المؤرخ من يعتمدون أسلوب الرواية فى التاريخ .

ولعل المسألة تزدد وضوحاً وبياناً فى الفصل الأول من الباب الثالث
عند حديثنا عن أبى الفرج وهل هو من الرواة أو من المؤرخين .

الباب الأول

العوامل المؤثرة في حياة أبي الفرج

الفصل الأول

الحدود الزمانية والمكانية

١ - الحدود الزمانية :

والحدود الزمانية لحياة أبي الفرج تبدأ بحد متفق عليه وتنتهي إلى حد مختلف فيه وهي ظاهرة تشعرنا بأمر ما في حياة أبي الفرج ذلك لأننا نعلم أن الأمر يجري على العكس من ذلك في الحدود التي تبدأ بها وتنتهي إليها حياة الآخرين من العلماء والعظماء ومن الأدباء والفلاسفة ورجال الفن ورجال الدين . فحد الوفاة هو المتفق عليه في الغالب وتاريخ الميلاد هو المختلف فيه . وتفسير ذلك ليس بالأمر الصعب فالطفل حين يولد لا يلتفت إلى مولده غير أهله ولسكنه حين يتوفى وبخاصة إذا كان قد بلغ من المجتمع مكانة سامية جعلته في عداد العظماء أو في عداد العلماء والأدباء - يلتفت إليه جميع الناس ويذكرون ذلك الحادث لأنه في عرفهم ليس من الحوادث الفردية التي تشغل الأهل فحسب وإنما لأنه من الأحداث التي تنزل بالمجتمع فيضطرب لها وقد يهتز من أجلها جميع الناس . ومن هنا فيما نرى كأن ذلك ذلك التقليد الذي يجري عليه المؤرخون وأصحاب كتب الطبقات من جعلهم حد الوفاة الأساس الزمني الذي يقوم عليه الترتيب التاريخي لحياة العلماء والأدباء .

هذه الظاهرة من تاريخ أبي الفرج لا بد لها من تفسير أو تعليل إذ لعل هذا التعليل أن يوضح لنا جانباً من جوانب هذه الحياة .

ان نستطيع أن نعلل هذا الاختلاف في تاريخ الوفاة بموت الرجل بعيداً عن الوطن فلقد توفي الرجل ببغداد وتوفي على ذلك بين الصحب والإخوان^(١).

وان نستطيع أن نعلل هذا الاختلاف بأنه من تطاول الزمن فقد وقع هذا الاختلاف بين المعاصرين الذين سجلوا أقوالهم في كتبهم من أمثال ابن النديم^(٢) وأبي نعيم^(٣) أو الذين أملوا أقوالهم أو رويها لطلابهم من أمثال ابن أبي الفوارس^(٤).

المسألة فيما أرى ترجع إلى أمر واحد هو أن الرجل قد فارق الدنيا ولم يكن قد اكتسب تلك الشهرة التي طبقت فيما بعد الآفاق ومن هنا كان الإهمال وكان النسيان وكان الاختلاف فيما بين المعاصرين من المؤرخين والرواة. ولن يعترض علينا معترض بتلك النصوص التي تروى عن أمثال المهلبى والصاحب ابن عباد وعبد العزيز بن يوسف وغيرهم من الولاة والوزراء^(٥) فتلك نصوص لم تكن فيما نرى إلا لتبني لكتابت الأغاني مجداً وتجعل لأب الفرج ذكراً. نصوص اخترعها أحد النساخ حتى يكثر الطلب فيكثر النسخ ويتسع الرزق كما سنذكر بتفصيل في الفصل الأخير من هذا الباب إن شاء الله. وقد يكفي في هذا الموطن أن نقرر أن هذه النصوص لم توجد في السكتب التي الفت في القرنين الرابع والخامس من أمثال الفهرست وأخبار أصبهان واليتمية وتاريخ بغداد وإنما وجدت في السكتب التي جاءت بعد ذلك والتي الفت بعد موت أبي الفرج بأكثر من قرنين من الزمن وفي ذلك من الشك والارتباب بهذه النصوص ما فيه.

إن كتاب الأغاني لم ينل حظه الفائق من الشهرة الا بعد أن فقدت

(١) ٢/٢٢ أخبار أسقفان لأبي نعيم

(٢) ١٦٧ الفهرست لأبي النديم ط الرحمانية بمصر

(٣) ٢/٢٢ أخبار أسقفان لأبي نعيم

(٤) ١١/٤٠٠ تاريخ بغداد للخطيب

(٥) ٩٧ و ١٣/٩٨ معجم الأدباء ط رفاعى

المسكبة العربية كثيراً من السكتب وكثيراً من المرويات التي اعتمد عليها أبو الفرج في التأليف ولولا ذلك لظل السكتاب وسطاً بين السكتب وظل أبو الفرج كما كان في عصره من الأدباء الذين يحسنون السمر ويجيدون قص الأخبار ولا شيء وراء هذا فليس الرجل بالشخصية الجبارة وليس الرجل بالعقلية الفذة حتى يضخم وتمتاضل إلى جانبه جميع الشخصيات . أبو الفرج شخصية عادية أو أديب مغمور في عصره ومن هنا كان الاختلاف في تاريخ الوفاة .

ولد أبو الفرج سنة أربع وثمانين ومائتين^(١) ذلك هو الحد المتفق عليه . وتوفي أبو الفرج سنة نيف وستين وثلاثمائة فيما يقول ابن النديم^(٢) أو سنة سبع وخمسين وثلاثمائة فيما يذكر أبو نعيم أو يوم الأربعاء لأربع عشرة خلون من ذي الحجة سنة ست وخمسين وثلاثمائة فيما يروى عن ابن أبي الفوارس^(٣) وهذا هو الأمر المختلف فيه .

نستطيع أن نتفق أولاً على إخراج قول أبي نعيم على أساس أن الرجل لم يكن على صلة تامة بأبي الفرج كما كان كل من صاحبيه ابن النديم وابن أبي الفوارس فقد كان الأول له قريباً وكان الثاني له تلميذاً وكل منهما قد روى عنه . روى عنه ابن النديم أخباراً في كتابه الفهرست^(٤) . وروى عنه ابن أبي الفوارس أحاديث فيما يذكر الخطيب^(٥) ولم يرو عنه أبو نعيم شيئاً فيما يحكى هو عن نفسه^(٦) .

ثم على أساس أن أبا نعيم أصبهاني وكل من ابن النديم وابن أبي الفوارس من البغداديين وقد توفي الرجل ببغداد فيما يحكى أبو نعيم نفسه وكما سبق أن ذكرنا . .

ولم يؤرخ أبو نعيم لأبي الفرج إلا لوجود هذا اللقب (الأصبهاني) ولولاه لسكت عنه لأنه لم يعرف من أمره إلا الأخبار الطائرة التي سجلها

(١) ١١/٤٠٠ تاريخ بغداد للخطيب (٤) ١١/٤٠٠ تاريخ بغداد للخطيب

(٢) ١٦٧ الفهرست لابن النديم ط الرحمانية مصر (٥) ١٠٣ الفهرست

(٣) ٢/٢٢ أخبار أصبهان لأبي نعيم (٦) ١١/٢٩٩ تاريخ بغداد

في بضعة أسطر قد لا تتجاوز في العدد أصابع اليد الواحدة . ولعله من كل ما تقدم رجح الخطيب البغدادي وغيره قول ابن أبي الفوارس على قول أبي نعيم (١) .

نتفق على إخراج قول أبي نعيم ونقف لنوازن بين القولين الآخرين قول ابن النديم وقول ابن أبي الفوارس فلعل هذه الموازنة أن تقربنا من الحق إن لم نضع يدنا عليه .

والنظرة الأولى للقولين تشعرنا بما في قول ابن أبي الفوارس من دقة متناهية وبما في قول ابن النديم من إهمال شنيع فإبن النديم يهمل اليوم والشهر ويهمل السنة ويكتفى بالعقد . أما ابن أبي الفوارس فيحدد اليوم باسمه وبموقعه من الشهر . ويحدد الشهر باسمه لنعرف موقعه من العام . ثم يحدد السنة تحديداً واضحاً بينما لا يحوطه غموض أو إبهام .

علام يدل هذا التحديد الواضح وهذه الدقة المتناهية ؟

لا نستطيع أن ندعى دلالتهم على الصدق لأنهما يحملان في طياتهما ظواهره فقد تكون هذه الظواهر آية الوضع وعلامة الزور والبهتان من حيث أن الواضع يعتمد دائماً إلى آيات الصدق فيحلى بها قوله حتى يخرج النفس إليه وثق به وتعتبر صاحبه من المدققين المحققين الذين يقفون كثيراً أمام الأخبار .

وعلام يدل هذا الإهمال الشنيع ؟

إننا هنا قد نخرج إلى دلالة على الصدق من حيث أن الشخص قد يهمل لأنه لا يعنى بأخباره ولا يحصل ما يقول وإنما لأنه يعرف أن ما يهمل من الحقائق الواضحة والأخبار البينة التي يعرفها الجميع وذلك هو الأمر الذي كان يفعله ابن النديم حين يؤرخ لمن كان قريب العهد من الأخباريين والأدباء وانظر إلى ما يقوله عن جعظه ، وأخباره أشهر وأظهر من أن

نذكرها في كتابنا لقرب عهده منا^(١) .

إن الذي يهمل قد يهمل لأنه يشعر أنه ليس بحاجة إلى هذه الدقة المتناهية التي توضح وتبين كل شيء ما دام الأمر في نفسه واضحاً . ومن هنا يجب ألا نقبل قول ابن أبي الفوارس لدقته وألا نرد قول ابن النديم لإهماله وإنما يجب أن نحذر الدقة فقد يكون السهم في النسم ويجب أن نبحث أسباب الإهمال فقد يكون الإهمال نفسه دليل الصدق وعلامة الصحة .

والنظرة الثانية تربنا أن ابن النديم قد خط قوله بيده وسجله في كتابه . أما قول ابن أبي الفوارس فقوله يروي عنه ولم يسجل في كتاب إلا بعد موت أبي الفرج بما يزيد على قرن من الزمن وذلك لأن الذي سجله إنما هو الخطيب في كتابه تاريخ بغداد .

هذه الظاهرة اعتماداً على قولهم بالعلو في السند وعلى ما نرى من أن الضبط بالسكتة أفضل من الضبط بالحفظ وأن الروايات المسكتوبة مقدمة على الروايات الشفهية تشعرونا بتقديم قول ابن النديم وترجيحه على قول ابن أبي الفوارس .

وإذا ما ضممنا إلى ذلك أن ابن النديم كان قريناً وزميلاً لأبي الفرج وأنه كان مقماً ببغداد وأنه كان من الأخباريين الذين يؤرخون للرجال^(٢) وأن ابن أبي الفوارس كان طالباً وكان لا يزال في سن الطلب وقت وفاة أبي الفرج وأنه كان رحل إلى غير بغداد وإلى غير البلاد العربية في طلب الحديث^(٣) وأنه لم يكن من الذين يؤرخون للرجال تبين لنا أن عوامل ترجيح قول ابن النديم أكثر وأنه الذي يصح لنا أن نعتبره الحق أو القريب إلى الصواب .

على أن الأمر قد لا يقف عند هذا الحد بل يعدوه إلى أن الخطيب كان يشك أحياناً في أقوال ابن أبي الفوارس حين تتعلق بحياة الرجال^(٤) . وإلى

(٢) راجع مقدمة الفهرست

(٤) ١/٤١٥ تاريخ بغداد

(١) ٢٠٨ الفهرست ط الرحمانية مصر

(٣) ١/٣٥٢ تاريخ بغداد

أن بعض الأقدمين قد شكك في قول ابن أبي الفوارس بل أبطله حين علق عليه بقوله «وفاته هذه فيها نظر وتفتقر إلى التأمل لأنه ذكر في كتاب أدب الغرباء من تأليفه . حدثني صديق قال . قرأت على قصر معز الدولة بالشماسية يقول فلان بن فلان الهروي حضرت هذا الموضع في سماط معز الدولة والدنيا عليه مقبلة وهيبة الملك ، عليه مشتملة ثم عدت إليه في سنة اثنتين وستين وثلاثمائة فرأيت ما يعتبر به اللبيب يعني من الحراب»^(١).

أعتقد أن الأمر قد وضح من حيث ترجيح قول ابن النديم لاسيما بعد ذلك النص الذي يثبت أن أبا الفرج قد أخرج كتابه أدب الغرباء بعد سنة اثنتين وستين وثلاثمائة .

لكن بما العمل في تلك العلة التي تمت لقول ابن أبي الفوارس وهذه الشهرة التي سارته في كل مكان حتى يعتمد عليه الجمل الغفير من المؤلفين قدماء ومحدثين من لدن الخطيب في كتابه تاريخ بغداد إلى الأستاذ أحمد أمين في كتابه ظهر الاسلام^(٢) ؟

لا شيء فالشهرة لا تكسب الرأي الصحة ولا تكسب القول الصدق لأنها لا تقوم على الحق وحده وإنما تقوم أحيانا على أسباب قد تكون سياسية وقد تكون دينية أو مذهبية وقد تكون اجتماعية وقد تكون شخصية بحتة وهي في كل هذا لا علاقة لها بالصدق أو الصحة . ولقد جاءت الشهرة إلى قول ابن أبي الفوارس من أن الخطيب وهو راويه الأول قد وثقه حين علق عليه بقوله . وهذا هو القول الصحيح في وفاته^(٣) . لكن يجب أن نعلم أن توثيق الخطيب له قد لا يفيد في شيء بعد ذكرنا للرجحات السابقة وبعد أن نعرف أن الخطيب إنما رجح قول ابن أبي الفوارس على قول أبي نعيم وأنه لم يتعرض لقول ابن النديم حتى لنظن بأنه لم يقع عليه حين أرخ لأبي الفرج وإلا فما سر هذا السكوت ؟

(١) ١٣/٩٦ معجم الأدباء . ط . رفاعي

(٢) ٢٤٠ ظهر الاسلام

(٣) ١١/٤٠٠ تاريخ بغداد ط / م ٩

ونتهى من كل ما تقدم إلى شيئين . الأول أنه يجب علينا أن نحذر الروايات المحددة الدقيقة فقد يكون السم في الدسم . وأن نحذر الروايات الشائعة المشهورة فقد لا يكون شحما ذلك الورم .

الثاني أن حياة أبي الفرج تبدأ بسنة أربع وثمانين ومائتين وتنتهى فيما هو القول الراجح بسنة نيف وستين وثلاثمائة . ومضمون ذلك أن أبا الفرج فارق الحياة وقد بلغ الثمانين من الأعوام وهو عمر مديد فيما نرى وهى سنوات عجاف اضطربت فيها أمور الدولة وسقطت فيها هيبة الخلافة وزالت دولة وقامت دويلات وكل ذلك أحداث سياسية واجتماعية خطيرة . أحداث شاهدها أبو الفرج شهود العيان وتأثر بها إن قليلا وأن كثيرا وظهرت آثارها فى حياته الطويلة لكن ليس لى أن أقف فى هذا الموطن لأتناول كل هذه الآثار بالحديث فأننا أعلم أن لكل منها موطنه فى الفصول المقبلة وأنا أعلم أنى لم أقف هنا إلا لأحقق تاريخيا تلك الأزمته التى عاش فيها أبو الفرج وإذ كنت قد بلغت من ذلك بعض ما أريد فإن من الخير أن أتركه إلى تحقيق أمر آخر هو الحدود المسكانية لتلك الحياة .

ب - الحدود المطالبة :

ولد أبو الفرج بأصبهان ونشأ وتربى ببغداد . إلى هذا الرى يذهب كاتب مادة أبي الفرج فى دائرة المعارف الإسلامية . كما يذهب إليه قوم آخرون . سبقوا هذا الكاتب أو جاءوا بعده . من أمثال طاشكبرى زاده . وخير الدين الزركلى . وسيد صقر . وأحمد أمين . الأول فى مفتاح السعادة ^(١) . والثانى فى الأعلام ^(٢) . والثالث فى مقاتل الطالبين ^(٣) . والرابع فى ظهر الإسلام ^(٤) . يذهبون إليه فى صراحة وفى عبارة لا يحوطها الغموض أو الإبهام . أما أنه نشأ وتربى ببغداد فذلك هو الأمر الذى لا تستطيع له دفعا .

(٣) ٩ مقاتل الطالبين مصر سنة ١٩٤٩

(٤) ٢٤٠ ظهر الإسلام

(١) ١/١٨٤ مفتاح السعادة

(٢) ٢/٦٦٦ الأعلام

ذلك لأننا نعلم أنه استوطن بغداد منذ صباه^(١). وأنه ليحدثنا بأنه كان بها حين ورد إليها أبو الفياض سواربن أبي شراعة. وأن ذلك كان حوالى سنة ثلاثمائة. وذلك حيث يقول: (. . . وابنه أبو الفياض سواربن أبي شراعة. أحد الشعراء الرواة. قدم علينا بمدينة السلام بعد سنة ثلاثمائة. فسكتب عنه أصحابنا قطعات الأخبار واللغة. وفاتني فلم ألقه. وكتب إلى والى أبي رحمه الله بإجازة. وأخبرنا بأخبار على يد بعض إخواننا... إلخ^(٢)). وأما إنه ولد بأصبهان فتلك هى المشكلة. ذلك لأننا نعلم أن أسرة أبي الفرج كانت تقيم بسرمن رأى. وكانت تقيم بها قبل مولد أبي الفرج بخمسين من السنين. كان يقيم بها جده، وجد أبيه. وكان يقيم بها عمه، وعم أبيه. وكان جد أبيه. أحمد بن الهيثم. من المعاصرين لاسحاق الموصلى^(٣). واسحاق قد فارق الدنيا قبل مولد أبي الفرج بنصف قرن على أقل تقدير.

كذلك كان عمه الحسن بن محمد. وعم أبيه عبد العزيز بن أحمد. من الكتاب بسرمن رأى فى ذلك الحين^(٤).

والأمر لا يختلف بالنسبة لأسرة أمه. فجدّه لأمه هو يحيى بن محمد بن ثوابه. وقد كان أيضا من الكتاب^(٥). وآل ثوابه فى ذلك الوقت كانوا يقيمون بسرمن رأى. أو ببغداد تبعاً للخلفاء والوزراء. كما كان شأن الكتاب فى ذلك الحين.

أسرتا أبي الفرج. أسرة أبيه، وأسرة أمه. كانتا تقيمان بسرمن رأى. أو ببغداد. كما سنشرح بتفصيل فى الباب التالى إن شاء الله. وإقامتهما بين البلدين تجعل الذهاب إلى القول. بأنه قد ولد بأصبهان. من المشكلات التى لا تحل. إلا إذا ثبت لدينا. أن أباه وأمّه قد انتقلا من سرمن رأى. أو من بغداد. إلى أصبهان. الأمر الذى لم نعثر له على دليل. بل الأمر الذى

(١) لوحة ٢٧٥ ب. ٩٢٧٦ تاريخ الاسلام الكبير للذهبي مصورة رقم ٤٢ تاريخ

دار الكتب.

(٢) ٢٠/٣٥ أغاني. سامي.

(٣) ١٨/٤٣ أغاني. سامي.

(٤) ٩٩، ٩٨ جمهرة الأنساب لابن حزم.

(٥) المصدر السابق. ١١/٣، ٢.

تعارضه الأخبار التي تدور حول أسرة أمه . أو حول أسرة أبيه^(١) .
على أن هناك أمراً آخر يزيد هذه المشكلة تعقيداً . أو يجعل القول
بمولده بأصبهان بعيد الاحتمال . ذلك لأن أبا الفرج حين يروى عن أفراد
الأسرة أو يتحدث عنهم يدل على أن لقب الأصبهاني لم يكن لقب
أبي الفرج فحسب . وإنما هو اللقب الذي يعرف به كل من عمه . وابن عمه .
وجده . فعمه هو الحسن بن محمد الأصبهاني^(٢) . وابن عمه هو أحمد بن الحسن
الأصفهاني^(٣) . أو أبو عبد الله أحمد بن الحسن بن محمد الأصبهاني^(٤) . وجده
هو محمد بن أحمد الأصبهاني^(٥) . ثم أن أباه هو الحسين الأصبهاني الأمر الذي
يكرره كثيراً رواة كتاب المقاتل . فليس أبو الفرج عندهم إلا على ابن
الحسين الأصبهاني . ومعنى ذلك كله أو مضمونه أن أبا الفرج قد ورث هذا
اللقب عن الأسرة . وأن التفسيرات اللغوية التي كان يظن أن تكون أحد
الابواب التي تحل لنا هذه المشكلة لا تصلح في هذا المقام .

ليس لنا من بد من تتبع هذه المسألة في السكتب وتنبعها على أساس من
التاريخ . وأعتقد أنا لسنا بحاجة إلى أن نقنع القارئ بأن تاريخ المشكلة يكون
دائماً جزءاً من حلها . فإنه يعلم ذلك . ويعلمه لأنه الأمر المقرر عند جميع العلماء .
لقد سكت ابن النديم وهو المعاصر لأبي الفرج عن هذه المسألة^(٦) . كما
سكت عنها معاصر آخر هو أبو نعيم^(٧) . ولا يعترض علينا بترجمة أبي نعيم
له في أخبار أصفهان فقد يكتفي في ذلك بهذه النسبة اللغوية . وقد يحيز ذلك
أن أصول الرجل من أصفهان . بل كان يحيز ذلك لإقامة الرجل في بلدة
ما مدة ليؤرخ له في السكتب التي تهتم بأخبارها حتى ولو لم يكن من أهلها .
الأمر الذي نجد له مثلاً عديدة في كتاب تاريخ بغداد .

أن أول من ذكر هذه المسألة من الأقدمين هو الثعالبي في اليتيمة وذلك
حين قال في ترجمته له (الأصبهاني الأصل البغدادي المنشأ^(٨)) . وهو قول

- (١) ٢٠/٩١ أغاني . سامي .
(٢) ٨/٣٦ المصدر السابق .
(٣) ٦/١٥١ المصدر السابق .
(٤) ١٥/١٠٢ المصدر السابق .
(٥) ٦٩٨ مقاتل الطالبين . مصر سنة ١٩٤٩
(٦) ١٦٦ ، ١٦٧ الفهرست . ط . الرحمانية . مصر .
(٧) ٣/٣٣ أخبار أصفهان .
(٨) ٢/٢٧٨ اليتيمة . ط . دمشق

لا ينص في صراحة على أن أبا الفرج قد ولد بأصبهان . بل هو حتى لا يدل على ذلك . ولعل الأمر الأقرب إلى الحق . أنه يدل على أنه لم يولد بأصبهان . ذلك لأن هذا التركيب ، أصفهاني الأصل ، إنما يدل في السكتب الأدبية لذلك العصر على أن أصوله هم الذين ينسبون إلى أصفهان . ولعل في الأمثلة التالية التي نقلها عن كتاب الأغاني لأبي الفرج . ما يلقي من الاضواء . ما نستعين به على تفسير هذا التركيب .

جاء في الأغاني بصدد حديثه عن محمد الرف هو محمد بن عمرو مولى تميم كوفي الأصل والمولد والمنشأ^(١) . وجاء بصدد حديثه عن حماد عجرد . وأصله ومنشؤه بالسكوفة^(٢) . وهي أقوال تشير فيما نرى . إلى أن الأصل إنما يعبر به عن الآباء والجدود . ولا يعبر به عن الشخص ونسبته إلى الموطن . وإذا فلا يستفاد من قول صاحب اليتيمة أن أبا الفرج قد ولد بأصبهان .

أما الخطيب فيعبر عن ذلك بقوله . (أبو الفرج الأموي الكاتب المعروف بالأصفهاني^(٣)) . ونشعر نحن من كلمة المعروف . بأن الخطيب لم يكن ليعتقد بأن أبا الفرج قد ولد بأصبهان . ويتأكد لدينا هذا الشعور من حرص الخطيب على هذه الكلمة كلما عنت المناسبات ، وسمحت الظروف بالحديث عن أبي الفرج . ومن ذلك أنه عند ترجمته للحسن بن محمد عم أبي الفرج يقولها أيضاً : عم أبو الفرج المعروف بالأصفهاني^(٤) .

لم يصح عند الخطيب فيما نعتقد . أن أبا الفرج قد ولد بأصبهان . أو لم يشأ هو أن يعبر عن ذلك في صراحة . وهو أمر يجعلنا في حرج إن اعتمدنا على قوله في تحقيق مولد أبي الفرج . وأنه كان بأصبهان .

أما صاحب وفيات الأعيان فقد كرر علينا عبارة صاحب اليتيمة . وسكت ياقوت في معجم الأدباء عن هذه المسألة . كما سكت ابن النديم من قبل . ووقف الذهبي عند قوله واستوطن بغداد من صباه^(٥) . ولم يشأ أن

(١) ١٣/١٨ أغاني . ساسي . (٣) ١١/٣٩٨ تاريخ بغداد .

(٢) ١٣/٧٠ المصدر السابق . (٤) ٧/٤١٢ تاريخ بغداد .

(٥) ٢٧٥ ب ٩١٧٦ تاريخ الاسلام الكبير للذهبي . مصور . دار السكتب .

يزيد عليها شيئاً . ومن هنا لم نعرف رأيه في مولد أبي الفرج وأين كان . وكذلك كان موقف ابن شاكر ^(١) .

إن أول من ذكر هذه المسألة فيما نعتقد هو طاشكبرى زاده . في كتابه مفتاح السعادة كما سبق أن أشرنا . وهو رجل قد تأخر عن أبي الفرج بأكثر من خمسة قرون .

ونعتقد نحن أن الرجل لم يعتمد على نص صريح واضح وصلة من الأقدمين . وإنما اعتمد على هذه التفسيرات اللغوية . التي نحاول دائماً أن نغل بها بعض المسائل . وهي تفسيرات لا تقطع في المسائل برأى . خاصة في مسائل النسبة هذه . فنحن نعلم أن النسبة إلى البلدة . لا تكون للشخص الذي ولد فيها فحسب . فقد تكون لمن مر بها ، أو أقام فيها فترة . ومن هنا قد يكون للشخص أكثر من نسبة . أو يكون له انتساب لأكثر من بلدة . الأمر الذي وقف عنده أصحاب علوم الحديث ^(٢) . كما قد تكون موروثه الأمر الذي رأيناه في شأن أبي الفرج . بل قد تكون لغير ذلك . تكون لأن في الشخص من الخلق والعادة ، أو من الشكل واللون ، ما يؤذن بهذه النسبة . جاء في الأغاني بصدد ترجمته للعاني ما يلي : اسمه محمد بن ذؤيب . . . وقيل له العاني وهو بصرى لأنه كان شديد الصفرة وليس هو ولا أبوه من أهل عمان ^(٣) .

لم يتحقق لدينا أن أبا الفرج قد ولد بأصبهان . وإنما الذي تحقق . أن الأسر التي ينسب إليها كانت تقيم بسر من رأى . وتحقق لدينا أن حركات انتقالها كانت بين سر من رأى وبغداد . كما سنشرح في الفصل التالي وفي الفصل الأول من الباب الثاني إن شاء الله . وهذا التحقيق التاريخي يجعلنا في مأمن إن جنحنا إلى القول بأن الرجل قد ولد بسر من رأى حيث كان يقيم الآباء والأجداد .

(١) ٤٧٥ عبون الثواريخ لابن شاكر . مخطوط . دار الكتب .

(٢) ٤١٧ مقدمة ابن الصلاح . (٣) ١٧/٧٨ أغاني . مسابي .

لا نستطيع بعد كل ما تقدم أن نعد أصبهان من الحدود المكانية لحياة أبي الفرج . لأن حيث أنه لم يثبت لنا أنه قد ولد بها بحسب . بل لأنه لم يثبت لنا أيضاً . أنه ذهب إليها حتى وهو كبير . أو أخذ عن شيوخها وهو صغير . أو صورها صورة فنية وهو أديب . ومن هنا جاز لنا أن نتركها ، وأن ننقل إلى غيرها عما نعتبرها من هذه الحدود .

لأبي الفرج ميزة قد تيسر علينا هذه المهمة . هي أنه كان يذكر في بعض مروياته الأمكنة التي تلقى فيها الخبر ، أو حل فيها المرويات . وذلك إذا كان المكان غير بغداد في الغالب . كان يذكر هذه الأمكنة مرة ويتركها أخرى . ولعله يفعل ذلك اعتماداً منه على أن القارئ قد فطن إلى المراد .

لا أستطيع في هذا الموقف أن أدعي بأن هذا كان حال أبي الفرج في جميع مروياته . وإنما أستطيع القول بأنه كان يجري على ذلك في بعض المرويات وأن هذا يكفي في تحديد بعض الأمكنة التي زارها أبو الفرج والتي ستفنعنا قطعاً في تصوير حياته وتصوير ما كان يتفاعل معه من تيارات .

وأظهر الأمكنة التي زارها أبو الفرج فيما سجله هو في مقاتل الطالبين . أو في كتاب الأغاني . هي الكوفة فقد التقى فيها أبو الفرج بالكثير من الشيوخ وروى عنهم الكثير من المرويات . من هؤلاء محمد بن عبد الله ابن سليمان الحضرمي^(١) . ومحمد بن جعفر الققات^(٢) . وعلى بن العباس المقانعي^(٣) . والحسين بن أبي الأحوص^(٤) . وكثير غيرهم نستطيع أن نعرضهم في عبارات لأبي الفرج نفسه تدلنا على مقامه بهذا المكان . جاء في الأغاني . حدثني أحمد بن عيسى أبو موسى العجلي العطار

(١) ١٤/١٥٧ أغاني سامي ، ١١/٣٩٨ تاريخ بغداد

(٢) ، (٣) ، (٤) لوحة ٢٧٥ ب تاريخ الاسلام الكبير للذهبي « مصور »

بالسكوفة^(١) . وجاء حدثي الحسين بن الطيب الشجاعى البلخى بالسكوفة^(٢) .
وجاء فى كتاب مقاتل الطالبين حدثي محمد بن على بن مهدى بالسكوفة
على سبيل المذاكرة . ونبأى أحمد بن محمد أستاذة^(٣) .

ويكرر أبو الفرج هذه الأسماء وغيرها فى أكثر من موطن .
ولأكثر من مناسبة وإذا كان لأثر الثقافة السكوفية فى حياة أبى الفرج موطنه
الخاص من البحث . وإذا كان المقصود من هذا الموقف هو التحقيق
التاريخى للأمكنة التى ألم بها ، أو أقام فيها . فإن علينا أن نترك هذا الموطن
إلى غيره .

ترك السكوفة إلى أنطاكية . وأنطاكية من البلدان التى سجل أبو الفرج
زيارته لها فقد جاء فى كتابه الأغاني . أخبرني عبد الملك بن مسلمة القرشى
بأنطاكية قال أخبرني أبى عن أهلنا أن أرطاة بن سبه^(٤) .

وجاء . أخبرني أبو المعتصم عاصم بن محمد الشاعر بأنطاكية وبها أنشدني
قصيدة البحرى . . . وأنشدني لديك الجن يفرى جعفر ابن على الهاشمي^(٥) .

ونجد لأبى الفرج زيارات لبعض البلدان الأخرى كالقادسية مثلا .
وهى زيارات نلسمها من حديثه عن الشيوخ الرواة . والصفات التى يصفها
بهم . وإن كنا لا نستطيع القطع بها . ذلك لأن أبا الفرج لا يحد المسألة
هذا التحديد الذى رأيناه فى حديثه عن كل من أنطاكية والسكوفة .

يقول أبو الفرج أخبرني محمد بن الحسين الكندى خطيب مسجد
القادسية^(٦) . ويقول أخبرني هاشم بن محمد الخزاعى ومحمد بن الحسين

(١) ١٧/٦٨ ، ١٨/١٦٢ ، ١٣/٣٤ . أغاني سامى .

(٢) ١٣/٦٩ المصدر السابق . (٥) ١٢/١٤١ المصدر السابق

(٣) مقاتل الطالبين . مصر سنة ١٩٤٩ (٦) ١٤/٨٥ المصدر السابق

(٤) ١١/١٣٥ أغاني سامى

الكندى خطيب المسجد الجامع بالقادسية^(١) . وهى أقوال كما ترى تشير ولا تقطع برأى .

وكنا نود أن نحدد الأزمنة التى زار فيها أبو الفرج هذه البلدان . ولكن ذلك لم يتيسر فى دقة . لأن أبا الفرج نفسه لم يحدده . ولأن غيره لم يشر إليه . وكنا نود الاعتماد على تاريخ الرجال الذين أخذ عنهم أبو الفرج فى هذه البلدان . ولكن هذا التاريخ أهمل فى حديث المؤرخين عن بعضهم كذلك الذى يخص أبو المعتصم عاصم بن محمد الأنطاكى^(٢) . وذكر وقت الوفاة فقط فى بعضهم الآخر . وهو وقت إن اعتمد عليه . فانه يدل على أن أبا الفرج زار الكوفة وهو صغير الأمر الواضح من إخراج كتاب مقاتل الطالبين وهو ثقافة كوفية ولم يكن قد تجاوز الثلاثين من العمر . الأمر الذى سنذكره بتفصيل عند حديثنا عن أثر الكوفة أو الثقافة الكوفية فى أبى الفرج . من الباب الثانى إن شاء الله .

وأخير أتجمل البصرة . ويظهر أن زيارة أبى الفرج لها لم تكن إلا آخر حياته . ذلك لأنه قص خبر هذه الزيارة فى كتابه أدب الغرباء . ولعله أن يكون من الخير أن نذكر هذا النص الذى يصور فيه أبو الفرج هذه الزيارة . لما فيه من تعبير صادق عن ذوق أبى الفرج وحسه .

« وكنت انحدرت إلى البصرة منذ سنين . فلما وردتها . أصعدت من الفيض إلى سكة قريش . أطلب منزلاً أسكنه . لأنى كنت غريباً . لا أعرف أحداً من أهلها إلا من كنت أسمع بذكره . فدانى رجل على خان فصرت إليه . واستأجرت فيه بيتاً . وأقت بالبصرة أياماً . ثم خرجت عنها طالبا حصن مهدى . وكتبت هذه الأبيات على حائط البيت الذى أسكنه .

(١) ٣٧٣ ، ٣٧٤ معجم الأدباء المرواني « ط » القدس سنة ١٩٥٤

(٢) ٢١/٣٩ المصدر السابق

الحمد لله على ما أرى من صنعتي من بين هذا الورى
أصارتني الدهر إلى حالة يعدم فيها الضيف عند القرى
بدلت من بعد الغنى حاجة إلى كلاب يلبسون الفراء
أصبح آدم السوق لى ما كلا وصار خبز البيت خبز الشرا
وبعد ملكى منزلا مبهجا سكنت بيتا من بيوت السكر
فكيف ألقى لاهيا ضاحكا وكيف أحظى بلذيذ السكر
سبحان من يعلم ما خلفنا وبين أيدينا وتحت الثرى
والحمد لله على ما أرى وانقطع الخطب وزال المرأ^(١)

وهو نص يشعر كما ترى بالحالة السيئة التى كان أبو الفرج قد انتهى إليها . كما يشعر بأن الرجل لم يكن يعرف أحداً من أهلها . اللهم إلا أولئك الذين سمع بذكرهم وهذا هو الوضع الذى يفسره ويؤيده أخذ أبي الفرج عن البصريين فقد كان يأخذ عنهم مكاتبة ، وإجازة . الأمر الذى يصوره هو نفسه فى حديثه عن طرق تحمله عن هؤلاء الشيوخ وبخاصة الفضل بن الحباب . جاء فى الأغاني . كتب إلى أبو خليفة . يذكر أن محمد بن سلام حدثه^(٢) وجاء أخبرني أبو خليفة الفضل بن الحباب فى كتاب إلى قال . حدثنا محمد بن سلام^(٣) وجاء أخبرني أبو خليفة فى كتابه إلى عن محمد بن سلام عن أبي زيد الأنصارى^(٤) .

ولعلنا لم ننس بعد حديثه عن الإجازة التى جاءته ، وجاءت إلى أبيه عن أبي الفياض سوار بن أبي شراعه . وكيف أنه كتب إليهما أخباراً . ومنها أخبار أبي شراعه البصرى^(٥) .

إن المواطن التى زارها أبو الفرج والتي استطعنا أن نحقق أمر زيارته

(١) ١١٥ - ١١٧/١١ معجم الأدياء لياقوت «ط» رفاعى
(٢) ١١/١١٠ أغاني بولاق (٤) ١٨/١٤ المصدر السابق
(٣) ١٢/١١ المصدر السابق (٥) ٣٠/٣٥ أغاني ساسى

لها . أو إقامته فيها ، تحقيقا تاريخيا لا يشوبه الشك . هي بغداد . والسكوفة .
وأنطاكية . والبصرة . وحصن مهدى .

وأن المواطن التي نتوقع زيارته لها من حديثه أو من قرائن
الأحوال . هي . القادسية ، وسرمن رأى . أما غير ذلك فلا نقطع فيه
برأى . لا نستطيع أن ندعى مثلا أنه زار حلب لأن قصة أهدام الأغاني
لسيف الدولة ليست ثابتة عندنا ولم يصرح هو أو غيره بزيارته لحلب .
وكذلك الحال فيما يخص أصبهان . كما سبق أن ذكرنا .

لا نستطيع أن نقطع في شيء غير المواطن السابقة برأى وإن كنا
نستطيع أن نختم هذا الفصل بهذه الجملة التي يصور فيها كاتب مادة أبي الفرج
من دائرة المعارف صاحبنا من أنه كان يعيش عيشة الأديب الجوال .

الفصل الثاني

الأسرة وما لها من أثر

من خططنا في البحث أن نعمل أولاً إلى الظواهر فنقف عليها ونحصيها ثم ننتقل بعد ذلك إلى التفسير والإيضاح . والظواهر المحصاة من حياة أبي الفرج والتي لا بد لنا في شرحها وتفسيرها من دراسة ذلك الجوانب الذي كان يعيش فيه ثلاث . ظاهرة سياسية وأخرى اعتقادية والثالثة ثقافية وتتعلق بذلك الميل الخاص نحو رواية الأخبار .

هذه الظواهر اشترك في تكوينها أو اشترك في العمل على تنميتها وإبرازها في حياة أبي الفرج كل من أسرة أبيه وأسرة أمه ومن هنا كان من الواجب علينا أن ندرس كل واحدة من الأسرتين وأن نبين ما لها من أثر في حياة أبي الفرج وفي حديث خاص .

١ - ينتسب أبو الفرج من جهة أبيه إلى الأسرة الأموية . هذا هو الرأي المجمع عليه بين المؤرخين والأدباء . فأبوه هو الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم بن عبد الرحمن بن مهران بن عبد الله بن مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أبي العاص^(١) .

والأسرة الأموية إحدى الأسر العربية العريقة التي يبدأ تارة تاريخها منذ العصر الجاهلي ويبدأ على أنها الأسرة التي كانت تنازع الأسرة الهاشمية السيادة والسلطان .

ليس من حقنا فيما نعتقد أن نمضي مع هذه الأسرة العريقة منذ أقدم العصور فندرس مكانتها في العصر الجاهلي والدور الذي لعبته في عصر

النوبة ومشاركتها في الحكم والسياسة في عصر الخلفاء الراشدين وانفرادها بالحكم حين دالت دولة على وانفرد بالخلافة معاوية بن أبي سفيان .

ليس من حقنا أن نقف لندرس شيئاً من هذا لسبيين الأول منهما أن هذه الأحداث لها محلها الخاص من كتب التاريخ الإسلامي وبخاصة السياسي . وإنا لنعرف أنها شغلت بالفعل كثيراً من المؤرخين الذين قصرُوا أنفسهم على هذه الدراسة وأخرجوا في ذلك كتباً قد تشبع نهم القراء^(١) .

الثاني : أن الذي يهمننا في هذا الموطن ليس إلا الجوانب التي تشرح وتفسر الظواهر المحصاة من حياة أبي الفرج وهذه الجوانب الشارحة المفسرة إنما تبدأ بزوال الخلافة الأموية ومقتل مروان بن محمد جد أبي الفرج وآخر الخلفاء .

ونحن حين نبدأ من هذه الفترة إنما نبدأ فنذكر تلك الصور الجبراء التي سجلتها كتب التاريخ الإسلامي حين صورت ما فعله العباسيون بالأمويين لاسيما الخلفاء وأبناء الخلفاء .

جاء في ابن الأثير . (وأمر عبد الله بن علي بنبش قبور بني أمية بدمشق فنبش قبر معاوية بن أبي سفيان فوجدوا فيه حطاما كأنه الرماد ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجدوا جهمته وكان لا يوجد في القبر إلا العضو بعد العضو غير هشام بن عبد الملك فإنه وجد صحيحا لم يبل منه إلا أرنبه أنفه فضر به بالسياط وصلبه وحرقه وذراه في الريح وتبع بني أمية من أولاد الخلفاء وغيرهم فأخذهم ولم يفلت منهم إلا رضيع أو من هرب إلى الأندلس^(٢)) .

وجاء فيه أيضا (وقتل سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس بالبصرة

(١) راجع (١) تاريخ الشعوب لبروكلمان . ترجمة دار العلم للعلايين ببيروت .
(ب) تاريخ الاسلام السيامي للدكتور حسن ابراهيم رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب .

(٢) ٥/١٧٤ الكامل «ط» المطبعة السكبري سنة ١٢٩٠ هـ

أيضا جماعة من بنى أمية . . . فلما رأى بنو أمية ذلك اشتد خوفهم وتشدت شملهم واختفى من قدر على الاختفاء^(١) .

وروى أبو الفرج نفسه صورا من هذه الصور الحمراء أو الصور البشعة المنسكرة روى قتل السفاح لوجوه بنى أمية^(٢) . وروى تميم سليمان بن علي بهم بالبصرة . أخبرني أحمد بن عبيد الله بن عمار قال حدثني علي بن محمد ابن سليمان النوفلي عن أبيه عن عمومه أنهم حضروا سليمان بن علي بالبصرة وقد حضره جماعة من بنى أمية عليهم الثياب الموشية المونقه فكأنى أنظر إلى أحدهم وقد اسود شيب في عارضيه من الغالية فأمر بهم فقتلوا وجروا بأرجلهم فالتقوا على الطريق وأن عليهم لسراويلات الوشى والكلاب تجر بأرجلهم^(٣) .

هذه الصور من الاضطهاد لم تقف عند حد تأسيس الدولة وإنما مضت طوال حكم بنى العباس حتى لتجد المعتضد الخليفة العباسي يصدر عام أربع وثمانين ومائتين وهو العام الذى ولد فيه أبو الفرج منشورا يصور لنا ذلك العداوة التقليدية بين أمية وهاشم أو بين الأسرة الأموية وخلفاء بنى العباس وهو المنشور الذى حفظ لنا الطبرى صورته^(٤) . والذى جاء فيه (. . .) اللهم العن أبا سفيان بن حرب ومعاوية ابنه ويزيد بن معاوية ومروان ابن الحكم وولده . اللهم العن أئمة الكفر وقادة الضلالة وأعداء الدين ومجاهدى الرسول ومغبرى الأحكام ومبدلى الكتاب وسفاكى الدم الحرام . اللهم إنا نتبرأ إليك من موالاتك أعدائك ومن الأغماض لأهل معصيتك كما قلت . لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله . أيها الناس اعرفوا الحق تعرفوا أهله وتأملوا سبل الضلالة تعرفوا

(١) ٥/١٧٥ المصدر السابق

(٢) ٩١ - ٤/٩٣ الأغاني سامي . (٣) المصدر السابق ٤/٩٤

(٤) ٢١٦٦ - ٤/٢١٧٧ الطبرى . المجلد الثالث طه أوروبا .

سابلها فإنه إنما يبين عن الناس أعمالهم ويلحقهم بالضلال والصلاح آباؤهم فلا يأخذكم في الله لومة لائم^(١).

هذه الحالة المزججة التي تقوم على أمثال ما قام به العباسيون من قتل وفتك ومصادرة للأموال والأرزاق لا توجد أبداً بين قوى قاهر وضعيف عاجز إلا ووجد معها دائماً بعض هذه الحالات .

الأولى : الهجرة وترك البلاد التي يفعل فيها الأقوياء ما يشاءون . وتسكون هذه الهجرة أوجب وألزم حين يكون الأقوياء من أصحاب النفوذ والسلطان كالحلفاء والولاة والوزراء .

الثانية : البقاء مع القدرة على التنكر والاختفاء عن أعين السلطان والبعد عن كل ما يلفت الذهن أو يبعث الشك والريبة ومن هنا يحاول الضعفاء دائماً في أمثال هذه البيئات البعد عن المشاركة في أى نشاط سياسى ظاهرى حتى لا يكون العسف والعنت والاضطهاد .

الثالثة : وهى حالة أهم من الحالات السابقة . حالة النشاط الذى يدور فى خفاء فان الضعفاء يعتمدون إليه لإحساسهم بأنه الوسيلة الوحيدة التي تمكنهم من القصاص ومن هنا نراهم يصادقون كل عدو للنظام ويعطفون على الخارج عليه فيكيدون للدولة سراً ماداموا قد عجزوا عن هذا السكيد فى وضح النهار . وهم بذلك يشفون أنفسهم مما تجد ويرضون غرائزهم تلك التي تدفعهم إلى الانتقام من الأعداء .

هذه الحالات وجدت فيما نرى فى حياة الأسرة الأموية بعد هزيمتها واضطهادها والفتك بأفرادها . فالهجرة إلى الأندلس حقيقة تاريخية مقررة وواقع تاريخى ملموس وأن آثارهم لتدل عليهم وليس منا من يستطيع أن ينكر وجود هذه الآثار .

والاختفاء عن أعين السلطان أمر تشهد به هذه البيئات .

(١) ذلك التنكر الذى يظهر فى اتخاذ ألقاب غير مشيرة إلى الصلة العائلية بالأسرة الأموية كلقب الأصفهاني ذلك الذى اشتهر به أبو الفرج واشتهر به غيره من أفراد أسرته بجده وعمه وابن عمه الأمر الذى أثبتناه فى الفصل الأول من هذا الباب .

(ب) ذلك التنكر الذى يشتهر فى اتخاذ حرف وألقاب مهنية كذلك الذى يثبتته النص التالى . (محمد بن الوليد الأموى الخياط المدينى روى عن أبي عيينه وهشام بن سليمان . حكى ابنه عنه أنه قال أنا من ولد سليمان بن عبد الملك بن مروان ولا تخبر به أحداً فإنى رجل خياط وإياك أن يسمع منك أحد (١) .

(ح) ابتعاد الأمويين عن المشاركة فى السياسة ومن هنا تخلو كتب التاريخ من الحديث عن الأمويين على أنهم من العمال أو من رجال الدولة الذين يقومون ببعض الأعمال للسلطان ولعل ذلك هو الذى يفسر لنا لماذا لم يكن أبو الفرج نديماً أو مؤدباً للخلفاء وأبناء الخلفاء .

أما الحالة الثالثة التى يدور بها النشاط فى خفاء فتثبتها النصوص الكثيرة التى توضح ما كان بين الطالبين والأمويين من جمال الصلة وحسن الجوار وهما أمران يظهران منذ التحضير والإعداد لقيام الخلافة العباسية .

جاء فى مقاتل الطالبين (. . .) وحدثني الحرث بن إسحاق أن مروان لما بعث عبد الملك بن عطية السعدى لقتال الحرورية لقيه أهل المدينة سوى عبد الله ابن الحسن وابنيه محمد وإبراهيم فكتب بذلك إلى مروان وكتب إليه أنى هممت بضرب أعناقهم فكتب إليه مروان ألا تعرض لعبد الله ولا لإبنه فليسوا بأصحابنا الذين يقاتلوننا أو يظهرون علينا .

قال أبو زيد وحدثني عيسى بن عبد الله عن أبيه قال . أرسل مروان ابن محمد إلى عبد الله بن الحسن بعشرة آلاف دينار وقال له اكفف عني

إليك وكتب إلى عامله بالمدينة أن استتر بثوب منك فلا تكشف عنه وإن كان جالسا على جدار فلا ترفع رأسك إليه .

أخبرني عيسى بن الحسين قال حدثنا أحمد بن الحرث عن المدائني قال بلغني أن عبد الملك بن عقبة اجتاز بحاج مشرف على الطريق ومحمد بن عبد الله ابن الحسن مطلع من خووخه فقال رجل لابن عطية ارفع رأسك فانظر إلى محمد بن عبد الله بن الحسن فطأ رأسه وقال للرجل إن أمير المؤمنين - يعني مروان بن محمد - قال لي أن استتر منك بثوب فلا تكشف عنه وإن كان جالسا على جدار فلا ترفع رأسك إليه ومضى (١) .

وجاء فيه أيضا (حدثني حكيم بن يحيى قال كان الحسين بن الحسين بن يزيد شيخ بني هاشم وذا قعدوهم وكانت الأموال تحمل إليه من الآفاق . قال فاجتمعنا يوما عند جدك أبي الحسن محمد بن أحمد الأصفهاني وجماعة من الطالبين فيهم الحسين بن الحسين بن يزيد بن علي . ومحمد بن علي بن حمزة العلوي العباسي وأبو هاشم داوود بن القاسم الجعفرى فقال جدك للحسين يا أبا عبد الله أنت أقعد ولد رسول الله صلى الله عليه وآله كلهم وأبو هاشم أقعد ولد جعفر وأنتما شيخا آل رسول الله صلى الله عليه وآله وجعل يدعو لهما بالبقاء . قال فنفس محمد بن علي بن حمزة ذلك عليهما فقال له يا أبا الحسن وما ينفعهما من القعدد في هذا الزمان ولو طلبا عليه من أهل العصر باقة بقل ما أعطياها . قال فغضب الحسين بن الحسين من ذلك ثم قال لي . تقول هذا . فوالله ما أحب أن نسبي أبعد مما هو بأب واحد يبعدني من رسول الله صلى الله عليه وآله وأن الدنيا بخذا فير هالي (٢) .

وجاء في المستجد (حدث القاضي أبو القاسم علي بن الحسين بن علي التنوخي في كتاب الفرج بعد الشدة . حدثني أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني

(١) ٢٥٨ ، ٢٥٩ . مقاتل الطالبين «مصر» سنة ١٩٤٩ .

(٢) ١٤٩ - ١٥٢ المستجد للتنوخي . دمشق سنة ١٩٤٦ .

قال كان محمد بن زيد العلوي الداعي بطبرستان إذا افتتح الخراج نظر ما في بيت المال من خراج السنة التي قبلها وفرقه في قبائل قریش على دعوتهم وفي الأنصار وفي الفقهاء وأهل القرآن وسائر طبقات الناس إلى أن يفرق جميع ما بقي . فجلس سنة من السنين يفرق مثل ذلك على عادته فلما بدأ ببني عبد مناف وقد فرغ من بني هاشم دعا سائر بني عبد مناف فقام إليه رجل فقال . من أي بني عبد مناف أنت ؟ قال من بني أمية . قال من أيهم أنت ؟ فسكت . قال لعلك من ولد يزيد ؟ قال . نعم . قال بئس الاختيار اخترت لنفسك من قصدك بلداً ولایة آل أبي طالب وعندك ثأرهم في سيدهم وقد كانت لك مندوحة عنهم بالشام والعراق عند من يتولى جدك ويحب برك فان كنت جئت عن جهل منك بهذا فما يكون بعد جهلك جهل . وإن كنت جئت مستهزئاً بهم فقد خاطرت بنفسك . فنظر إليه العلويون نظراً شديداً فصاح بهم محمد وقال . كفوا عافاكم الله كأنكم تظنون أن في قتل هذا دركا أو ثأراً للحسين ابن علي . وأی جرم لهذا . إن الله تعالى قد حرم أن تطالب نفس بغير ما اكتسبت والله لا يعرض له أحد إلا أقدمته به واسمعوا حديثاً أحدثكم به يكون لكم قدوة فيما تستأنفون حدثني أبي عن أبيه قال^(١) .

ويمضي في سرد قصة أخرى هي التي جعلها دستوراً في هذه القصة الماضية وهي قصة أثبتت حقاً هذه الصلة التي كان ينشدها الأمويون والعلويون في هذه الأيام .

وواضح أن النصين الأولين يثبتان رأى الأمويين في العلويين وما كان بينهم وبينهم من حسن الصلة والجوار .

وواضح أن النص الأخير ما ذكر منه وما لم يذكر يثبت ما كان يعد له الطالبون أنفسهم من العفو عن بني أمية ونسيان ما كان . هذه الحالات فعلت فعلها في نفس أبي الفرج فكان منه تشيع وكان منه

(١) ١٤٩ - ١٥٢ المستجد للنوحي . دمشق سنة ١٩٤٦ .

تأليف في مقاتل الطالبين الأمر الذي سنراه واضحا في الباب الثاني إن شاء الله .

أعتقد أنا وضعنا أيدينا على البذور الأولى التي كانت منها ظواهر سياسية معينة من حياة أبي الفرج وأنا نستطيع أن نترك ذلك الجو السباحي لأسرة الأب وننتقل إلى مافي الأسرة من ظواهر ثقافية أثرت هي الأخرى بدورها في حياة أبي الفرج حيث أوجدت فيه ميلا خاصا نحو رواية التاريخ والأخبار . والأشخاص الذين يمكن أن نعتمد عليهم في الكشف عن هذا الميل وفي بيانه وكيف وجد في أبي الفرج هم . محمد بن أحمد الأصبهاني جده ، عبد العزيز بن أحمد عم أبيه ، الحسن بن محمد الأصبهاني عمه ، أبو عبد الله أحمد بن الحسن الأصبهاني ابن عمه ، الحسين بن محمد الأصبهاني أبوه نعم نحن نعلم أن هناك أحمد بن الهيثم جد أبيه ونعلم أنه كان من المقيمين بسر من رأى وكان من المعاصرين لاسحاق بن إبراهيم الموصلي لكنه لن يفيدنا في هذا الموطن لأنه ليس من رواة الأخبار^(١) .

وكتب التراجم التي استطعنا الوقوف عليها تحمل أمر هؤلاء جميعا اللهم إلا الحسن بن محمد فقد ورد له ذكر في كتاب تاريخ بغداد إذ قال عنه الخطيب والحسن بن محمد بن أحمد بن الهيثم الأموي عم أبي الفرج علي بن الحسين المعروف بالأصبهاني حدث عن عمر بن شبة وعبد الله بن أبي سعد الوراق . روى عنه ابن أخيه أبو الفرج^(٢) .

كما نجد له ولعمه عبد العزيز بن أحمد ذكرا في كتاب الجهرة حيث يذكر ابن حزم أنهما كانا من كبار السكتاب بسر من رأى أيام المتوكل^(٣) .

غير أن هذا كله لا يكشف عن شيء من حقيقة هاتين الشخصيتين ومالهما من ميول ثقافية واتجاهات فنية وأدبية .

(١) ٢ ، ٣ / ٢١ أغاني سامي . (٢) ٧ / ٤١٧ تاريخ بغداد .

(٣) ٩٩ / ٩٨ جهرة النسب لابن حزم .

إن سيدنا إلى كل هؤلاء ليست إلا ما رواه أبو الفرج نفسه من أخبار .
وأوضح هذه الشخصيات من حيث الأخبار التي تدور حولها لا التي
تؤخذ عنها شخصية أبي الحسن محمد بن أحمد الأصماني جد أبي الفرج فهو رجل
كان يعيش حتماً في القرنين الثاني والثالث من القرن الثالث الهجري وذلك
لأن أبا الفرج يروي لنا عن طريق عمه فجده . أحداثاً وقعت له مع محمد
ابن عبد الملك الزيات و إبراهيم بن العباس الصولي كما يروي لنا أحداثاً وقعت
له مع الوزير عبيد الله بن سليمان في خلافة المعتضد .

جاء في الأغاني : أخبرني عمي قال حدثني أبي قال سمعت محمد بن
عبد الملك الزيات يقول أشعر الناس طراً الذي يقول :

وما أبالي وخير القول أصدقه حقنت لي ماء وجهي أوحقنت دمي
فأجبت أن استثبت إبراهيم بن العباس وكان في نفسي أعلم من محمد
وآدب فجلست إليه وكنت أجرى عنده مجرى الولد فقلت له من أشعر
أهل زماننا هذا فقال الذي يقول :

مطر أبوك أبو أهلة وائل ملاء البسيطة عدة وعديدا
نسب كأن عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصباح عمودا
ورثوا الأبوة والحظوظ فأصبحوا جمعوا جدوداً في العلى وجدودا
فاتفقاً على أن أبا تمام أشعر أهل زمانه ^(١) .

وجاء فيه : حدثني عمي عن جدي رحمهما الله قال . قال عبيد الله بن
سليمان وكان يأنس بي أنسا شديداً لقديم الصلابة واثتلاف المنشأ . دعاني
المعتضد يوماً فقال ألا تعاتب بدراً على ما لا يزال يستعمله من التخرق في
النفقات والإنايات والزيادات والصلوات وجعل يؤكد القول على في ذلك
فلم أخرج عن حضرته حتى دخل إليه بدر فجعل يستأمره في إطلاقات مسرفة
ونفقات واسعة وصلات سيئة وهو يأذن له في ذلك كله فلما خرج رأي في

(١) ٩٦ ، ٩٧ / ١٥ أغاني (سامي) .

وجهي إنكاراً لما فعله بعد ما جرى بيني وبينه فقال لي يا عبيد الله قد عرفت ما في نفسك وأنا وإياه كما قال الشاعر :

في وجهه شافع يحو إسماته من القلوب مطاع حيثما شفعنا
مستقبل بالذي يهوى وإن كثرت منه الإساءة مغفور لما صنعنا^(١)
ونحن نعلم أن محمد بن عبد الملك الزيات قد توفي سنة ثلاث وثلاثين
ومائتين لإحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول^(٢) . وأن عبيد الله بن
سليمان ولي الوزارة في أيام المعتضد للمرة الثانية وكان ذلك سنة تسع
وسبعين ومائتين^(٣) . وليس من شك في أن محمد بن أحمد الأصبهاني قد
سمع هذا الشعر من محمد بن عبد الملك الزيات وهو بحيث يسمع ويعي
ويحفظ ويوازن بين الرجال ولن يكون ذلك إلا إذا كان قد جاوز العاشرة
على أقل تقدير .

ولقد ولد محمد بن أحمد الأصبهاني فيما نعتقد حوالى سنة عشرين ومائتين .
وجد أبي الفرج كان يعيش بسر من رأى موطن إقامة محمد بن عبد الملك
وإبراهيم ابن العباس وعبيد الله بن سليمان ووالده أحمد بن الهيثم .

وهو رجل له مقامه في المجتمع فيقوم من إبراهيم بن العباس وهو من
هو مقام الولد ويأنس به أنسا شديداً وزير المعتضد عبيد الله بن سليمان
ويجتمع في منزله عليه القوم من الطالبين والعلويين والعباسيين من أمثال
الحسين بن الحسين بن زيد بن علي وأبي هاشم داوود بن القاسم الجعفرى
ومحمد بن علي بن حمزة العلوى العباسى^(٤) .

ثم هذا الجد لا يروى عن غيره وإنما يروى ما شاهده بنفسه وهو من
هذه الناحية راو أصيل ومروياته لها قيمتها الإخبارية ودالاتها التاريخية على
ما يشاهده من أحداث .

(١) ٣٢ ، ٩/٣٣ أغاني . سامى (٢) ٧/١٤ ابن الأثير ، ٢/٧٨ شذرات الذهب

(٣) ٧/١٦٣ ابن الأثير . ط سنة ١٢٩٠ هـ

(٤) ٩٦٨ مقال الطالبين « مصر سنة ١٩٤٩

ومحمد بن أحمد الأصماني له ميله الأدبي فهو رجل يسمع الشعر فيحفظه
ويسمع الحكم الأدبي فيحرص عليه ويحاول أن يستوثق فيه ممن يعتقد أنه من
كبار النقاد وهو إلى ذلك رجل له رأيته الخاص في النقاد فيفاضل بين كبيرين
من كتاب الدولة ويرى أن إبراهيم بن العباس أعلم وأدب من محمد بن
عبد الملك الزيات .

هذه هي الجوانب التي نلحها من بين ثنايا السطور . وهي جوانب
لا تكشف عن صورة هذه الشخصية ويكفي أنها توضح بعض المعالم وتهدى
إلى أول الطريق .

وإذا ما تركنا شخصية الجدد إلى شخصية الآب خيل إلينا أنا نعمل في
ظلام ذلك لأنها شخصية غامضة مبهم لا تكشف عنها النصوص في شيء
ولا تثبت لنا أنها شخصية راو من رواة الأخبار وراو لا نعلم عنه أكثر
من اسمه ولا أكثر من الخبر بأنه من رواة الأخبار .

ورواية أبي الفرج لأبيه نادرة جداً حتى لتكاد أن تكون في حكم العدم
ويكفي أن تعلم أنا لم نقف في ذلك إلا على خبر واحد وأن هذا الخبر قد
شاركه في روايته شخص آخر هو الحسن بن علي^(١) .

غير أن هذه النادرة التي تعتبر من حيث العدد في حكم العدم لا تنفي أثر
ذلك الآب في وجود الميل التاريخي عند أبي الفرج بحال من الأحوال ذلك
لأنه لا ارتباط مطلقاً بين الكثرة والقلة والتأثير وعدم التأثير .

إن قلة المرويات تعطل بأكثر من سبب فقد تكون لأن الحسين بن محمد
قد مات مبكراً ومات بعد أن أوجد الميل التاريخي في نفس ابنه وعمل على
تنميته إذ كان الرجل لا يزال حياً حينما بلغ ابنه من العمر ست عشرة سنة
ولم يكن بعد قد فارق الحياة .

وقد تكون لأن أبا الفرج يحب العلو في السند وأنه من هنا كان يأخذ

(١) ١٢/٥ أغاني ساسي .

عن الشيوخ الذين كان يأخذ عنهم والده وتلك هي الحالة التي يثبتها أخذهما سوياً عن أبي الفياض سوار بن أبي شراعة^(١).

وقد تكون غير هذين لكنهما على كل حال لا تنفي التأثير لأنه يكفي أن يهتم الرجل بالتاريخ وبرواية الأخبار حتى يكون له أثره في نفس ابنه الذي يعيش معه ويجعل منه مثله الأعلى في بعض الأحيان.

لقد كان الحسين بن محمد من رواة الأخبار وكان ابنه علياً من رواة الأخبار وهذا وحده كاف في إثبات الأثر وفي إيجاد الميل وليس من اللازم أن يأخذ عنه لنجعل هذا الأخذ هو الدليل الوحيد على ما ورث الرجل ابنه من ميول نحو التاريخ والأخبار.

ويأتى مع هذا في الغموض والخفاء وفي قلة المرويات أبو عبد الله أحمد ابن الحسن بن محمد الأصمعي ابن عم أبي الفرج فشخصيته غامضة والمرويات التي أخذت عنه لا تتجاوز الخبرين فيما نعلم^(٢). ولا نستطيع أن نتمسك في هذا المقام بالقول بأن أحمد هذا كان واحداً من الذين أوجدوا الميل التاريخي في نفس أبي الفرج لأنه كان فيما نعتقد أحد الأقران. ولعل هذا هو السر في قلة المرويات التي يأخذها أبو الفرج عنه والشئ الوحيد الذي نحرص عليه هنا أن أحمد بن الحسن الأصمعي واحد من الأدلة التي تثبت أن الميل إلى رواية التاريخ والأخبار صفة يتوارثها في هذه العائلة الأبناء عن الآباء.

ويبقى من هذه العائلة رجلان. أحدهما عبد العزيز بن أحمد والثاني الحسن بن محمد بن أحمد وهما بحق من فضلاء الرواة الذين اعتمد عليهم أبو الفرج في مروياته. ولا يذكر أبو الفرج الأول منهما إلا ويذكر معه نوع القرابة وهي أنه عم أبيه.

وعبد العزيز بن أحمد طريق أبي الفرج إلى شيوخ لهم خطرهم في ميدان

(١) ٢٠/٣٥ أغاني . ساسي .

(٢) ١٥/١٠٢ ، ١٦/١٥١ . أغاني ساسي .

الرواية التاريخية ورواية الأخبار فهو طريقه إلى الرياشي^(١) وأحمد بن يحيى ثعلب^(٢) وأحمد بن الحرث الخراز^(٣). والزبير بن بكار^(٤)

وأبو الفرج يروى عنه أحياناً بعض مشاهداته التي رآها بعينه أو سمعها بأذنه وذلك من أمثال ما شاهده من أحوال أبي العبر^(٥). وما سمعه من الحامض^(٦) وعبد العزيز بن أحمد كان يقيم بسر من رأى مع والده أحمد بن الهيثم أو مع أخيه محمد بن أحمد وهذا هو الذي يدل عليه ما ذكره ابن حزم من أنه كان من كبار الكتاب بسر من رأى أيام المتوكل ويدل عليه أيضاً ما ذكره من حالات أبي العبر وما رواه مما سمعه من الحامض.

ومرويات أبي الفرج عن عم أبيه قليلة إذا قيست بتلك التي رواها عن عمه والأخبار التي رواها عن عم أبيه لا تتجاوز العشرة فيما نعلم ويظهر أن هذه القلة إنما ترجع إلى أن المدة التي اشتغل فيها أبو الفرج برواية الأخبار وكان عم أبيه هذا لا يزال حياً لم تكن طويلة بالقدر الذي يمكنه من الأخذ الكثير عنه أو إلى أن أبا الفرج كان يأخذ أيضاً عن أقران عم أبيه من أمثال محمد بن جرير الطبري ومحمد بن الحسين الكندي وهاشم بن محمد الخزازي ومحمد بن العباس اليزيدي والطوسي وغيرهم ممن كان الرجل يأخذ معهم عن الشيوخ السابق ذكرهم من أمثال الرياشي والزبير بن بكار^(٧) ومن هنا كان يكتبني بالأخذ عن هؤلاء ويهمل الأخذ عن عم أبيه لا سيما وقد كان عبد العزيز بسر من رأى وأبو الفرج ببغداد.

ولا يظهر لنا من ميول هذا الرجل الأدبية أو صفاته الخلقية أو الخلقية شيء. ومن هنا نتركه إلى شيخ أبي الفرج من هذه العائلة وهو الحسن بن محمد الأصمباني.

(١) ٧/٣٧ ، ١٩/٤ المصدر السابق.
(٢) ٣/١٨٤ المصدر السابق.
(٣) ٨/١٤٩ المصدر السابق.
(٤) ٨/٩٠ ، ١٥/٣٢ المصدر السابق.
(٥) ٢٠/٩٠١ المصدر السابق.
(٦) ٢٠/٢٠ المصدر السابق.
(٧) راجع ٨/٩٠ ، ٩١/٤ أغاني . سامي

والحسن بن محمد أكبر أبناء محمد بن أحمد الأصبهاني فيما يظهر فقد كان الرجل يكنى بأبي الحسن^(١). وقد ولد الحسن حوالى سنة أربعين ومائتين وذلك هو الواضح من تلك الأخبار التى يروىها أبو الفرج عن عمه والتى يقص فيها ما شاهده من أحوال أبي العبر فقد توفى أبو العبر سنة خمسين ومائتين^(٢). وقد كان الحسن بن محمد فى سن تأذن له بالتحمل

وولد الحسن بسر من رأى حيث كان منزل الأسرة وحيث كان يقيم أبوه محمد بن أحمد الأصبهاني وعمه عبد العزيز بن أحمد. ثم هذا هو الواضح من حديثه عن مشاهداته التى رواها لنا عنه أبو الفرج وهى المشاهدات التى شاهدها وهو صغير^(٣). وقد عمر الحسن إلى ما بعد الثلاثمائة حيث التقى به ابن أخيه أبو الفرج وروى عنه الكثير من الأخبار. وحدود الثلاثمائة هى السن التى بدأ فيها أبو الفرج يطلب العلم ويسجل الأخبار^(٤).

والحسن بن محمد الأصبهاني أكثر أفراد هذه العائلة عدد مرويات فالأخبار التى رواها عنه أبو الفرج كثيرة إلى الحد الذى يسمح لنا بالقول بأنه كان واحداً من شيوخ أبي الفرج. ولعل الحسن هذا يفوق الكثيرين ممن عددهم المؤرخون من شيوخ أبي الفرج من أمثال ابن دريد وأبي خليفه وإبراهيم بن عرفة وأبي بكر الأنباري وعلى بن سليمان الأخفش^(٥) من حيث عدد المرويات.

وأثر الحسن فى كتاب الأغاني لاسيما فى الفقرات التى تروى فيها أخبار الشعر والشعراء من الموضوع بحيث لا تحتاج إلى أن نقف لنثبتها فاسمه يرد فى كل ترجمة تقريباً لكثير من الشعراء كما يرد فى مواطن كثيرة من ترجمة أبي الفرج للمغنين وبخاصة أولئك الذين اتصلوا بالقصور فى سر من رأى. ومن المقطوع به عندنا أن هناك صفحات كثيرة من كتاب الأغاني قد رويت بحملتها

(١) ٦٩٨ مقاتل الطالبيين. مصر (٢) ١١٧ الفهرست لابن النديم

(٣) ٢٠/٩١ أغاني. سامي (٤) ٤/٢٢١ لسان الميزان ٢/٢٣٣ ميزان الاعتدال

(٥) ١٣/٩٥ معجم الأدباء رفاعى.

عن الحسن بن محمد الأصهباني عم أبي الفرج^(١) وأن هناك شعراء قد رويت
أكثر أخبارهم عن الحسن والقليل الباقي عن غيره من شيوخ الرواة^(٢).
وللحسن بصر بالشعر لاسيما من حيث المعاني أو من حيث أخذ الشعراء
بعضهم عن بعض . يقول أبو الفرج أنشدت عمي رحمه الله أبياتا لابن دريد
يمدح رجلا من أهل البصرة :

يامن يقبل كف كل مخرق هذا ابن يحيى ليس بالمخرق
قبل أنامله فلسن أناملا لكنهن مفانح الأرزاق
فقال يابني هذا سرقة وابن الرومي جميعا من إبراهيم بن العباس . قال
إبراهيم بن العباس يمدح الفضل بن سهل :

فضل بن سهل يد تقاصر عنها الأمل
فباطنها للندى وظاهرها للقبل
وبسطتها للغنى وسطوتها للآجل

وسرقه ابن الرومي فقال :

أصبحت بين خصاصة ومذلة والحسد بينهما يموت هزيلة
فأمدد إلى يدا تعود بطنها بذل الندى وظهورها التقيلا^(٣)
وللحسن هوى مع إبراهيم بن العباس ولعل مبعثه تلك العاطفة التي كان
يكنها محمد بن أحمد الأصهباني والد الحسن وجد أبي الفرج لإبراهيم فقد كان
يراه كما سبق أن ذكرنا آدب وأعلم من محمد بن عبد الملك الزيات . وهذه
العاطفة أو هذا الهوى يظهر من النص السابق كما يظهر من هذا الخبر الذي
يقص فيه الحسن قصة هارون بن محمد بن عبد الملك الزيات وابن برد الحيار .
وهو أخبرني عمي قال اجتمعت أنا وهارون بن محمد بن عبد الملك وابن

(١) ١٠٦ - ٩/١١٢ ، ١٧ - ١٢/٢٤ أغاني .

(٢) راجع أخبار الصمة القشيري ، عبد الله بن العباس الربيعي ، محمد بن بشير ، وعلى

ابن الجهم ، ، ومنصور النمزي .

(٣) ٩/٢٨ أغاني . ساسي .

برد الخيار في مجلس عبيد الله بن سليمان قبل وفاته فجعل هارون ينشد من أشعار أبيه محاسنها ويفصلها ويقدمها فقال له ابن برد الخيار إن كان لا ييك مثل قول ابراهيم بن العباس :

أسد ضار إذا هيجته وأب بر إذا ما قدرا
يعرف الأبعد أن أثرى ولا يعرف الأدنى إذا ما افتقرا
أو مثل قوله :

تلح السنون بيوتهم وترى لهم عن جار بيتهم أزورار مناكب
وتراهم بسيوفهم وشفارهم مستشرفين لراغب أو راهب
حامين أو قارين حيث لقيتهم نهب الصفاة ونهزة للراغب
فاذكروا نحر به وإلا فاقلل من الافتخار والتطاؤل بما لا طائل فيه فجل هارون^(١)

فاهتمم الحسن بشعر ابراهيم وروايته لما فيه من مزايا ولما له من فضل لا تفسر إلا بذلك الهوى الذي عرف للأب قبل الابن .

والحسن من أبناء سر من رأى الذين زاروا بغداد طلبا للعلم وترجم له الخطيب فيمن ترجم لهم من علمائها وزائريها^(٢) . وهي ترجمة قصيرة كما سبق أن ذكرنا أول هذا الفصل . ثم هو من الكتاب ومن كبار الكتاب كما يذكر ابن حزم في جهرة النسب وكما سبق أن ذكرنا أيضا .

والشيوخ الذين يأخذ عنهم الحسن وأن يكن الكثير من مروياته عن شيوخ لا نعرف من أمرهم شيئا أو لا نعرف عنهم إلا جملة قد تكون غامضة مبهمة من أمثال محمد بن سعد السكراني . وعبد الله بن أبي سعد الوراق . ومحمد بن القاسم بن مهرويه .

ويأخذ الحسن عن شيوخ بغداد وشيوخ سر من رأى وإن كان أثر الأخيرة أوضح وأبين من أثر الأولى لا بالنسبة إلى عدد المرويات فحسب بل بالنسبة إلى الشيوخ وإلى الأحداث فهو يروى عن هارون بن محمد بن عبد الملك الزيات ويروى عن أبي العيناء وعن ابن برد الخيار وعن محمد

(٢) ٧/٤١٧ تاريخ بغداد .

(١) ٩/٣١ المصدر السابق .

ابن داود الجراح وعن عمر بن شبه وكل هؤلاء أقاموا بسر من رأى وتوفي الكثيرون منهم فيها ومعظم الأحداث التي يروونها عنهم — إن كانوا من مشاهديها — قد وقعت بسر من رأى ولعله لم يلق الثلاثة الأولين في غيرها من المدن .

هؤلاء هم النفر الذين وقفنا على شيء من أخبارهم وكان لهم أثر في حياة أبي الفرج من تلك الأسرة التي ينتسب إليها من جهة أبيه . ولعلنا أن نكون بعرض ما وصلنا من تاريخهم قد وقفنا إلى بيان شيء من الجو الذي كانت تعيش فيه هذه الأسرة ولا سيما الجو السياسي والجو الثقافي . واعتقد أنا قد وصلنا من ذلك إلى ما يمكن ومن هنا نستطيع لأنفسنا الانتقال إلى الأسرة الثانية التي أثرت في أبي الفرج وهي أسرة أمه فلعل هذا الانتقال أن يوضح بعض الأمور ويفسر بعض الظواهر .

(ب) وينتسب أبو الفرج من جهة أمه إلى آل ثوابه . جده لأمه هو يحيى بن ثوابه^(١) . وينفرد أبو الفرج بذكر هذه الحقيقة فلم نقع عليها في غير كتاب الأغاني حتى لقد خيل إلينا أنه لم يلتفت أحد من قبل إلى هذه المسألة ولولا أن أبا الفرج نفسه هو الذي يذكرها ولولا أنه كررها في كثير من المواطن حتى أنه لم يذكر يحيى بن محمد بن ثوابه حين يذكر لنا أنه ينسخ من كتابه إلا وينص على أنه جده لأمه^(٢) . لولا كل هذا لكان لنا من هذه الحقيقة موقف آخر ولعله أن يكون موقف الإنكار .

والحديث عن آل ثوابه يتطلب شيئاً غير قليل من الدقة والحذر ذلك لأن الصلة بين يحيى بن محمد بن ثوابه وبين شخصين آخرين باسمه هما أحمد بن محمد بن ثوابه وجعفر بن محمد بن ثوابه غير قائمة في السكتب أو غير منصوص عليها من الأدباء والمؤرخين ولن نستثنى من ذلك أبا الفرج نفسه فهو أيضاً

(١) ١٠/١٤٩ ، ١٣/٣٢ ، ١٥/١٠٦ . أغاني . سامي

(٢) راجع إلى جانب ما تقدم ٨/٧٢ ، ١٣/٨ ، ١٧/١٢١ . المصدر السابق .

لم يذكر لنا شيئا عن هذه الصلة التي كان من الممكن أن توضح لنا المسألة فيما يخص أسرة أمه حتى تربط بين يحيى وبين الأخوين أحمد وجعفر .
على أن هذا الحذر وتلك الدقة قد يهونان لولا تلك المسألة التي تعقد الأمور وتزيدها غموضا وإبهاما وهي أن إسم يحيى بن محمد بن ثوابه لم يرد فيما نعلم في غير كتاب الأغاني فلم يذكره ذاكر ممن قرأنا كتبهم ورجعنا إلى أخبارهم ممن تناول آل ثوابه بالتاريخ .

إن هؤلاء الثلاثة يحيى بن محمد بن ثوابه وأحمد بن محمد بن ثوابه وجعفر بن محمد بن ثوابه كانوا من السكتاب وكانوا في عصر واحد وفي زمن واحد وتوفوا جميعا في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري .

كان أحمد من كتاب الديوان في أيام المهتدي وله مع الخليفة ومع وزيره سليمان بن وهب أحداث يروى أخبارها أبو الفرج في كتاب الأغاني^(١) . ثم إنه كان واحدا من أولئك النفر الذين أباح المهتدي دماءهم الحسن بن مخلد وسليمان بن وهب وأحمد بن ثوابه وذلك سنة ست وخمسين ومائتين^(٢) . وقد توفي أحمد هذا سنة سبع وسبعين ومائتين^(٣) . أو سنة ثلاث وسبعين ومائتين^(٤) على خلاف في ذلك بين الصولى وابن النديم .

وكان جعفر متوليا لديوان الرسائل في أيام عبيد الله بن سليمان^(٥) وله إلى عبيد الله هذا رقعة هي السبب في جعله واحدا من كتاب الديوان وهي رقعة روى أكثرها التنوخي في كتاب نشوار المحاصرة^(٦) . وقد توفي جعفر بن محمد بن ثوابه بالرى سنة أربع وثمانين ومائتين^(٧) .

أما يحيى بن محمد بن ثوابه فقد كان جد أبي الفرج لأمه وإذا كان أبو الفرج

(١) ٢٠/٦٩ أغاني سامي (٢) من ١٨٣٢ المجلد الثالث - ٣ الطبرى . ط أوربا

(٣) ١٨٨ الفهرست لابن النديم . مصر

(٤) ٤/١٤٤ معجم الأدباء لياقوت . ط رفاعى (٥) ٤/١٤٦ المصدر السابق

(٦) ٨٣ ، ٨/٨٤ نشوار المحاصرة . دمشق

(٧) لوحة ٦٨ الوافى بالوفيات . مصورة رقم ١٢١٩ تاريخ . دار السكتب

قد ولد سنة أربع وثمانين ومائتين فليس من يعارض في أنه كان من رجال القرن الثالث الهجري . ثم كان من الكتاب ذلك هو الأمر الذي يدل عليه ذلك الخبر الذي يرويه عنه ابن مهرويه ويرويه عن ابن مهرويه لأبي الفرج شيخه الحسن بن علي . وهذا هو الخبر . وأخبرني الحسن بن علي قال حدثنا ابن مهرويه قال أبو علي يحيى بن محمد بن ثوابه الكاتب قال حدثني دعبل قال كان لي صديق ... (١)

ولسنا ندرى متى وأين توفي يحيى بن محمد بن ثوابه على التحقيق ولكننا نستطيع أن نطمئن إلى أنه قد توفي قبل أن يبلغ أبو الفرج سنّاً تؤذن له بالتحمل وإلا لأخذ عنه مباشرة ولم ينسخ عن كتابه . ثم أنا نعلم أن أبا الفرج قد أخذ عن معاصري جده لأمه مباشرة وروى عن نديمه أبي القاسم الشيربازي بعض الأخبار (٢) .

وقد كان يحيى يقيم بسر من رأى في الغالب هذا هو الأمر الذي يشعر به أصهاره لأسرة محمد بن أحمد الأصهباني المقيمة بسر من رأى في القرن الثالث كما يشعر به حديثه إلى ابن مهرويه وقد كان ابن مهرويه من الرواة الذين روى عنهم كثير أ الحسن بن محمد عم أبي الفرج والمقيم بسر من رأى أيضا . هذه الملابسات تدفعنا إلى الإحساس بأن يحيى بن محمد بن ثوابه كان أخوا لأحمد بن محمد بن ثوابه وإن يكن الإحساس الذي لم يستقر بعد في فكرة أو في رأى .

هناك شيء آخر قد يقوى هذا الإحساس ويدفع به خطوة إلى الأمام هو تلك العاطفة التي نلحها من بين ثنايا السطور وهي العاطفة التي يكنها أبو الفرج لأحمد بن محمد بن ثوابه ولإبنته العباس . فأبو الفرج يروى من أخبار آل ثوابه ما يزين ويسكت عما يشين مع أن مما يسكت عنه ما كان من جنس ما يعنى به لأنها الأقاصيص المرححة والنصوص الشعرية العذبة التي تصدر عن قوم لهم في الفن قدم ثابتة يعرفها لهم أبو الفرج نفسه .

يروى أبو الفرج عن طريق العباس بن أحمد بن ثوابه أخبار البحترى .
مع أحمد بن محمد بن ثوابه وكيف أن الشاعر قد بدأ بالهجاء ثم انتهى إلى
المدح^(١) . ولسكنه لا يحاول أن يذكر لنا شيئاً من شعر البحترى في آل
ثوابه لا عن طريق العباس ولا عن طريق غيره من الرواة وليس ذلك فيما
نعتقد إلا لأن هذا الشعر يسيء إلى أبي الفرج كما يسيء إلى آل ثوابه فقد
ذكرهم البحترى في هجائه بتلك الصناعة التي كان يزاوئها جدهم الأكبر وهي
الحجامة^(٢) . وذكرهم بها في شعر جميل رقيق^(٣) .

ولعل هذا الهجاء لآل ثوابه هو الذي دفع أبا الفرج إلى أن ينقصد
البحترى من حيث مذهبه في الهجاء ويحكم عليه هذا الحكم القاسى وهو أنه
لا يجيد هذا الفن في كثير . جاء في الأغاني بصدد حديثه عن البحترى ما يلى
(. . .) شاعر فاضل فصيح حسن المذهب نقي الكلام كان مشايخنا رحمة الله
عليهم يهتمون به الشعراء وله تصرف حسن فاضل نقي في ضروب الشعر
سوى الهجاء فإن بضاعته فيه نزرة وجيده منه قليل وإن كان ابنه أبو الغوث
يزعم أن السبب في قلة بضاعته في هذا الفن أنه لما حضرته الوفاة دعا به وقال
له أجمع كل شيء قلته في الهجاء ففعل فأمره بإحراقه ثم قال له يا بني هذا شيء
قلته في وقت فشفيت به غيظي وكافأت به قبيحا فعل بي وقد انقضى إرثي في
ذلك وإن بقى روى وللناس أعقاب يؤرثونهم العداوة والمودة وأخشى أن
يعود عليك من هذا شيء في نفسك أو معاشك لا فائدة لك ولا لى فيه .
قال فعلت أنه قد نصحتني وأشفق على فأحرقته . أحبرنى بذلك على بن سليمان
الآخفش عن أبي الغوث وهذا وإن كان كما قال أبو الغوث لا فائدة فيه
لأن الذى وجدناه وبقي فى أيدي الناس من هجائه فأكثره ساقط مثل
قوله فى ابن شيرزاد .

(١) ١٢٧ ، ١٨/١٧١ المصدر السابق (٢) ١٨٧ الفهرست لابن النديم

(٣) راجع ١١٨ ، ١١٩ ج ١ ، ١٠٨ ج ٢ ديوان البحترى . ط . الجوانب

سنة ١٣٠٠ هـ .

نفقت نفوق الحمار الذكر وبان ضراطك عنا فر
ومثل قوله في علي بن الجهم :

ولو أعطاك . ربك ما تمنى لزدك منه في غلظ الآبور
علام طفقت تهجوني مليا بما لفقت من كذب وزور
وأشبه هذه الآيات ومثلها لا تشاكل طبعه ولا تليق بمذهبه وتبىء
بركاكتها وغثائه ألفاظها عن قلة حظه في الهجاء ... (١) .

ولا يسكت أبو الفرج عن هجاء البحترى فقط لآل ثوابه وإنما يسكت
أيضا عن كثير من الشعر الذى هجا به الشعراء آل ثوابه ويظهر أنهم كانوا
هدفا حسنا للشعراء فى القرن الثالث فقد هجاءهم أحمد بن على المادرائى وأبو سهل
فى شعر فكه من أمثال الشعر الذى يعنى به أبو الفرج كما أطلق فيهم
أبو العيناء لسانه (٢) .

ولعله من الغريب أن يسكت أبو الفرج عن كل هذه الأشياء مع أن
رواتها من الذين يأخذ عنهم فهى فى الغالب مروية عن أستاذه الصولى أو
صديقه التنوخى أو كانت مما جاء به أستاذه جحظه فى أماليه .

إن فى الأمر سرا وليس السر فيما نعتقد إلا هذه الصلة التى تربط بين
أبى الفرج وآل ثوابه .

أما الصلة بين أبى الفرج والعباس بن ثوابه فيشهد بها ذلك اللقاء الذى
كان يروى فيه أبو الفرج بعض الأخبار عن طريق العباس (٣) . وتشهد به
تلك السكتب التى كان يدفع بها العباس إلى أبى الفرج وبخاصة كتاب إسحاق
الموصلى ذلك الذى يصور ما كان بين إسحاق وإبراهيم بن المهدي
من نقاش (٤) .

(١) ١٦٧ ، ١٨/١٦٨ أغاني ساسى

(٢) ١٥٤ - ٤/١٦٠ معجم الأدباء «ط» رفاعى .

(٣) ١٧٠ ، ١٨/١٧١ أغاني ساسى

(٤) ٩/٦٩ المصدر السابق .

أعتقد أن الأمر قد وضح بعض الشيء وأنا نستطيع أن ننقل إلى الحديث عما ورث أبو الفرج عن هذه الأسرة من ميول ثقافية أو دينية .

لا نستطيع أن ندعى بأنه قد ورث عنها ميله إلى التاريخ وإلى رواية الأخبار وإن كنا نستطيع أن نقول أن أفراد هذه الأسرة يحيى بن محمد ابن ثوابه وأبو الفضل العباس بن أحمد بن ثوابه قد نموا فيه ميله الموروث عن الأسرة الأولى أو أعانوه على الوقوف على بعض الأخبار أعانه جده لأمه يحيى بن محمد بذلك الكتاب الذى ينسخ عنه أبو الفرج بعض الأخبار التى تدور حول امرئ القيس والطرماس بن حكيم وابن قنبر وعبد الله بن الزبير وهى الأخبار التى أشرنا إلى صفحاتها من كتاب الأغاني عند حديثنا عن انتساب أبى الفرج إلى آل ثوابه أول هذه الفقرة .

وأعانه أحمد بن محمد بن ثوابه بذلك الكتاب الذى ينسخ عنه بعض الأخبار الخاصة بعبد الله بن العباس الربيعي^(١) والخاصة بنويع ويذكر أبو الفرج فى صراحة أنه لم يقع له من أخبار هذا الشاعر اليمامى إلا ما وجدته بخط أبى العباس بن ثوابه عن عبد الله بن شبيب فى أخبار رواها عنه^(٢) .

وأعانه أبو الفضل العباس بن أحمد بما سبق أن ذكرنا .

غير أن هذا العون ليس بشيء إذا قيس إلى جانب ذلك الميل الذى نستطيع أن نعهده بحق ميراث أبى الفرج عن هذه الأسرة ذلك هو ميله إلى التشيع وجزيه على مذهب الزيدية الأمر الذى لم يقبله بعض المؤرخين فى سر حتى لقد قال قائلهم ومن العجائب أن مروانبا يتشيع^(٣) .

لقد كان آل ثوابه من النصارى^(٤) . وحين أسلموا أصبحوا من غلاة الشيعة ومن الروافض^(٥) . ولقد ترجم لهم صاحب أعيان الشيعة فىمن ترجم لهم من أعيان هذه الطائفة^(٦) .

(٤) ١٨٧ الفهرست لابن النديم

(١) ١٧/١٣٧ . أغاني ساسي

(٥) ٤/١٤٨ معجم الأدباء «ط» رفاعى

(٢) ٢٠/٧٩ المصدر السابق

(٣) ٣/١٩ شذرات الذهب لابن العماد (٦) ٩/٣٣٠ أعيان الشيعة

وهذا الميل الموروث عمل على تقويته وتنميته ، تلك الظروف السياسية التي كانت تحيط بأسرة الأب ، وهي الظروف التي دفعتها إلى مصادقة الطالبين .

وتبقى بعد ذلك إشارة عابرة إلى أسيرة يذكر لنا أبو الفرج أنه قد كان بينهم وبينهم نسب ومصاهرة . جاء في الأغاني : سمعت أبا علي بن المرزبان يحدث أبي رحمه الله بهذا على سبيل المذاكرة وكانت بيننا وبين آل المرزبان مودة قديمة وصهر^(١) . وجاء أخبرني عمي عن محمد بن المرزبان^(٢) .

أعتقد أنا نستطيع الآن أن نترك هذا الجو إلى جو آخر له آثاره في نفس أبي الفرج وفي حياته وهو الجو المدرسي . وقبل أن نقوم بهذا الترك أو هذه النقلة نعود فنذكر القارئ مرة ثانية بذلك البذور التي ألفت بها الأمر في حياة أبي الفرج . وهي :

١ - البذور السياسية : وهي تلك التي عملت على أن تباعد بين أبي الفرج وبين الاشتغال بالسياسة أو الإهتمام بها من قريب أو من بعيد ، كما عملت على الخيولة بينه وبين أن يكون من المؤدبين أو الندماء في قصور الخلفاء العباسيين . ثم هي التي دفعت به إلى مصادقة أعداء العباسيين من الطالبين أو العلويين .

٢ - البذور الثقافية : وهي التي أوجدت ثم نمت في أبي الفرج ذلك الميل الشديد نحو رواية الأخبار أدبية وتاريخية ، ولعلها أن تكون هي التي دفعت به إلى الإشتغال بالكتابة .

٣ - البذور الدينية : وهي التي أوجدت فيه الميل نحو النشيع ولعلها التي دفعت به إلى أن يلج أبواب الثقافة الشيعية وهو صغير ، وإلى أن يؤلف أول عهده بإخراج الكتب في مقاتل الطالبين .

(١) ١٠/١٣٢ . أغاني . سامي (٢) ١٣/٢٣ المصدر السابق .

٤ — أمر أخير وهو شيء من الدعابة الخفيفة ومن الروح الفكهة
المرحة التي نراها في أبي العباس بن ثوابه والتي قد تشهد بها صلاته بالشاعر
المرح سعيد بن حميد تلك الصلوات التي يصورها هذا النص من نصوص
الأغاني ، أخبرني علي بن العباس بن أبي طلحة قال : حدثني بن أبي المدور
قال : دخل سعيد بن حميد يوماً على أبي العباس بن ثوابه وكان أبو العباس
يعاتبه على الشغف بالغلسان المرد فرأى على رأسه غلاماً أمرد حسن
الوجه عليه منطقه وثياب حسان . فقال له يا أبا العباس :
أزعمت أنك لا تلوط فقل لنا هذا المقرطق قائماً ما يصنع
شهدت ملاحظته عليك بريئة وعلى المريب شواهد لا تدفع
فضحك أبو العباس وقال : خذه لا بورك لك فيه حتى نستريح من
عتبك^(١) .

الفصل الثالث

الجو المدرسي

للأساتذة على الطلاب تأثيراتهم الخاصة التي لا يستطيع أن ينكرها منكر أو يجادل عنها مجادل ، وهي تأثيرات قد لا تقف عند حد تربية العادات الفكرية أو تنمية الملكات الذهنية وإنما تعدوه إلى ما هو أكثر عمقا وأبعد غورا من حيث تكوين الشخصيات العلمية والفنية فتعدوه إلى خلق المثل ورسم الأهداف وإلى دفع الطلاب إلى الإيمان بها إيمانا ثابتا قويا لا يستطيع أن تزعه العواصف أو تأني عليه الأعاصير ، وعند ذلك يصبح الأمر أمر العواطف الثابتة الصادقة التي تمسك أصحابها من السير إلى الأهداف بخطى ثابتة مستقرة وقلوب هادئة مطمئنة .

وأبو الفرج الأصمباني طالب من أولئك الطلاب الذين استجابت أنفسهم لبعض الأساتذة فأمنوا بهم واطمأنوا إليهم ومضوا في الحياة على هديهم وسمنهم فهم يسلكون مسلكهم في التأليف ويذهبون مذهبهم في التدوين وبلغاؤن إليهم كلما همهم أمر ، أو أحاطت بهم أنواء وأعاصير . وشيوخ أبي الفرج الذين روى عنهم أو جلس منهم مجلس الطالب من الشيوخ كثيرون وكثيرون إلى الحد الذي لا يسمح لنا بدرسهم على أنهم شيوخ قام بينهم وبين طلابهم نوع من التجاوب النفسى الذى يدفع إلى الاستهواء فالنقليد والمحاكاة إلا بضروب من المشقة وألوان من العنت والعناء . وليس ذلك إلا لآنا لن نستطيع الوقوف في سهولة ويسر على أولئك الذين نفثوا في أبي الفرج من روحهم فضلا عن أن نقف على أسلوبهم في التأثير وعلى مبلغ ما وصلوا إليه من نجاح .

إن هذه الكثرة الكثيرة من الشيوخ والرواة لم تؤثر ولا يمكن أن تؤثر

في أبي الفرج بمقدار واحد أو تصل من نفسه إلى نتائج واحدة وإنما تفاوتت شخصيات الشيوخ فتفاوتت تأثيراتهم من حيث القوة والضعف واستجابات نفس أبي الفرج إلى كل منهم بمقدار ولعل استجابتها إلى البعض كانت من قبيل النفور والفرار .

والوقوف على أولئك الذين طبعوا أبا الفرج بطابعهم الخاص وتركوا في مؤلفاته آثارهم لا من حيث هم شيوخ يأخذ عنهم أو يروى ما يدور حولهم بل من حيث نفاذهم إلى نفسه واهتزاز عاطفته ذلك الإهزاز الذي يدفع إلى الاستهواء . فالتقليد والمحاكاة أمر يحتاج إلى شيء غير قليل من اليقظة ذلك لأن الطريق إليه ملتوية وكثيرة المسارب بحيث يخشى الباحث على نفسه التيه والضلال . فنحن لا نستطيع مثلاً أن نعتمد في موقفنا هذا على تلك الروايات التي يحدد فيها المؤرخون شيوخ أبي الفرج ويذكرونهم لنا بأسمائهم لا لأن هذا التحديد ناقص لحسب ولا لأن هؤلاء لم يكونوا من جلة العلماء وكبار الشيوخ الذين يعقدون مجالس للإملاء يهرع إليها الطلاب وغير الطلاب ليسمعوا وليكتبوا فإنهم من ذلك يوفون بالغرض ، بل لأن هؤلاء المؤرخين كانوا يقيمون اختيارهم على وجهات نظر تختلف عن تلك التي يتطلبها الدرس الذي نريده فقد كان مؤرخو رجال الحديث يذكرون شيوخه من المحدثين وذلك من أمثال هؤلاء الشيوخ الذين يذكركم الخطيب البغدادي^(١) والذين يذكركم الذهبي^(٢) .

وقد كان مؤرخو رجال الأدب يذكرون شيوخه من اللغويين ورواة الأشعار والأخبار وذلك من أمثال هؤلاء الشيوخ الذين يذكركم ياقوت في معجم الأدباء^(٣) . إذ لم يلاحظ المؤرخون في الاختيار لهؤلاء الأشخاص شروطاً يقوم عليها الاستهواء وتحقق بمقتضاها الدوافع التي يدفع إليها

(١) ١١/٣٩٨ تاريخ بغداد .

(٢) لوجه ٢٧٥ ب تاريخ الإسلام الكبير للذهبي مصورة رقم ٤٢ تاريخ المجلد العشرون .

(٣) ١٣/٩٥ معجم الأدباء «ط» رفاعي .

الاستهواء من تقلب ومحاكاة . ولعل هذا هو الواضح البين لو تتبعنا ما قام بين بعضهم وبين أبي الفرج من صلوات . فرجال الحديث مثلاً أولئك الذين ذكرهم الذهبي والمخطيب لم يؤثروا فيه آثاراً تذكر بدليل انصرافه عن رواية الحديث إلى رواية الأخبار .

ثم إن بعضهم قد انتقل إلى رحمة ربه أول عهد أبي الفرج بطلب العلم ، وذلك من أمثال محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمي ومحمد بن جعفر القنات . فقد توفي الأول في ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومائتين ^(١) . وتوفي الثاني غرة جمادى الأولى سنة ثلاثمائة ^(٢) .

ورجال الأخبار واللغة أولئك الذين يذكركم ياقوت لم يأخذ أبو الفرج عن بعضهم في الغالب إلا عن طريق المكاتبات التي تدور بينهم ، وذلك هو ما حدث فيما بينهم وبين أبي خليفة الفضل بن الحباب الجمحي فقد كان قاضياً بالبصرة وكان يجيز لأبي الفرج أن يروى عنه ما يكتب به إليه ولم يذهب أبو الفرج إلى البصرة إلا وهو كبير ^(٣) . وقد توفي الفضل وأبو الفرج في سن العشرين تقريباً إذ توفي سنة خمس وثلاثمائة ^(٤) . ومن هنا لاستطيع أن نقول أنه قد طبع أبا الفرج بطابعه الخاص وقريب من هذا الموقف موقف أبي الفرج من ابن دريد فلم ينتقل ابن دريد إلى بغداد إلا بعد أن أسن وهرم ولم يلقه أبو الفرج إلا وقد بلغ من العمر مبلغاً يجعله مستعصياً على التقليد ، فقد لقيه تقريباً بعد أن جاوز الثلاثين ، ومن هنا لا نجد له مرويات في الكتاب الذي أخرجه أبو الفرج في هذه السن وهو مقاتل الطالبين .

وعلى العموم فاختيار المؤرخين لهؤلاء من شيوخ أبي الفرج الذين روى عنهم لا يقدم لنا ما نريد في هذا المقام .

(١) ٢/٢٢٦ شذرات الذهب ، ٣/٩٧ ميزان الاعتدال .

(٢) ٢/١٢٩ تاريخ بغداد .

(٣) ٣٣/١١٥ معجم الأدباء رفاعي . (٤) ١٦٥ فهرست لابن النديم . مصر .

ولا نستطيع أيضاً أن نجعل سبيلنا إلى هؤلاء الذين طبعوا أبا الفرج بطابعهم إحصاء عدد المرويات فيكون أولئك الذين روى عنهم أبو الفرج كثيراً هم أقوى الشيوخ تأثيراً وأكثرهم نفاداً إلى عقله وقلبه فنجن نعلم أولاً أن الإحصاء الدقيق لا سبيل إليه لأمر يسير هو أننا قد فقدنا معظم كتب أبي الفرج ونحن نعلم ثانياً أن الإحصاء العددي على فرض القدرة على تحقيقه لا يمكن أن يكون السبيل الصالحة لمثل هذا المطلب فكثرة المرويات وقلتها لا يجب أن ترتبط بقوة التأثير وضعفه ثم هي لا تتصل من قرب أو من بعد بتلك الأسس التي يقوم عليها التجاوب النفسي الذي يدفع إلى الاستمواء والتقليد والمحاكاة فقد يأخذ الطالب عن الشيخ ويأخذ كثيراً ومع ذلك لا يترك الشيخ في نفسه أي أثر فضلاً عن أن يكون هذا الأثر موحياً اللهم إلا إذا عدنا حشد المعلومات في ذاكرة الطالب من الآثار التي تقوم عليها أسنادية نفسية وتلبذه .

ثم أن الأسلوب العلمي الذي يقوم على أساس النقل والرواية ليس بالأسلوب الصالح لتنمية الملكات وتشكيل الشخصيات ولعل هذا هو الأمر الذي نراه كل يوم فأكثر الذين يعتمدون في تربية الطلاب على النقل والاملاء والذين تقوم دروسهم على مجرودات يبدلها غيرهم لا تنمو ملكاتهم ولا تتكون شخصياتهم هم فضلاً عن أن يبنوا هذه الأشياء أو يوجدها في أنفسهم الطلاب .

أن التجاوب النفسي إنما يقوم على أساس آخر هو الإحساس بقوة الشخصية ذلك الإحساس الذي يدفع الصغار إلى تقليد الكبار ويدفع الضعفاء إلى الكبار للأقوياء ويدفع البشرية إلى الجري خلف العابرة والنابهين ومن هنا قد يؤثر الأموات في الأحياء وقد يكون الأموات في كثير من المواقف أقدر على قيادة الجماعة والأخذ بيدها من كثيرين من الأحياء ولذا فأنا لن أعجب حين نرى أساتذة أبي الفرج الحقيقيين من بين الذاهبين لا من الأحياء الذين سعى إليهم للأخذ عنهم ولقيهم ذلك اللقاء المادي .

أعتقد أنا وصلنا إلى شعاع نستطيع أن نجعله الضوء الذى نسير خلفه فى هذه الطريق المتتوية طريق شيوخ أبى الفرج الذين طبعوه بطابعهم وحددوا مستقبله العلمى فى هذه الحياة . وهذا الضوء ليس إلا عاطفة الاعجاب أو ظاهرة الاستهواء تلك التى تدفع إلى التقليد والمحاكاة .

هذه الظاهرة لها علاماتها وهى فى هذا الموقف المشاركة فى الظواهر العقلية والوجدانية فنحكم بالتأثير والتأثر حيث نجد ظواهر مشتركة فى حياة الأستاذ والطالب علمية كانت أو فنية عقلية أو وجدانية .

وقبل أن نبدأ بالحديث عن هؤلاء الذين شاركهم أبى الفرج فى بعض الظواهر والذين نميل نحن إلى أنهم كانوا أساتذته الحقيقيين أحب أن ألفت الذهن إلى أمر لا بد منه هو أن مجرد المشاركة لا يكفى فى الحكم على أخذ الطالب من أساتذه بعض الصفات العقلية فالواجب علينا أن نفرق بين نوعين من المشاركة الأول منهما ذلك الذى يصدر عن إعجاب فاستهواء وهو مقصودنا فى هذا الدرس والثانى بعض تلك الظواهر العملية التى لا يلزم أن يكون الباعث عليها هو الاستهواء والاقتداء مثل تلك القدرة التى يذكرونها فى كل من أبى الفرج ونفطويه فنحن لا نستطيع أن نقول أن هذه القدرة التى كانت تبدو على أبى الفرج ^(١) . لم تكن إلا أثراً من تلك التى كانت فى أساتذه نفطويه ^(٢) . وأعتقد أن ليس هناك من يشك فى أن بعض الظواهر تتكرر فى أفراد لأسباب مشتركة مهما تباعد الأزمنة وتنام الديار . يجب أن نحذر التعميم وسرعة الأحكام وأن نجعل أساسنا فى الحكم بالتأثير والتأثر هو المشاركة التى يبعث عليها شئ من الاعجاب والاستهواء .

١ — والشخصية الأولى التى ملاسكت على أبى الفرج عقله وقلبه ودفعته به إلى لون معين من الفن هى شخصية اسحاق الموصلى فاسحاق هو ذلك الشخص الذى نال الإعجاب كله من أبى الفرج وهو الذى مضى أبى الفرج على سنته وسار على هديه فيما ألف من كتب أو خلف من آثار .

كان اسحاق في حس أبي الفرج من النابغين الذين تنوعت فنونهم وتعمقوا في ثقافتهم بل كان من العباقرة الذين يصلون بمجهوداتهم الخاصة إلى ما أفنى فيه الأوائل لاسيما الفلاسفة منهم الأعمار .

يقول أبو الفرج في ترجمته لإسحاق (. . .) وهو وضعه من العلم ومكانه من الأدب ومحلّه من الرواية وتقدمه في الشعر ومنزلته في سائر المحاسن أشهر من أن يدل عليه فيها بوصف وأما الغناء فكان أصغر علومه وأدنى ما يؤسم به وإن كان الغالب عليه وعلى ما كان يحسنه فإنه كان له في سائر أدواته نظراء وأكفاء ولم يكن له في هذا نظير فإنه لحق بمن مضى فيه وسبق من بقي وأحب للناس جميعاً طريقة فأوضحها وسهل عليهم سبيله وأنارها فهو إمام أهل صناعته جميعاً ورأسهم ومعلمهم يعرف ذلك منه الخاص والعام ويشهد به الموافق والمفارق . . . وهو الذي صحح أجناس الغناء وطرائقه وميزه تمييزاً لم يقدر عليه أحد قبله ولا تعلق به أحد بعده ولم يكن قديماً يميزاً على هذا الجنس إنما كان يقال الثقيل وثقيل الثقيل . . . وهذا كله فعله اسحاق واستخرجه بتمييزه حتى أتى على كل ما رسمته الأوائل مثل اقليدس ومن قبله ومن بعده من أهل العلم بالموسيقى وواقفهم بطبعه وذهنه فيما قد أفنوا فيه الدهور من غير أن يقرأ لهم كتاب أو يعرفه (١) .

وأعتقد أن ليس من حقلك أن تعترض بأن بعض أجزاء هذه الصورة ليس من الصحة في شيء وأنه ليس إلا من صنع الخيال فأنا وإن كنت أعلم هذا وأعلم إلى جانبه أنه ليس من اليسير أن يعيش اسحاق في عصر الترجمة عصر الرشيد والمأمون وأن يكون على مثل ما يصفه به أبو الفرج من اتساع في العلم والمعرفة وأن يصل إلى ما وصل إليه في فن الغناء دون أن يتلمذ في ذلك على أحد ودون أن يقرأ هو ذلك في كتاب . بل أنا أعلم أن من بين النصوص التي رواها أبو الفرج نفسه ما يثبت أن الترجمة في أمور الغناء كانت قائمة وأن أمور الغناء على الأصول اليونانية كانت محل جدل ومناظرة في عصر

اسحاق وأن اسحاق نفسه كان في بعض المواطن أحد طرفي الخصوم في الجدل والمناظرة^(١).

أعلم كل هذا وأعلم أن الحقائق لا تجعل من السهل تصديق ما يذهب إليه أبو الفرج ولكن في هذا الموقف إنما أبحث عن اسحاق الذي ترك آثاره في نفس أبي الفرج وعقله واسحاق التارك لهذه الآثار ليس إلا هذه الصورة الخيالية وليس هو اسحاق الذي كان في هذه الحياة .

إن هذه الصورة التي رسمها أبو الفرج بقوله : وإنما ذكرت هذا بتمام أخباره كلها ومحاسنه وفضائله لأنه من أعجب شيء يؤثر عنه أنه استخرج بطبعه علماً رسمته الأوائل لا يوصل إلى معرفته إلا بعد علم كتاب اقليدس الأول في الهندسة ثم ما بعده من الكتب الموضوعة في الموسيقى ثم تعلم ذلك وتوصل إليه واستنبطه بقرينته فوافق ما رسمه أوائلك ولم يشذ عنه شيء يحتاج إليه منه وهو لم يقرأه ولا له مدخل إليه ولا عرفه ثم يبين بعد هذا بما أذكره من أخباره ومعجزاته في صناعته فضله على أهلها كلهم وتميزه عنهم وكونه سماءهم أرضها وبحراهم جداوله^(٢) ، هي التي كانت توحى إلى أبي الفرج ومن هنا يجب أن نقف عندها وأن نغنى بها إن أردنا حقاً أن نبحت عن أثر الشيخ في الطالب . واعتقد أنك بعد ذلك قد رأيت أنه لا محل للوقوف عند هذا الاعتراض .

وعواطف أبي الفرج نحو اسحاق تظهر كلما سنحت لها الفرصة بالظهور فهي تظهر في ترجمته لاسحاق وتظهر بصورة واضحة جليلة عند ترجمته لإبراهيم ابن المهدي وبخاصة عندما يتحدث أبو الفرج عما كان بينهما من كيد وما كان يجري بينهما من مناظرات إذ ترى حرصه الشديد على ألا يسمى إلى اسحاق ومن هنا يحاول ألا يروي بعض الأخبار التي تسمى إلى تلك الشخصية ويعلن أنها من الأخبار الكاذبة وأنه من أجل هذا لن يذكرها . مع أن مذهب أبي الفرج في الرواية أن يروي الأكاذيب والمصنوعات كما سنرى في الباب الثالث أن شاء الله .

(٢) ٥/٥٠ المصدر السابق

(١) ٥/٥٠ المصدر السابق

إن دفاع أبي الفرج عن إسحاق وما فيه من صدق وحرارة لا يصدر إلا عن المعجبين الشديدى الإعجاب^(١).

وآثار إسحاق في حياة أبي الفرج العلمية والفنية واضحة كل الوضوح ويتحدث عنها أبو الفرج نفسه ويذكرها في صراحة لا ينقصها البيان فهو يقول في مقدمة كتاب الأغاني أنه قد جرى في تجنيسه للأغاني على مذهب إسحاق ، كل ما ذكرنا فيه من نسب الأغاني إلى أجناسها فعلى مذهب إسحاق ابن إبراهيم الموصلي وأن كانت رواية النسبة عن غيره إذ كان مذهبه هو المأخوذ به اليوم دون من خالفه مثل إبراهيم بن المهدي ، . . . ، . . .^(٢) ، فأبو الفرج لا يكتفي في التجنيس بذكر الروايات كما رويت وإنما يحيل ما كان منها على مذهب غير مذهب إسحاق إلى هذا المذهب .

وأبو الفرج يصرح أيضا بأن الذى بعثه على التأليف قول رئيس من الرؤساء الذين يميلون إلى هذا اللون من الفن والذين يرون أن كتاب الأغاني الذى بين أيدي الناس لا يمكن أن يسد الفراغ لأنه ليس لإسحاق ولأنه مع ذلك قليل الفائدة ، والذى بعثنى على تأليفه أن رئيسا من رؤسائنا كلفنى جمعه وعرفنى أنه بلغه أن الكتاب المنسوب إلى إسحاق مدفوع أن يكون من تأليفه وهو مع ذلك قليل الفائدة وأنه شك في نسبه لأن أكثر أصحاب إسحاق ينكرونه ولأن ابنه حماداً أعظم الناس إنكاراً لذلك وقد لعمرى صدق فيما ذكره وأصاب فيما أنكره ،^(٣).

ولعل هذا الأثر يزاد ببياننا وقوة إذا تنبهنا إلى أن مرويات إسحاق في أخبار الغناء والمغنين هي التي اعتمد عليها أبو الفرج في كتابه لا سيما في الأصوات المائة حيث كان يروى عن طريق الحسين بن يحيى ومحمد بن مزيد أخبار إسحاق عن طريق حماد ولعلنا لم نفهم بعد أمر ذلك الكتاب الذى

(١) ٧٢ ، ٧٣ / ٩ الأغاني . سامي

(٢) ١ / ٣ المصدر السابق

(٣) ١ / ٣ المصدر السابق

دفع به أبو الفضل العباس بن ثوابه إلى أبي الفرج فلقد كان كما علمنا كتاب اسحاق وبخطه الذي يعرفه أبو الفرج^(١).

على أن أبا الفرج يحدثنا في مرات أخرى عن كتب له أخرى لم يؤلفها إلا ليعين للناس أسرار الغناء وهو يذكرها دائماً في معرض أحاديثه عن اسحاق حتى لكان الباعث على تأليفها هو الدفاع عن اسحاق أو تثبيت مذهبه وبيان فضله. يقول أبو الفرج: «... وهذا عمرو بن بانه وهو من تلاميذه» اسحاق، يقول في كتابه الرمل الأول والرمل الثاني ثم لا يزيد في ذكر الأصابع على الوسطى والبصير ولا يعرف المجارى التي ذكرها اسحاق في كتابه مثل ما ميز الأجناس فجعل الثقيل الأول أصنافاً فبدأ فيه بإطلاق الوتر في مجرى البصير ثم تلاه بما كان منه بالبصير في مجراها ثم ما كان بالسبابية في مجرى البصير ثم فعل هذا بما كان منه بالوسطى على هذه المرتبة ثم جعل الثقيل الأول صنفين الصنف الأول منهما هذا الذي ذكرناه والصنف الثاني القدر الأوسط من الثقيل الأول وإجراه المجرى الذي تقدم من تمييز الأصابع والمجاري وألحق جميع الطرائق والأجناس بذلك وأجراها على هذا الترتيب. ثم لم يتعلق بفهم ذلك أحد بعده فضلاً عن أن يصنفه في كتاب فقد ألف جماعة من المغنين كتباً منهم يحيى المكي وكان شيخ الجماعة وأستاذهم وكلهم كان يفتقر إليه يأخذ عنه غناء الحجاز وله صنعة كثيرة حسنة متقدمة وقد كان إبراهيم الموصلي وابن جامع يضطران إلى الأخذ عنه ألف كتاباً جمع فيه الغناء القديم وألحق فيه ابنه الغناء المحدث إلى آخر أيامه فأتيا فيه في أمر الأصابع بتخليط عظيم حتى جعلاً أكثر ما جنسناه من ذلك مختلطاً فاسداً وجعلنا بعضه فيما زعمنا تشترك الأصابع كلها فيه. وهذا محال ولو اشتركت الأصابع لما احتيج إلى تمييز الأغاني وتصييرها مقسومة على صنفين الوسطى والبصير والسكلام في هذا طويل ليس موضعه ههنا وقد ذكرته في رسالة عملتها لبعض اخواني ممن سألني شرح هذا فأثبتته واستقصيته استقصاء يستغنى به عن غيره. وهذا كله فعله اسحاق واستخرجه بتمييزه...»^(٢)

(١) ٩/٦٩ أغاني. ساسي. وراجع أيضاً ١١٣/٤٢ (٢) ٤٩، ٥/٥٠ المصدر السابق

(٢) ٤٩، ٥/٥٠ أغاني. ساسي

ويقول (...) وقد ذكرت قطعة من هذه الأخبار في أخبار إسحاق وأنا أذكر ههنا منها ما لم أذكر هناك . وبما خالف إبراهيم بن المهدي ومن قال بقوله على إسحاق فيه الثقلان وخفيفهما ... وجرت بينهما في ذلك مناظرات ومجادلات ومراسلة ومكاتبة ومشافهة وحضرهما الناس فلم يكن فيهم من يقي بفصل ما بينهما والحكم لأحدهما على صاحبه ... وعمل الناس على مذهب إسحاق لأنه كان أعلم الرجلين وأشهرهما وأوضح إسحاق أيضا لذلك وجوهاً فقال . ولهما في ذلك كلام كثير ومخاطبات قد ذكرتها في أخبارهما وشرحت العلل مبسوطة في كتاب ألفته في النعم شرحا ليس بهذا موضعه ولا يصلح فيه (١) ...)

إن إسحاق هو الأستاذ الأول لأبي الفرج وإنه الأستاذ الذي ظهرت آثاره واضحة في حياة أبي الفرج العلمية والفنية لا من حيث ما أخذ أبو الفرج عنه من أخبار بأية طريقة من الطرق أو بأى إسناد من الأسانيد ولا من حيث تلك الأخبار الكثيرة التي كانت تدور حول إسحاق من حيث هي مادة من مواد كتاب الأغاني ففي هذين يستوى إسحاق وغيره بل من حيث أنه الشخصية التي استهوت أبا الفرج فامتلاً إعجاباً بها حتى دفعته إلى اختيار لون معين من العلوم والفنون ولم تقف المسألة عند حد الاختيار وإنما تعدته إلى التأليف والتصنيف وفي التأليف لم تقف المسألة عند حد المواد التي تجمع فتذكر وإنما تعدته إلى التصميم ونعتقد أن أمر أبي الفرج مع إسحاق لم يقف عند حد تحويل أجناس الغناء إلى مذهب إسحاق وإنما كان يجري أبو الفرج على أسلوب إسحاق في العرض ولعل هذا الخبر الذي يرويه الخطيب يصور لنا أسلوب إسحاق . جاء في تاريخ بغداد (...) وقال محمد أخبرني الصولي قال حدثني عبد الله بن المعتز حدثني أبو عبد الله الهشامى قال اعتبر أهلنا على إسحاق بأن دعوه ومدوا ستاره وأقعدوا كاتبين

ضابطين بحيث لا يراهما إسحاق وقالوا كلما غنت الستارة صوتاً فتسكلم عليه إسحاق فاكتبا الصوت واكتبا لفظه فيه وجعل إسحاق كلما سمع صوتاً أخبر بالشعر لمن هو ونسب الصوت وذكر جميع من تغنى فيه وخبراً أن كان له خبر . كتب ذلك كله وحفظ ثم دعوا إسحاق بعد مدة طويلة وضربوا ستارة وأمروا من خلفها أن يغنين بمثل ما كن غنين به في ذلك اليوم ففعلن وابتدأ إسحاق يتسكلم في الغناء بمثل ما كان يتكلم به ما حرم حرفاً . قال فعملوا وعلم الناس أنه لا يقول إلا صواباً وحقاً وعجبوا منه (١) .

إن طريقة إسحاق هذه هي الماثلة أمامنا في كتاب الأغاني وإنها الدستور الذي جرى عليه أبو الفرج في أخبار الأصوات والشعراء والمغنين . وإن الذي دفع أبا الفرج إلى أن يذكر الأجناس على مذهب إسحاق هو الذي جعله يجري في التأليف وأسلوب العرض على مذهب إسحاق أيضاً . وليس ذلك فيما نرى إلا الإعجاب بتلك الشخصية الفذة التي تعاون في رسمها الواقع والخيال أنها شخصية إسحاق .

أعتقد أنا نستطيع الآن أن نترك هذه الشخصية إلى شخصية أخرى لها آثارها أيضاً وتظهر عواطف أبي الفرج نحوها ظهوراً قوياً واضحاً هي شخصية عبد الله بن المعتز .

٢ - والشخصية الثانية التي أثرت في أبي الفرج وحازت منه بعض الإعجاب شخصية عبد الله بن المعتز وهي شخصية تحيى خلف شخصية إسحاق وتالية لها فلم يكن ابن المعتز وإسحاق عند أبي الفرج بمنزلة سواء وإنما ذهب إسحاق بالإعجاب كله وظفر منه ابن المعتز بنصيب ومن هنا كانت صورة إسحاق في ذهن أبي الفرج بعيدة عن الواقع وكانت صورة ابن المعتز من الواقع وجارية على سنته .

وعبد الله بن المعتز أثر في أبي الفرج بنفس الوسيلة التي أثر فيها إسحاق وهي السكتب فقد كان عبد الله من الأموات حين اتصل به أبو الفرج .

وصورة عبد الله عند أبي الفرج هي التالية (ومن صنع من أولاد الخلفاء فأجاد وأحسن وبرع وتقدم . جميع أهل عصره فضلاً وشرفاً وأدباً وشعراً وظرفاً وتصرفاً في سائر الآداب أبو العباس عبد الله بن المعتز بالله وأمره مع قرب عهده بعصرنا هذا مشهور في فضائله وآدابه شهرة تشرك في أكثر فضائله الخاص والعام وشعره وإن كان فيه رقة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهة المحدثين فإن فيه أشياء كثيرة تجرى في أسلوب المجيدين ولا تقصر عن مدى السابقين وأشياء طريفة من أشعار الملوك . في جنس ما هم بسبيله ليس عليه أن يتشبه فيها بفحول الجاهلية .. وكان عبد الله حسن العلم بصناعة الموسيقى والكلام على النغم وعلماؤه في ذلك وفي غيره من الآداب كتب مشهورة ومراسلات جرت بينه وبين عبيد الله بن عبد الله ابن طاهر وبين بني حمدون وغيرهم تدل على فضله وغزارة علمه وأدبه^(١) .)

وعواطف أبي الفرج نحو هذه الشخصية عواطف صادقة قوية ومن هنا كان دفاعه عنها حاراً وكان هجومه على خصوم عبد الله قويا عنيفا . يقول أبو الفرج بصدد هذا الدفاع (ولسكن أقواما أرادوا أن يرفعوا أنفسهم الوضيعة ويشيدوا بذكرهم الخامل وبعلو أقدارهم الساقطة بالطعن على أهل الفضل والقدح فيهم فلا يزدادون بذلك إلا ضعة ولا يزداد الآخر إلا ارتفاعا ألا ترى إلى ابن المعتز قتل أسوأ قتلة ودرج فلم يبق له خلف يقرظه ولا عقب يرفع منه وما يزداد بأدبه وشعره وفضله وحسن أخباره وتصرفه في كل فن من العلوم إلا رفعة وعلواً ولا نظر إلى أضداده كلها ازدادوا في طعنه وتقريظ أنفسهم وأسلافهم الذين كانوا مثلهم في ثلبه والطعن عليه زادوها سقوطاً وضعة وكلها وصفوا أشعارهم وقرظوا آدابهم زادوا بها ثقلاً ومقتاً فاذا وقع عليهم المحصل الموافق عدلوا عن ثلبه في الآداب إلى التشنيع عليه بأمر الدين وهجاء آل أبي طالب^(٢) ...) .

وتأثر أبي الفرج بابن المعتز سيظهر بوضوح عند حديثنا عن الفن الشعري عند أبي الفرج وكيف كان يجرى على مذهب المحدثين ذلك المذهب الذي يصوره هو عند دفاعه عن ابن المعتز بقوله (فليس يمكن واصفاً لصبوح في مجلس شكل ظريف بين ندائى وقيان وعلى ميادين من النور والبنفسج والزرجس ومنضود من أمثال ذلك إلى غير ما ذكرته من جنس المجالس وفاخر الفرش ومختار الآلات ورقة الخدم أن يعدل بذلك عما يشبهه من الكلام البسيط الرقيق الذى يفهمه كل من حضر إلى جعد الكلام ووحشية وإلى وصف البيد والمهامه والطبي والظليم والناقعة والجل والديار والقفار والمنازل الخالية المهجورة ولا إذا عدل عن ذلك وأحسن قيل له مسيء ولا أن يغمط حقه كله إذا أحسن الكثير وتوسط في البعض وقصر في اليسير . . .)^(١)

ولعل أكبر ما يعيننا على الوقوف ما كان بين أبي الفرج وبين ابن المعتز من صلات علمية وفنية ذلك الص الذي يقول فيه أبو الفرج ولقد قرأت بخط عبيد الله بن عبد الله بن طاهر رقعة إليه بخطه وقد بعث إليه برسالة إلى ابن حمدون في أنه يجوز ولا ينكر أن يغير الإنسان بعض نغم الغناء ويعدل بها إلى ما يحسن في حلقه ومذهبه وهى رسالة طويلة ويشاوره فيها فسكرت إليه عبيد الله قرأت أيدك الله الرسالة الفاضلة البارعة الموفقة فأنا والله أقرؤها إلى آخرها ثم أعود إلى أولها مبتهجا وأأمل وأدعو مبتهلا وعين الله التى لا تنام عليك وعلى نعمه عندك فانها علم الله النعمة المدومة المثل ولا والله ما رأيت جداً فى هزل ولا هزلاً فى جد يشبه هذا الكلام فى بلاغته وفصاحته وبيانه وإنارة برهانه وجزالة ألفاظه ولو أن هذه الرسالة جبهت الإبراهيميين إبراهيم بن المهدي وإبراهيم بن الموصلى وابنه إسحاق وهم يجتمعون لبهت منهم الناظر وأخرس الناطق ولا أقروا لك بالفضل فى السبق وظهور حجة الصديق ثم كان قولك

لهم فرقا بين الحق والباطل والخطأ والصواب ووالله ما تأخذ في فن من الفنون إلا برزت فيه تميز الجواد الرائع المغبر في وجه كل حصان تابع عضد الله الشرف ببقائك وأحيا الأدب بحياتك وجعل الدنيا وأهلها بطول عمرك .^(١)

ففي هذا النص نرى صورة ابن المعتز في ذهن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وهي صورة قد رضى عنها أبو الفرج بدليل تعليقه عليها بقوله : هذا كلام العقلاء وذوى الفضل في مثله لا كلام الثقلان وذوى الجهالة . هذا الرضى من أبي الفرج يشعرنا بما كان يكتنه لابن المعتز من عواطف وهي عواطف جديدة بأن تجره إلى التقليد والمحاكاة .

على أننا نرى صورة أخرى أقدر من السابقة على دفع أبي الفرج إلى أن يتأثر بابن المعتز وهي معالجة ابن المعتز لمسائل النغم فنحن نعلم أن هذه المسائل كان يجرى عليها الحوار والجدل بين اسحاق الموصلي وابراهيم بن المهدي كما نعلم أن أبا الفرج قد ألف في النغم وعللها وأنه كان يهتم إلى حد كبير بما كان يجرى بين ابراهيم واسحاق ومن هنا يصحح من غير المعقول ألا يهتم أبو الفرج وألا يتأثر بما ترك ابن المعتز من كتب ورسائل تعالج هذه المسائل بالذات .

فإذا أضفنا إلى كل ماتقدم أن أبا الفرج كان يجعل مرويات ابن المعتز وأقواله مصدراً مهماً من مصادره فينقل من كتابه أخباراً^(٢) . ويروى أحكامه النقدية في الغناء والمغنين^(٣) . عرفنا أن ابن المعتز كان واحداً من أساتذة أبي الفرج الذين استجابت نفسه لهم فقامت بهم واطمأنت اليهم ومضت في الحياة على شيء من هديهم وسنهم .

نستطيع الآن أن ننقل إلى الأحياء وأن ننقل أولاً وقبل كل شيء إلى جحظة البرمكي وأن تكون هذه النقلة بعد أن نلفت الذهن إلى شخصيتين أعجب بهما أبو الفرج من الأموات إعجاباً دفعه إلى تقليد أحدهما لكن لا إلى آخر الشوط وتلك هي شخصية أبي تمام فلقد بدأ

(١) ١٣٤ ، ١/١٣٥ المصدر السابق

(٢) ١٨/١٧٧ أغاني . سامي (٣) ٥/٩٢ المصدر السابق

أبو الفرج بتقليد أبي تمام والجرى على مذهبه في البديع أو في المجانس لكنه لم يمتص في التقليد إلى النهاية وإنما انصرف بعد أن بدأ الشوط وبعد أن جرى خلف صاحبه بضع جولات الأمر الذي سفسر حه عند حديثنا عن فن أبي الفرج الشعري :

أما الثانية فقد كان حظ أبي الفرج منها الإعجاب لكن لا على أنها المثل الأعلى الذي يحتذى وإنما على أنها الشخصية التي تمثل شخصية الإنسان المثقف كما يفهمه أبو الفرج وتلك هي شخصية عبيد الله بن عبد الله بن طاهر^(١) . ولن نستطيع أن ننكر أن أبا الفرج قد أعجب بكتابه الآداب الرفيعة الذي ألفه في النغم وعلل الأغاني^(٢) وأنه قد استفاد منه حين كتب في هذه الأشياء .

٣ - الشخصية الثالثة كما قلنا هي شخصية جحظه البرمكي وهو أحمد ابن جعفر بن موسى بن يحيى بن خالد بن برمك . وحظ جحظه من تنوع الثقافات وتعدد ألوان المعرفة ليس أقل من حظ اسحاق وابن المعتز فقد كان جحظه أديباً شاعراً وأخبارياً عالماً وكان من حذاق المغنين من الطنبوريين^(٣) ويقول عنه الخطيب : كان حسن الأدب كثير الرواية للأخبار متصرفاً في فنون جمّة عارفاً من العلوم بصناعة النجوم حافظاً لأطراف من النحو واللغة مليح الشعر مقبول الألفاظ حاضر النادرة وأما صناعته في الغناء فلم يلحقه فيها أحد ،^(٤) .

وحظ جحظه من عناية أبي الفرج بتدوين أخباره وجمع أشعاره أكبر من حظ كل من اسحاق وابن المعتز فقد ترجم أبو الفرج لكل واحد منهما في فصل يخصه من كتاب الأغاني وترجم لجحظه في كتاب خاص هو كتاب أخبار جحظه البرمكي وهو واحد من الكتب التي يحكي الثعالبي أنه رآها من بين كتب أبي الفرج^(٥) .

(١) ٨/٤٢ المصدر السابق . (٢) ٤٣ المصدر السابق

(٣) ٢٩٨ فهرست لابن النديم (٤) ٤/٦٥ تاريخ بغداد

(٥) ٢/٣٧٨ البنية . دمشق

أما حظه من حيث الوسائل التي يعتمد عليها في التأثير فقد كان كبيراً حقاً ذلك لأن أبا الفرج قد لقي جحظه وجلس منه مجلس الطالب من الشيخ ولم يفارق جحظه الحياة حتى بلغ أبو الفرج من العمر أربعين سنة قامت بينهما صداقة قوية متينة صورها هذه القصة . قال أبو الفرج بلغ أبا الحسن جحظه أن مدرك بن محمد الشيباني الشاعر ذكره بسوء في مجلس كنت حاضره وكتب

أبا فرج أهجى لديك ويعتدى على فلا تحمى لذلك وتغضب
لعمرك ما أنصفتني في مودتي فسكن معتباً إن الآكارم تعتب
قال أبو الفرج فسكتبت إليه :
عجبت لما بلغت عني باطلا وظنك ب فيه لعمرك أعجب
ثكلت إذا نفسي وعزى أسرتي بفقدى ولا أدركت ما كنت أطلب
فكيف بمن لا حظ لي في لقائه وسيان عندى وصله والتجنب
فشق بأخ أصفاك محض مودة تشاكل منها ما بدا والتغيب^(١)

كما كان أبو الفرج - على ما يبدو - يذهب إليه سائلاً أو مستفسراً كلها أشكلت عليه مسائل العلم أو قضاياه فهو يقول (سألت أحمد بن جعفر جحظه عن نسبه قلت له ان الناس يقولون ابن أمية ابن أبي أمية فقال هو محمد ابن أمية ابن أبي أمية قال وكان محمد^(٢) .) . وهو يقول : حدثني جحظه وجعفر بن قدامه وخبر جعفر أنهم إلا أنى قرأته على جحظه فعرفه وذكر لي أنه سمعه^(٣) .

ومعنى كل ما تقدم أن جحظه كان يؤثر بشخصيته الحية المتحركة إلى جانب تأثيره بكتبه الأمر الذي يشترك فيه مع كل من ابن المعتز واستحقاق . غير أن هذه الحظوظ التي يفوز منها جحظه بالنصيب الأكبر لم تكن لتجعل منه الشخص الذي يفوق صاحبيه من حيث القدرة على الإيحاء فلقد

(١) ١٢١ ، ١٣/١٢٢ معجم الأدباء . ط . رفاعي

(٢) ١١/٣٠ الأغاني . ساسي . (٣) ١٩/١٣٦ الأغاني . ساسي

كان جحظه أقل حظا من صاحبيه في هذه الناحية ومن هنا لم نر أبا الفرج يحتفل بحكمه الفني كما كان يحتفل بحكم اسحاق مثلا .

جاء في الأغاني ، كانت عبيدة من المحسنات المتدمات في الصنعة والآداب يشهد لها بذلك اسحاق وحسبها بشهادته . . . ذكرها جحظه في كتاب الطنبوريين والطنبوريات وقرأت عليه خبرها فيه فقال كانت من المحسنات وكانت لا تخلو من عشق ولم يعرف في الدنيا امرأة أعطر منها ، وكانت لها صنعة عجيبة (١) . . .

ولعلنا نرى الأمر على العكس من هذا تماما فقد كان أبو الفرج يضيق أحيانا من جحظه ويظهر سنخه عليه وعلى مسلكه في رواية الأخبار . جاء في الأغاني : « النصيب هو صاحب الأنصاب وأول من غنى بها وعنه أخذ النصب في الغناء هو أحمد بن أسامة . . وذكره جحظه في كتاب الطنبوريين فأنى من ذكره بشيء ليس من جنس أخباره ولا زمانه وثله فيما ذكره وكان مذهبه عفا الله عنا وعنه في هذا الكتاب أن يثاب جميع من ذكره من أهل صناعته بأقبح ما قدر عليه وكان يجب عليه ضد هذا لأن من انتسب إلى صناعة ثم ذكر متقدمي أهلها كان الأجمل به أن يذكر محاسن أخبارهم وطريف قصصهم ومليح ما عرفه منهم لا أن يثلبهم بما لا يعلم وما يعلم فكان فيما قرأت عليه من هذا الكتاب أخبار أحمد النصيب وبه صدر كتابه ، (٢) وجحظه مع كل هذا قد ترك آثاره في نفس أبي الفرج وهي آثار لا نستطيع أن تثبتها بالنصوص القاطعة وإن كنا نستطيع أن ندلل عليها من شهادات الحال .

وأول الأمور التي نستطيع أن نقول أنها من آثار جحظه صناعة الموسيقى وفن الغناء فقد كان جحظه من الخذاق فيه كما سبق أن ذكرنا ويذكر لنا أبو الفرج أنه كان يعلم الجوارى الموسيقى والغناء (٣) . وليس

(١) ١٣٤ ، ١٣٥ / ١٩ المصدر السابق . (٢) ١٥٣ / ٥ المصدر السابق .

(٣) ٣٠ / ٥ المصدر السابق ، ٢٦٠ / ٢ مجمع الأدباء . ط . رفاعي

من اليسير ونحن نعلم ميل أبي الفرج إلى الموسيقى والغناء ذلك الميل الذي أنتج أكثر من كتاب . أن نعتقد أن أبا الفرج لم يتأثر في ذلك جحظه مع أنه فيما نعلم الشيخ الوحيد من شيوخ أبي الفرج الذي يشهد له القدماء من أمثال ابن النديم والخطيب بالإجادة في الموسيقى والإنشاد في الغناء .

وثاني هذه الأمور ذلك الفن الشعري الذي يذهب فيه جحظه مذهب ابن المعتز . ولعل جحظه كان في هذا السبيل التي سلكها أبو الفرج ليجري في فنه الشعري على هذا المذهب لاسيما ونحن نعلم أن جحظه كان من المعجبين بابن المعتز وأن عبيد الله هو الذي سماه بهذا الاسم^(١) .

أما أقوى الظواهر التي يشترك فيها الطالب والشيخ فتلك التي تتعلق بحياة اللهو فقد كان جحظه القدوة في ذلك لأبي الفرج وهي قدوة لا يزيد أن نقول أكانت حسنة أم سيئة ؟ وكيفينا أن نذكر بعض النصوص التي تشعرونا بهذا الجو الذي كان يعيش فيه الشيخ ويتربى فيه الطالب وأن نترك الباقي منها إلى الفصل التالي وهو الخاص بالخططاء أو الأصدقاء فلقد كان جحظه أحدهم .

١ - حدث أبو الفرج الأصبهاني قال : دعاني محمد بن الشار يوماً ودعا جحظه وأطال حبس الطعام جداً ، وجاع جحظه فأخذ دواة وبيضاً وكتب :

مالي وللشار وأولاده لا قدس الوالد والوالده

قد حفظوا القرآن واستعملوا ما فيه إلا سورة المائدة

ورمى بها إلى فقراتها ودفعها إلى ابن الشار فقرأها ووثب مسرعاً فقدم المائدة فقاطعه جحظه فكان يجهد جهده أن يجيئه فلا يفعل وإذا عاتبناه قال والله حتى يحفظ تلك السورة^(٢)

(١) ٢/٢٤٢ مجمع الأدباء . ط . رفاعي (٢) ٢٦٤ ، ٢٦٥ المصدر السابق .

٢ - وكتب إلى بعض الإخوان :

لنا يا أخى زلة وافرة وقدر معجزة حاضرة
وراح تريك إذا صفقت سنا البرق في الليلة الماطرة
ومسمة لم يخنها الصواب وزامرة أيماء زامرة
وما شئت من خير نادر ونادرة بعدها نادرة
فأت ولو كنت يا ابن السكر موحاشاك من ذاك في الآخرة^(١)

٣ - وهى صوت كان يغنيه والصنعة له فيه كما يذكر غرس النعمة
إن بالحيرة قساً قد مجن فتن الرهبان فيهم — واقتن
ترك الانجيسل حيناً للصبأ ورأى الدنيا مجوناً فركن^(٢)

أما الشخصية الرابعة فشخصية محمد بن العباس اليزيدى وقد كان أبو الفرج حسن الرأى فى محمد وحمل عنه فيما يقول هو علماً جماً وهذا هو نص قوله فيه (وآخر من كان بقى من علماء أهل هذا البيت أبو عبد الله محمد بن العباس بن محمد بن أبى محمد وكان فاضلاً عالماً ثقة فيما يرويه منقطع القرين فى الصدق وشدة التوقى فيما ينقله وقد حملنا نحن عنه وكثير من طلبة العلم ورواته علماً كثيراً فسمعنا منه سماعاً جماً . . . (٣))

ويبقى من أساتذة أبى الفرج كثيرون لم نقبين لهم آثاراً تذكر من حيث قوة الشخصية والقدرة على الإيجاء وإن كنا نعرف لهم آثارهم من حيث أخذ أبى الفرج عنهم وروايته لهم وهم من هذه الناحية ليسوا أكثر من شيوخ رواة وهؤلاء لهم مقامهم من هذا البحث فى الباب الثانى إن شاء الله .

(١) ٢٥٣ معجم الأدباء . ط . رفاعى

(٢) ٢٥٧ / المصدر السابق .

(٣) ١٨ / ٧٣ . أغانى سامى .

على أن هناك قوماً كان أبو الفرج يتحدث عنهم باحترام وذلك من أمثال محمد بن الحسين السكندی ، فقد كان يقول عنه مرة أخبرني محمد بن الحسين السكندی مؤدبي^(١) وكان يقول أخرى فسمعت بعض مشايخنا من السكوفيين يذكر وهو محمد بن الحسين السكندی^(٢) . وكان يقول ثالثة أخبرني محمد بن الحسين السكندی المؤدب^(٣) . وكلها أقوال لا نفيد أكثر من أنه واحد من مشايخه الذين يكن لهم الاحترام والتقدير . أما النتائج التي تترتب على هذا من تفاعل عقلي أو تجاوز نفسي له آثاره من حيث الاشتراك في بعض الظواهر العلمية أو الفنية القائمة على الاستهواء فالتقليد والمحاكاة فأمر لم نستطع الوقوف عليه في واحدة من التراجم القصيرة التي يترجم لها المؤرخون^(٤) .

ولعل الشخص الذي يجدر بنا ذكره في هذا المقام هو أحمد بن عبيد الله ابن عمار فقد كان الرجل من شيوخ أبي الفرج وله كتاب يتفق في اسمه وموضوعه مع كتاب من كتب أبي الفرج وذلك هو مقاتل الطالبين^(٥) . إذ ليس من المستبعد أن يكون أبو الفرج قد صنف كتابه هذا تقليداً لاستاذه وجرياً على هديه وسنته .

هذا هو الجو المدرسي بالمعنى الذي نفهمه من أستاذية وتلمذة أما ذلك الجو المدرسي الذي يقوم على اللقاء المادي وعلى التلقين وعلى حشد الذهن بالمعلومات فله مكانه الخاص من الباب الثاني حيث نبدأ مع أبي الفرج وهو وليد وحيث نسير معه في البيئتين الثقافيتين اللتين لعبتا الدور الأكبر

(١) ١٣/٩ المصدر السابق (٢) ٦٤٥ مقاتل الطالبين . مصر

(٣) ١٢/١٥٩ . أغاني سامي

(٤) ٢/٢٣٤ تاريخ بغداد ، ٢/٢٧١ شذرات الذهب .

(٥) ٤/٢٥٢ تاريخ بغداد .

في تكوينه وهما البيئة الكوفية والبيئة البغدادية .

وهناك أيضا نستطيع أن نعرف إلى أى حد كان التفاعل بين أبي الفرج وبين ما كان يحيط به من ثقافات مختلفة الأنواع وعديدة الألوان .

إنا هنا إنما نبحت فقط أمر هؤلاء الذين اتخذ منهم أبو الفرج مثله الأعلى وجعلهم القدوة الصالحة التي ينسج على منوالها في الألوان الفنية والأدبية التي دفعت به إليها الظروف والضرورات وأعتقد أني قد وضحت ذلك وبيّنت منه ما يمكن الوقوف عليه أو الوصول إليه .

الفضيلة الرابع

الخطا

وهذا الجو جو الخطا الذين كان أبو الفرج يعيش بينهم حيث يألفهم وبالفونه يعيننا على فهم أمرين نفسيين يتعلقان بأسس اختيار الأخبار والأقاصيص والنوادر والأشعار وتفضيل بعضها دون بعض أو ترجيح رواية منها على أخرى .

وأول الأمرين أن هذا الجو يلقي ضوءا يعيننا على الوقوف على نفسية أبي الفرج ويعرفنا بخلق الشخصى ومزاجه الفنى وكل تلك مؤثرات لها خطرها فى عوامل الاختيار والتفضيل والترجيح .

وثانى الأمرين أن من هؤلاء الخطا من كان يكتب له أبو الفرج أدبه من شعر ونثر وكتبه من أقاصيص ونوادر وأخبار وفى كل ذلك كان أبو الفرج يراعى الخلق الشخصى والمزاج الفنى لهؤلاء الذين يكتب لهم ولعله كان فى بعض الأحيان يخالف ذوقه هو ومزاجه هو ليرضى أذواق هؤلاء وأمزجتهم وليدخل السرور على أنفسهم وعلى قلوبهم ومن هنا يصبح هذا الجو نافعا للدارس من حيث أنه يفسر لنا بعض أسس الاختيار وبعض عوامل الترجيح .

هذا القول الذى نقوله لا نصدر فيه عن فروض نظرية يفرضها الدارس وإنما عن تتبع للعادات الفكرية التى كان يجرى عليها أبو الفرج فى انشائه للفرق الأدبى وفى تأليفه للكتب تاريخية أو أدبية وهى عادات مستنأوها بالشرح المفصل فى الباب الثانى إن شاء الله ونستطيع أن نكتفى هنا بإجمال هذه العادات حتى نصل إليها هناك .

لقد كان من عادات أبي الفرج الفكرية أن يقف فى مقدمات الكتب

ليفسر لنا البواعث التي دفعته إلى التأليف وليبين لنا الأغراض العلمية أو الأدبية التي يريد تحقيقها بل لقد كان أحيانا يمتد إلى أبعد من هذا فيصور لنا السبل التي سلكها في التأليف والعقبات التي صادفها فتخطاها أو دار حولها ليسلم له الطريق . وهذا واضح كل الوضوح من مقدمة كتابيه الأغاني ومقاتل الطالبين .

وكان من عادات أبي الفرج أيضا أن يقف في الفترات المتفاوتة لينبه القارئ إلى أنه لم يخرج على ما رسم لنفسه من سبل ولبحته من خطط فهو يختار مواد السكتب على أساس أنها المواد التي تفي بالأغراض أو تحقق المقاصد فهو حين يذكر خبرا أو قصة لا يذكرها إلا على هذا الأساس وليس يعنيه فيما نرى أن يكون هذا الخبر صحيحا أو غير صحيح وأن تكون هذه القصة من واقع التاريخ والحياة أو من نسج الخيال . أن القيم الذاتية لا تعنيه وإنما الذي يعنيه هو تحقيق المقاصد والوفاء بالأغراض .

نعم نحن لا نستطيع أن ننكر أن الظروف كانت تضطر الرجل أحيانا إلى الخروج عن هذه السبل ولكننا نشهد الله على أن الرجل كان يتمهل في مثل هذه المواقف ليفسر الضرورات وليعتذر عن التقصير .

وإذا كانت مقدمة كتاب الأغاني تفصح عن بعض مقاصد أبي الفرج حين تنص على أنه قد راعى في اختياره لغير الأصوات المختارة من قبل . هذه المسائل (..... ثم بسائر الغناء الذي عرف له قصة تستفاد وحديثا يستحسن إذ ليس لكل الأغاني خبر ولا في كل ما له خبر فائدة ولا لكل ما فيه بعض الفائدة رونق يروق الناظر ويلهى السامع ^(١)) كان من الحتم علينا أن نقف عند هؤلاء الذين تصورهم أبو الفرج من الناظرين والسامعين لنعرف ما يروقهم وما يلهيهم وأعتقد أن ليس منا من يرى أن أصدقاء أبي الفرج ليسوا بالصورة المصغرة لهؤلاء إن لم يكونوا هم لا سيما ونحن نعلم أن أبا الفرج قد صرح في مقدمة كتاب الأغاني أن الذي بعثه على تأليف هذا

الكتاب رئيس من الرؤساء . فقد جاء في هذه المقدمة (والذي بعثني على تأليفه أن رئيسا من رؤسائنا كلفني جمعه له وعرفني أنه بلغه أن الكتاب المنسوب إلى اسحق مدفوع أن يكون من تأليفه ... (١)) .

وخطباء أبي الفرج الذين نستطيع أن نجعلهم الصورة المصغرة لهذا المجتمع الذي يريد أبو الفرج أن يروقه وأن يلبيه هم أولئك الذين كانوا يجتمعون عند الوزير المهلب فيقص عليهم أبو الفرج الأخبار والنوادر ويحكى لهم الأقاصيص وأشهر هؤلاء وأكثرهم صلة بأبي الفرج التنوخي والأيدجي فله معهم دعابات يصورها فنه ولهم فيه شهادات تصورات كثيرة حفظه وما كان يجتمع إليه أحيانا من قصص الغرائب والمخالات انتقاما لنفسه أو لفنه من الدخلاء (٢) .

وأعتقد أنه من المستحسن أن نبدأ بقطب الرحي أو بالرجل الذي كان أبو الفرج نديما له وهو الحسن بن محمد المهلب وزير معز الدولة البويهى فقد كان أبو الفرج فيما يحكى الثعالبي « منقطعا إلى المهلب الوزير كثير المدح له مختصا به (٣) » .

أن التاريخ السيامي لهذه الشخصية لن يفيدنا تسجيله أو تصويره في هذا الموقف فلسنا بصدد الحديث عن أخلاق المهلب السياسية وكيف كان يسوس ومدى ما بلغه من انتصار على الأعداء والمنافسين في وقت الحروب والغزوات وفي غيرهما الأمر الذي صوره آدم متز فأحسن وصفه وتصوره (٤) . وإنما نحن بصدد تلك الأحاديث والأقاصيص التي تروق الناظر والتي يطرب لها السامع والتي على أساس ذبوعها وانتشارها وإدخالها السرور على النفوس اختارها أبو الفرج وجعلها المواد التي أقام عليها كتبه

(١) ص ٣ المصدر السابق . (٢) ١٣/١٢٤ مجمع الأدباء . ط . رفاعى

(٣) ١/١٧٨ يتيمة الدهر . ط . دمشق .

(٤) ١/١٧١-١٦٨ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى . ترجمة أبو ريده .

ط . لجنة التأليف .

الأدبية كالأغاني وغيره والتاريخان الاجتماعى والأدبى هما اللذان يفيداننا فى هذا الموقف لأنهما اللذان أثرا فى عوامل الاختيار .

كان المهلبى فقيرا معذما قبل أن يتصل بالسلطان وكان من الرجال الذين يألون من الفقر ومما يسببه الفقر من حرمان ويقول الثعالبى رواية عن أشياخه : وكانت حالة المهلبى الوزير قبل الاتصال بالسلطان حال ضعف وقلة وكان يقاسى منها قذى عينه وشجى صدره (١) .

وكان المهلبى من الأدباء الذين يقولون الشعر ويكتبون النثر وكانت صورته الأدبية هى التعويض الوحيد الذى يمد به الفن ليخفف عنه أثقال هذه الحياة ولعل الأبيات التالية تصور لنا نفسية المهلبى المعذم والمهلبى الأديب .

ألا موت يساع فأشتريه فهذا العيش ما لا خير فيه
ألا موت لذىذ الطعم يأتى يخلصنى من العيش الكريه
إذا أبصرت قبراً من بعيد وددت لو أننى مما يليه
ألا رحم المهيب من نفس حر تصدق بالوفاة على أخيه (٢)
بل لعل القصة التالية التى يحكيها المهلبى نفسه أن تسكون أدق فى الدلالة على هذه النفسية : وحدث أبو محمد المهلبى قال : كنت أيام حداثى وقصر حالى وصغر تصرفى أسكن داراً لطيفة ونفسى مع ذلك تنازع الأمور العظيمة إلا أن الجد قاعد والمقدور غير مساعد فأصبحت يوماً وقد جاء المطر وازدادت الحجرة إظلاماً وصدرى بها ضيقاً فقلت :

أنا فى حجرة تجل عن الوصف ويعمى البصير فيها نهارا
هى فى الصبح كالظلام وفى الليل ليل يولى الأنام عنها فرارا
أنا منها كأتنى جوف برأتقى عقرباً وأحذر فارا
وإذا ما الرياح هبت رخاء خلعت حيطانها تميد انهارا

(١) ٢/٨ بنية الدهر . ط . دمشق .

(٢) ٨ ، ٢/٩ بنية الدهر . ط . دمشق .

رب عجل خرابها وأرحني من حذارى فقد ملكت الحذارا^(١)
هذه الحال لم تدم فقد أسعد المهلبى الحظ وواتته الأقدار فاتصل
بالسلطان حتى وصل إلى رتبة الوزارة وأصبح من الأغنياء الموسرين الذين
لا يصدم عن طلب اللذائذ العجز عن حصول المسال وأعتقد أن المهلبى لم
يكذب إلى هذه الحال حتى اندفع في طلب اللذائذ ، واندفع إلى غير حد .
ولعله قد طلب من الأيسار والغنى أن يكفرا عن الحال السابقة حالة العسر
والأملاق . وهذه الصور التى نضعها بين يديك تريك إلى أى حد بلغ الترف
بهذا الرجل الذى لم يكن يجد ما يتبلغ به فيما مضى حتى طلب لنفسه الموت
ولداره الخراب .

جاء فى معجم الأدباء نقلا عن كتاب أخبار الوزير المهلبى صورة لهذا
الوزير وهو على مائدة الطعام هى : وكان من ظرفه فى فعله ونظافته فى
ما كله أنه كان إذا أراد أكل شئ يملقه كاللوز واللبن وأمثاله وقف من
جانبه الأيمن غلام معه نحو ثلاثين ملقة زجاجا مجرودا وكان يستعمله
كثيرا فيأخذ منه ملقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة واحدة ثم يدفعها إلى
غلام آخر قام من الجانب الأيسر ثم يأخذ أخرى فيفعل بها فعل الأولى
حتى ينال الكفاية ثملا يعيد المعلقة إلى فيه دفعة ثانية^(٢) ، . وهى صورة
إن دلت على شئ فإنما على حالة الاندفاع التى يصل إليها الكثيرون ممن
أيسروا من بعد عسر .

وجاء فيه أيضا : وحدث القاضى أبو على التنوخى قال شاهدت أبا محمد
المهلبى قد ابتيع له فى ثلاثة أيام ورد بألف دينار فرش به مجالس وطرحه
فى بركة عظيمة كانت فى داره ولها فوارات عجيبة يطرح الورد فى مائها
وينفضه ويعد شر به عليه وبلوغه ما أرادته منه أنهبه^(٣) .

وهى كالسابقة فى الدلالة على نفسية ذلك الرجل الذى يريد أن يصل

(١) ١٣٥ ، ٩/١٣٦ معجم الأدباء . ط . رفاعى .

(٢) ١٠٢ ، ١٣/١٠٣ معجم الأدباء . ط . رفاعى .

(٣) ٩/١٣٨ المصدر السابق .

من اللذائذ إلى آخرها بعد أن وصل من الحرمان إلى أبعد غاياته حتى تمنى لنفسه الموت ولداره الخراب .

ولعل أبيات المهلبى التالية — مع ما فى الأول منها من اضطراب لم نهتد ولم نهتد الناشر إلى صحته — تصور لنا ذلك المثل الذى يطلبه الرجل لنفسه .
قال رحمه الله :

إذا تكامل لى ما قد ظفرت به من طيب مسمعه وصوت رنان
وقهوة لو تراها خلت رقتها دينى ومن حاجز إن شئت أغنانى
فما أبالى بما لاقى الخليفة من بغى الخصى وعصيان ابن حمدان^(١)

وهو مثل مما لا يحمد للرجال وبخاصة الوزراء منهم إذ كيف لا يبالى وزير بالحرب وبالثورة على الخلافة فى الوقت الذى ينصرف فيه إلى الخلاعة والمجون : ولسكنها شخصية المهلبى التى يتحدث أبو الفرج عنها وعما كانت تصل إليه فى الخطاب من فحش فى القول وأدب عار مكشوف فيفصح عن هذه الشخصية ويبين^(٢) .

إن الثراء الضخم الذى يجيء بعد العدم والفقر والإملاق هو السبب فى كل تلك الصور الزاهية التى نراها فى حياة المهلبى وليس هو التعقيد فى الحضارة كما يقال . وأن الأدب العارى المكشوف هو الذى يرضى هذه البيئة الصغيرة المسرفة فى اللذائذ لأنه الذى يصور واقعها اليوم بعد أن كان يصور خيالها فيما مضى من الأيام . والأخبار التى يسردها المهلبى نفسه والأشعار التى يستعين بها أصحابها على قضاء حوائجهم تحمل هى الأخرى طابع تلك الشخصية المستهترة أو الشخصية الماجنة العابثة شخصية المهلبى ولقد كان من دأب الرجل أن يكتر من الحديث على الطعام وأن يكتر من المزح فى الخلوات .

حدث أبو على التنوحي قال : كان أبو محمد المهلبى يكتر الحديث على

(١) ١٤٢ / ٩ المصدر السابق .

(٢) ١٠٨ ، ١٠٩ / ١٣ المصدر السابق

طعامه وكان طيب الحديث وأكثره مذاكرة بالأدب وضروب الحديث على المائدة لكثرة من يجمعهم عليها من العلماء والكتات والنماء. (١)

وحدث إبراهيم بن هلال قال : كان أبو محمد المهلبى يناصف العشرة
أوقات خلوته ويبسطنا فى المزح إلى أبعد غاية. (٢)

وهما حديثان يصوران دأب الرجل وعادته أما ألوان القصص التي
يحكيها أو تحكى له فستطيع أن نضع بين يديك منها هذه الصور .

قال أبو علي سمعت أبا محمد المهلب يتحدث وهو وزير في مجلس أنس
أن رجلاً كان ينادم بعض الكتاب الطراف وأحسبه قال ابن المدبر قال :
كنت عنده ذات يوم فرجع غلام له أنفذه في شيء لا أدري ما هو فقال له
رب الدار ما صنعت فقال ذهبت ولم يكن فقام يحيى فجاء فلم يجني فجئت .
قال فتبينت في رب الدار تغيراً وهما ولم يقل للغلام شيئاً فعجبت من ذلك
ثم أخذ بيدي وقال قد ضيق صدري ما جاء به هذا الغلام فقم حتى ندور في
البستان الذي في دارنا ونتفرج فلعله يخفف ما بي فقلت والله لقد توهمت أن
صدرك قد ضاق بانقلاب كلام الغلام عليك وقد فهمته وهو ظريف . فقال
إن هذا الغلام من أحصف وأطرف غلام يكون وذلك أني ممتحن بعشق
غلام أمرد وهو ابن نجار في جيراننا والغلام يساعدني عليه وأبوه يغار
عليه ويمتنعه مني فوجهت هذا الغلام وقلت إن لم يكن أبوه هناك فقل له
يصير إلينا فرجع فلما رأيته عندي قدر أني لم أطلعك على الأمر فرد هذا
الجواب الظريف الذي سمعته فقلت أعده أنت لأفهمه فقال إنه يقول
ذهبت إلى الغلام ولم يكن أبوه هناك فقام الغلام يحيى فجاء أبوه فلم يجني .
الغلام فجئت أنا فقلت له هذا الغلام يجب أن يكون أخاً وصديقاً
لا غلاماً . (٢)

(١) ٩/١٤٣ مجمع الأدباء ط١ رفاعي .

(٢) ١٣٣ المصدر السابق

(٣) ١/١٢٩ معجم الأدباء . ط . رفاعي

وقال هلال ابن المحسن وحدثني أبو إسحاق جدى قال حضر صاحب
أبو القاسم بن عباد دار الوزير المهلبى عند وروده إلى بغداد مع مؤيد
الدولة فحجب عنه لشغل كان فيه وجلس طويلا فلما تأخر الإذن كتب إلى
رقعة لضيقة فيها :

وأترك محجوباً على الباب كالخصى ويدخل غيرى كالآبور ويخرج
فأقر أنها الوزير المهلبى فأمر بإدخاله . (١)

وحكى أبو إسحاق الصائى فى الكتاب الناجى فقال كان لمعز الدولة
أبى الحسين غلام تركى يدعى تسكين الجامدار أمرد وضىء الوجه منهمك
فى الشراب لا يعرف الصحو ولا يفارق اللعب واللهو ولفرط ميل معز
الدولة إليه وشدة إعجابه به جعله رئيس سرية جردها لحرب بعض
بنى حمدان وكان المهلبى يستظرفه ويستحسن صورته ويرى أنه من عدد
المهوى لامن عدد الوغى فن قوله فيه :

ظي يرق الماء فى وجناته ويرق عوده
ويكاد من شبه العذا رى فيه أن تبدو نهوده
ناطوا بمعقد خصره سيفاً ومنطقة تؤوده
جعلوه قائد عسكر ضاع الرعيل ومن يقوده (٢)

ولعل من الإنصاف لأنفسنا وللمهلبى أن نقول أن ذلك العبث كان
يأخذ مكانه بين جدران أربعة حيث يسكن الرجل وحيث يتخذ من الليل
ستاراً . أما المهلبى فى حياته الظاهرة التى تجرى فى وضوح النهار فقد كان
الوزير القدير والرجل الخطير الذى يأخذه الجد وتبدو عليه سمات الوقار
فتغمره من قمة الرأس إلى أخمص القدم . يصفه ابراهيم بن هلال فيقول :
... فاذا جلس للعمل كان امرأ وقوراً ومهيباً مخدوراً أخذاً فى الجد

(١) ٢٠٦ / ٦ المصدر السابق

(٢) ٩ ، ١٠ / ١ يتيمة الدهر ط . دمشق :

الذى لا يتخوفه نقص ولا يتداخله ضعف . . . (١)

ولسنا بحاجة إلى تعليل أو تفسير لهذه الظاهرة التي تأخذ مكانها في كل مجتمع والتي سنراها عند شخصيتين أخريين هما التنوخى والأيدجى وهما كما قلنا من أصدقاء أبى الفرج كما أنهما من ندماء الوزير المهلبى وذلك لأن النفاق الاجتماعى هو الضريبة التي تتحملها أنفس البارزين الظاهرين حينما يريدون التوفيق بين ما يرضى المجتمع وما يرضى الأهواء والغرائز وحاجات الحس والشعور . إنهم يحيون حياتين إحداهما لأنفسهم والثانية للناس . والأولى تجرى على أساس الانطلاق من القيود والانفلات من العادات والتقاليد والثانية تجرى على قواعد العرف وما يفرضه الدين .

هذه صورة المهلبى وقفنا منها عند الملامح التي نحتاجها في دراسة أبى الفرج فلنتركها إلى ما نحتاجه من صور الخلطاء الآخرين .

والتنوخى واحد من أولئك الآخرين وهو أبو القاسم على بن محمد بن داود بن فهم ويقول عنه الثعالبي أنه من أعيان أهل العلم وأن المهلبى الوزير وغيره من وزراء العراق كانوا يميلون إليه جداً ويتعصبون له ويعدون له ربحانة الندماء ونارنج الظرفاء ولعل الحكاية التالية أو الصورة التي تصور بها الثعالبي هذا الرجل تغنيننا عن غيرها في الدلالة على خلق الرجل ومزاجه وأنه ليس إلا صورة أخرى من صور المهلبى في هذه النواحي جاء في القيمة ، ويحكى أنه كان في جملة القضاة الذين ينادمون الوزير المهلبى ويجمعون عنده في الأسبوع ليلتين على إطراح الحشمة والتبسط في القصف والخلاعة وهم ابن قريعة وابن معروف والقاضى الأيدجى وغيرهم وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها وكذلك كان الوزير المهلبى فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ولذ السماع وأخذ الطرب منهم مأخذه وهبوا ثوب الوقار للعقار وتقلبوا في أعطاف العيش بين الحنفة والطيش ووضع في يد

(١) ٩/١٣٣ معجم الأدباء رفاعى .

كل واحد منهم طاس ذهب من ألف مثقال إلى مادونها مملوء شراباً قطربلياً
أو عكبرياً فيغمس لحيته فيه بل ينقعها حتى تتشرب أكثره ويرش بها بعضهم
على بعض ويرقصون أجمعهم وعليهم المصبغات وغنائق البرم والمنشور
ويقولون كلها يكثّر شربهم هرهر وإياهم عنى السرى بقوله :

مجالس ترقص القضاة بها إذا انتشوا في مخائق البرم
وصاحب يخلط المجنون لنا بشيمة حلوة من الشيم
تخضب بالراح شبيه عبثاً أنامل مثل حمرة العنم
حتى تخال العيون شبيته شبيبة قد مزجتها بدم
فإذا أصبحوا عادوا لعادتهم في التزم والتوقر والتحفظ بأبهة القضاة
وحشمة المشايخ الكبراء (١)

إنه النفاق الاجتماعي وأنه اللهو والعبث لإرضاء للنفس البشرية وماركبت
عليه من عواطف أولية وغرائز حيوانية وأنه التزم والتوقر لإرضاء
للمجتمع وحفظاً للتقاليد .

والأيذجى صديق ثالث وهو أيضاً من القضاة وهو مثل السابقين في
الخلق والمزاج ومن هنا كان يألفهم وكانوا يألفونه ويعجبه من الأفاصيص
والنوادير ما يعجبهم وليس يعجبهم إلا ما هو داعر فاجر . جاء في معجم
الأدباء : حدث أبو على التنوخى حدثني أبو على الحسين بن سهل بن عبد الله
الأيذجى وكان يخلف أبا على على القضاء بأيذج ورامهرمز ثم لم يزل على
الحكم ونام أبا محمد المهلبى في وزارته فغلب عليه وعلا محله عنده وتخالع
وتهتك فيما لا يجوز للقضاة . . . (٢)

والقاضى الأيذجى هو الذى يهجوهُ أبو الفرج ويرميه بأقبح القبايح
حين يقول فيه :

(١) ١٠٥ - ٢/١٠٧ بئيمة الدهر : ط . دمشق

(٢) ٢١٠ ، ١٦/٢١١ معجم الأدباء «ط» رفاعى .

اسمع حديثي تسمع قصة عجباً لاشيء أظرف منها تبهر القصصا
طلبت عسكازة للوحد تحملني ورمتها عند من يخبا العصا فعصا
وكنت أحسبه يهوى عصا عصب ولم أكن خلته صبا بكل عصا^(١)
تلك هي الصورة التي كان يطالها أبو الفرج كل يوم تقريبا . وتلك هي
الشخصيات التي كان يجلس إليها أبو الفرج مسامراً وندبماً والتي كان يعجبها
من القصص ما يثير الانفعال ويرضى الغرائز والعواطف ولو بواسطة
الخيال .

وأعتقد أنا لم نفس بعد تلك الصداقة التي قامت بين أبي الفرج وبين
أستاذه لحظة والتي كان لها فضل السبق في توجيه مزاج أبي الفرج نحو الفن
اللاهي العابت إن كان السبق في مثل هذا الموقف أو في مثل هذا التوجيه
يعد فضلاً ولعل صورة لحظة السابقة تكفي في الدلالة على المراد من
حيث التوجيه الذي قام به الشيخ واستجاب له الطالب وأعانت عليه
ظروف الحياة .

هذه صورة المجتمع القريب الذي كان يعيش فيه أبو الفرج وهي
صورة سنرى مثيلاتها في أبي الفرج في الباب الثاني إن شاء الله . سنرى أن
روحه من روحهم ومزاجه من مزاجهم وخلقه الشخصي من أخلاقهم
وعاداتهم فلننتظر حتى نلتقي هناك إن شاء الله .

الفصل الخامس

رجال السياسة

ورجال السياسة الذين يعقد بعض المؤرخين بينهم وبين أبي الفرج ألوانا من الصلات هم فيما عدا المهلب سيف الدولة الحمداني والصاحب بن عباد ثم ابن العميد وركن الدولة ثم الراضى وابن البريدى . هذا فى بيئة المشرق أما فى الأندلس فيعقدون هذه الصلة بينه وبين المستنصر .

(١) ونستطيع أن نبدأ من كل هؤلاء بسيف الدولة الحمداني ذلك لأن الصلات التى يعقدها بعض المؤرخين فيما بينه وبين أبي الفرج إنما تقوم على إهداء أبي الفرج له كتاب الأغاني . ولسنا بحاجة إلى أن ندل على قيمة هذا الكتاب وأثره فى الحياة الأدبية لا سيما ونحن نعلم أن بحثنا هذا إنما هو عن أبي الفرج الراوية .

ومسألة إهداء الأغاني لسيف الدولة مسألة يجب أن نقف عندها طويلا ذلك لأنها كانت مثار تعليقات من القدماء من أمثال المهلب وابن عباد ولأنها تسكاد تكون المحور الذى تدور حوله أحاديثنا عن الرجل الذى ألف له كتاب الأغاني وعن السياسيين ثم لأنها أخيراً لا تثبت أمام البحث التاريخى الدقيق .

وتتلخص مسألة الكتاب فى أن أبا الفرج قد حمل كتابه إلى سيف الدولة ابن حمدان وأن سيف الدولة أعطاه ألف دينار واعتذر إليه^(١) وأن الصاحب بن عباد حينما بلغه هذا الصنيع علق عليه بما يؤذن بلوم سيف الدولة لأنه قصر فى حق أبي الفرج لأن الكتاب يستأهل أضعافها^(٢) . وينقل

(١) ٤٦٣ وفيات الأعيان ط . باريس سنة ١٨٣٨

(٢) ٤٧٦ عيون التواريخ لابن شاكر . مخطوطة رقم ١٤٩٧ تاريخ . دار الكتب

ياقوت عن أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف كاتب عضد الدولة أنه قال :
وقال أبو محمد المهلبى سألت أبا الفرج في كم جمعت هذا الكتاب؟ فقال في خمسين
سنة . قال وأنه كتبه مرة واحدة في عمره وهى النسخة التى أهداها إلى
سيف الدولة^(١) .

ولن نستطيع نحن المضى وراء هذه الأقوال دون تثبيت ذلك لأننا نعلم
أن أبا الفرج قد كتب فى مقدمة الأغاني أن الذى بعثه على تأليفه رئيس
من الرؤساء^(٢) ونحن نعلم أن سيف الدولة الحمدانى لم يكن رئيسا لأبى الفرج
فى يوم ما حتى يكلفه جمع كتاب فى الأغاني .

على أن طباع سيف الدولة لم تكن فيما نعتقد لتألف هذا النوع من
القصص والأخبار فقد كان الرجل رب قلم ورب سيف وقد شغل الرجل
نفسه بالحروب مدة من الزمن والذى يعجبه فيما نرى شعر الفخر والحماسة
وقصص الأبطال والبطولة وأخبار المعارك والحروب . وهذه الجوانب
جميعها هى التى نراها ماثلة فى شعر الشعراء الذين كانوا يعيشون فى ظله
ويحيون فى بلاطه من أمثال المتنبي . أما ما فى الأغاني من قصص يدور حول
المغنين والغناء ومن حكايات تدور حول الشعر والشعراء من كل ما هو
داعر فاجر فأولى به أن يرضى مزاج رجل من أمثال الوزير المهلبى أو
الصاحب بن عباد وخاصة الأول وقد رأينا فيما مضى خلقه ومزاجه ثم هو
الذى ينطبق عليه وصف أبى الفرج له بالرياسة .

نعم نحن نعلم أن ما يذكره الأغاني فى المقدمة لا يتعارض وهذا رأى
فن الجائز أن يكون أبو الفرج قد أهدى كتابه لغير الشخص الذى بعثه على
تأليفه وكلفه جمعه وعند ذلك يكون من الجائز وقوع مثل هذه المسألة
وأن يكون أبو الفرج قد أهدى حقا وأن يكون سيف الدولة قد أجاز
وقد اعتذر .

(١) ١٣/٩٨ معجم الأدباء . ط رفاعى .

(٢) ١/٣ أغاني . مسابى

نعم يجوز كل هذا ولكننا نعلم أن هناك أموراً أخرى تضعف هذا الجأز وترجح منه جانب عدم الوقوع .

هناك مثلاً ذلك القول الذى يقوله محمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد ابن زاكور عند شرحه لقلائد العقيان فإننا نراه يقول : والصاحب لقب اسماعيل بن عباد الوزير البليغ الذى ألف له أبو الفرج الأصبهاني كتاب الأغاني^(١) ، وهو قول قد يكون أكثر انسجاماً من القول السابق مع ما كتبه أبو الفرج فى المقدمة من أن الذى بعثه على التأليف رئيس من الرؤساء ثم لأن مزاج الصاحب وخلقه يتلاءمان مع ما فى الأغاني من قصص وأخبار .

ثم أن هذا القول من ابن زاكور يجعلنا نفكر فى هذه الأقوال التى رواها ياقوت من أن الصاحب قد قال حين بلغه أن سيف الدولة قد أعطى أبا الفرج ألف دينار فقط ، لقد قصر سيف الدولة وأنه يستأهل أضعافها^(٢) ، ومن أن عبد العزيز بن يوسف كاتب عضد الدولة قد قال عن أبي الفرج والكتاب : وأنه كتبه مرة واحدة فى عمره وهى النسخة التى أهداها إلى سيف الدولة^(٣) ، ذلك لأن مضمون هذه الفقرة الأخيرة أن أبا الفرج كتب الأغاني مرة واحدة وهى النسخة التى أهداها إلى سيف الدولة وأن سيف الدولة أجازته وأن ابن عباد أحس بتقصير سيف الدولة وعبر عن ذلك بجملته تلك . ومضمون قول ابن زاكور أن الكتاب إنما كتب للصاحب بن عباد . وبينهما من الاختلاف ما لست فى حاجة إلى أن ندلك عليه .

(١) تزيين قلائد العقبان بفراند البيان . مخطوط ٣١٣ تاريخ تيموريه .

(٢) ١٣/٩٧ معجم الأدباء . ط . رفاعة (٣) ٩٨ المصدر السابق

ثم هناك هذه العداوة بين الحمدانيين في حلب والبويهيين في بغداد وهي العداوة التي أشار إليها مسكويه في حديثه عن حوادث سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وماتلاها كما أشار إليها المهلب نفسه في شعر له ذكرناه في الفصل السابق عند حديثنا عن الخلطاء . وليس يخفى أن التنافس العلمي بين حلب وبغداد في ذلك الوقت كان عظيماً وأن إهداء أبي الفرج كتابه إلى عدو المهلب وعدو معز الدولة يعتبر بعيداً عن المؤلف لا سيما ونحن نعلم أن أبا الفرج كان مختصاً بالمهلب يعيش في كنفه ويستظل بحمايته وأن هذا الإهداء قد يعرضه لشر مستطير .

ولعل هذه المسألة تزدد وضوحاً وبياناً لو تأملنا فيما صنعه المتنبي حين قدومه بغداد من إعراضه عن مدح المهلب ومن وقوف الخاتمي منه ومن تصوير الخاتمي لمسألة التنافس بين البلاطين بقوله : « وتخيّل أبو محمد المهلب أن أحداً لا يقدر على مساجلتة (المتنبي) ومجاراته ولا يقوم لتبعية بشيء من مطاعنه وسام معز الدولة أن يرد عن حضرة عدوه رجل فلا يكون في مملكته أحد يماثله في صناعته ويساويه في منزلته نهدت حينئذ متبعباً عواره . . . إلى أن يقول : وتشاغلته بقية يومى بشغل عنّ لي تأخرت معه عن حضرة المهلب وانتهى إليه الخبر وأتقنى رسله ليلاً فأتيته فأخبرته بالقصة على الحال فكان من سروره وابتهاجه بما جرى ما بعثه على مباكرة معز الدولة قائلاً له أعلمت ما كان من فلان والمتنبي قال نعم قد شفا منه صدورنا (١) . إذ كل هذه أمور تدفع بالقارىء إلى أن يترث وأن يقف موقف الحذر فلا يتدفع إلى الايمان بأن أبا الفرج قد أهدى الأغاني إلى سيف الدولة حقاً لا سيما ومن المؤرخين من يذكر أن أبا الفرج كان بحضرة المهلب حين قدم المتنبي إلى بغداد وأنه قد كان بينه وبينه لون من الجدل والنقاش . (٢)

المسألة كما ترى غير واضحة ومن هنا كان لابد لنا من الرجوع إلى

(١) ١٦٠ - ١٨/١٧٩ معجم الأدباء . ط . رفاعي

(٢) ١/٣٨٥ خزائن الأدب . ط . الأولى ببلاق

قاعدتنا تلك القائلة بأن تاريخ المسألة جزء مهم من حلها فلعل هذا التاريخ أن يوضح المبهم ويظهر الخفى ويزيح الشك عن أنفسنا .

ليس لهذه المسألة وجود فى كتاب الفهرست لابن النديم وابن النديم معاصر لأبى الفرج وتوفى بعده بزمن قصير ولا نريد فى هذا الموطن أن نستنتج من ذلك أن إهداء أبى الفرج كتابه لسيف الدولة لم يكن لأننا نعلم أن من عادة ابن النديم أن يستغنى فى كثير عن الشائعات أو المشهور المتداول ثم أن الرجل لم يكن يهتم كثيراً بمسألة المنح والجوائز فلقد كان الذى يعنيه مسألة السكتب وموضوعاتها لأنه من الوراقين .

وليس لهذه المسألة وجود فى قيمة الدهر للثعالبي لا فى حديثه عن أبى الفرج ولا فى حديثه عن سيف الدولة ولن نستطيع أن نقول هنا ما قلناه فى ابن النديم فنحن نعرف أن صاحب القيمة كان معجباً بسيف الدولة معنياً بأمره وأنه قد عقد فصلاً خاصاً لهذه المنح التى تعطى للشعراء عنوانه « فصل فى انفجار ينابيع جوده على الشعراء » ، وأنه قد ذكر فى هذا الفصل أن سيف الدولة كان قد أمر بضرب دنانير للصلات فى كل دينار منها عشرة مثاقيل وعليه اسمه وصورته ^(١) ومن هنا يكون من الحتم أن نحاول تعليل هذا السكوت من الثعالبي لاسيما ونحن نعلم أن الثعالبي قد ذكر من الشعراء من هو أقل من أبى الفرج قدرة فى الميدان الأدبى بل نعلم أنه ذكر فى هذا الفصل أسماء الواقفين من الأعراب .

لقد ولد الثعالبي فى حياة كل من سيف الدولة وأبى الفرج وعاصر بعض من يعرف عن الرجلين أخبارهما واهتم بالتاريخ لهما وذكر عن كل منهما ما هو من جنس هذه المسألة فإن تسكن قد حدثت وسكت فلا بد من التعليل وإلا كان الوضع لهذه النصوص القائلة بأن أبى الفرج قد أهدى كتابه لسيف الدولة هو الأمر القائم .

كذلك يسكت كل من الخطيب البغدادي^(١) والذهبي^(٢) وسكوتهما
يضعف من قيمة شكنا وارتيا بنا في تلك الأقوال الداعية إلى إقامة الصلة
بين كل من سيف الدولة وأبي الفرج .

على أنا لو رجعنا إلى تلك السكتب التي جمعت من أخبار سيف الدولة
الأدبية والتاريخية الأمور الكثيرة فانا لن نجد لهذه المسألة ظلالاً في النصوص
المنقولة عن كتب الأقدمين مع عناية أصحاب هذه السكتب بما هو من جنس
هذه المسألة^(٣)

المسألة كما قلت في حاجة إلى وقفة طويلة ومن هنا يحسن بنا أن نترك
هذه السكتب الصامتة إلى السكتب الناطقة فلعلها أن تكون هي الهادية
المرشدة .

إن أقدم كتاب وقفنا على هذه المسألة فيه هو معجم الأدباء لياقوت
وذكر ياقوت لها لا يدل عليها في صراحة ذلك لأن الرجل لم يعبر عن رأيه
وإنما ذكر لنا نصوصاً وجدها في مقدمة كتاب وهي نصوص لا بد من
ذكرها في هذا الموطن لتدبر الأمر سوياً ولنعرف كيف نشأت هذه
المسألة مسألة إهداء أبي الفرج كتاب الأغاني لسيف الدولة وكيف مضت في
السكتب حتى عصرنا الحاضر .

جاء في معجم الأدباء (وقال الوزير أبو القاسم الحسين بن علي بن
الحسين ، المغربي في مقدمة ما انتخبه من كتاب الأغاني إلى سيف الدولة بن
حمدان فأعطاه ألف دينار وبلغ ذلك صاحب أبا القاسم بن عباد فقال لقد
قصر سيف الدولة وأنه يستأهل أضعافها ووصف الكتاب فأطنب ثم قال

(١) ٣٩٨ - ١١/٤٠٠ تاريخ بغداد

(٢) لوحات ١٧٥ ب ، ١٧٦ تاريخ الاسلام الكبير للذهبي مصورة رقم ٤١ تاريخ

دار السكتب .

(٣) راجع (١) نخب تاريخية وأدبية جامعة لأخبار سيف الدولة الحمداني للاربيوس كنار

الأستاذ بكلية الآداب بالجزائر . ط . الجزائر سنة ١٩٣٤

(ب) أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء . ط . العلمية بحلب سنة ١٩٢٣

ولقد اشتملت خزائني على مائتين وستة آلاف مجلد ما منها ما هو سميري وغيره ولا راقني منها سواه .

قال وقال أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف كاتب عضد الدولة لم يكن كتاب الأغاني يفارق عضد الدولة في سفره ولا حضره وأنه كان جليسه الذي يأنس إليه وخدينه الذي يرتاح نحوه .

قال وقال أبو محمد المهلبى سألت أبا الفرج في كم جمعت هذا الكتاب فقال في خمسين سنة .

قال وأنه كتبه مرة واحدة في عمره وهي النسخة التي أهداها إلى سيف الدولة .

قال المؤلف لعمرى أن هذا الكتاب . . . (١)

إن المعنى الخرفي لهذا النص هو فيما نرى أن الحسين بن علي بن الحسين المغربي قد انتخب من كتاب الأغاني وأنه انتخب ذلك لسيف الدولة وأن سيف الدولة أعطاه ألف دينار وأنه كتب ذلك وكتب تعليقات مشاهير الأدباء في ذلك العصر من أمثال المهلبى والصاحب بن عباد وعبد العزيز بن يوسف في المقدمة .

نعم إن النص مضطرب وغير مستقيم ولا يدل على هذا الأمر بوضوح وجلال . ثم نعم أن الوزير المغربي لم يدرك سيف الدولة فقد توفي سيف الدولة سنة ست وخمسين وثلاثمائة (٢) . وولد الوزير المغربي سنة سبعين وثلاثمائة (٣) ولكن هذا النص على ما فيه من عدم الصحة وعدم الدقة كان الباعث لياقوت على أن يذهب إلى ما ذهب إليه من أن أبا الفرج قد أهدى كتابه الأغاني لسيف الدولة ومما ساعده على هذا الفهم هذه التعليقات التي ذكرت آنفا عن كل من المهلبى والصاحب وعبد العزيز بن يوسف فإن

(١) ٩٧ / ٩٨١ / ١٣ معجم الأدباء . ط . رفاعي .

(٢) ٦ / ٢٣٩ تجارب الأمم ط التمدن سنة ١٩١٥

(٣) ١٠ / ٨٠ معجم الأدباء . ط . رفاعي

ذكرها باعد بين ياقوت وبين الفهم الدقيق والتحرى الصادق لهذا النص .
على أن من جاء بعد ياقوت قد أخرج من النص شيئين الأول أن
أبا الفرج قد أهدى كتابه لسيف الدولة وأن سيف الدولة أعطاه جائزة
قدرها ألف دينار . والثاني أن الوزير المغربي قد اختصر كتاب الأغاني
ومن الواضح أن من ذهب إلى هذا قد فطن إلى أن الوزير المغربي لم يدرك
سيف الدولة وأن النص لا يستقيم على هذا التفسير .^(١)

إن في المسألة سرّاً لا بد من إدراكه والكشف عنه ولعل هذا السر أن
يكون في تلك المقدمة التي نقل عنها ياقوت هذا النص . فأين هو هذا
الكتاب ؟ ولمن يكون ؟ أ يكون للحسين بن علي بن الحسين الوزير المغربي
أم يكون لغيره ؟ وإذا كان لغيره فمن هو هذا الغير ؟
هذا هو السؤال الذي لا بد من الإجابة عنه لفهم هذه المسألة ونبين
الرأى الصحيح .

إن الذين ترجموا الوزير المغربي من القدماء وبخاصة أولئك الذين
يعدونه شيخاً لهم من أمثال أبي العباس أحمد بن علي بن أحمد بن العباس
النجاشي لم يذكروا لنا انتخاب الوزير لكتاب الأغاني وإنما ذكروا لنا من
المختارات الأدبية اختيار شعر أبي تمام واختيار شعر البحري واختيار شعر
المتنبي والطعن عليه وذلك كله إلى جانب كتب له أخرى يذكرها النجاشي
تلميذ الوزير المغربي^(٢) . وحتى ياقوت نفسه لم يذكر هذا الكتاب للوزير
المغربي^(٣) . وليس وراء ذلك كله إلا الشك والاتهام في هذه الأقوال
السابقة التي نقلها ياقوت عن مقدمة كتاب يرى أنه للحسين بن علي بن الحسين
الوزير المغربي وأنه كان منتخباً لسيف الدولة الحمداني .

لنقرأ سوياً هذا النص عن ابن الخازن البغدادي المتوفى سنة اثنتين
 وخمسمائة فلعله أن ينير أمامنا السبيل .

(١) راجع مقدمة الأغاني . ط . دار الكتب وهي المقدمة التي كتبها الناشرون .

(٢) رجال النجاشي . ط . الهند سنة ١٣١٧ هـ .

(٣) ٧٩ - ١٠/٩٠ . معجم الأدباء . ط . رفاعي .

والحسين بن علي بن الحسين أبو الفوارس الكاتب صاحب الخط المشهور المعروف بالجودة والحسن وكان فريد عصره في الكتابة . قال ابن خلكان وغيره كتب فيما كتب خمسمائة نسخة من كتاب الله عز وجل ما بين جامع وربعة . وقال غير ابن خلكان وكتب من الأغاني الكبير ثلاث نسخ وجعل أحداها لسيف الدولة ونهبت من خزائنه فجمع ببغداد منها مئة عشر مجلداً . (١)

أعتقد أن هذا النص هو الخط الذي يجب أن نمسك به لنهتدي إلى الطريق ذلك لأن اسم المغربي واسم ابن الخازن يتفقان أو يتشابهان إلى حد كبير فهذا الحسين بن علي بن الحسين وذلك أيضاً الحسين بن علي بن الحسين . وكل منهما كان حسن الخط ولقد قال ياقوت عن الوزير المغربي في ترجمته له . وكان حسن الخط سريع البديهة (٢) وقد كتب اسم ابن الخازن فيما نتوقع وكما هي العادة على نسخة الأغاني التي انتهت من خزائن سيف الدولة كما كتب اسم سيف الدولة وهنا يصح لنا أن نذهب إلى أن هذه النسخة هي التي وقعت في يد ياقوت ويرجح ذلك أن صاحب معجم الأدباء يشعرنا من حديثه عن كتاب الأغاني بأن النسخة التي وقعت له كانت مضطربة وأنه يثقها شيئاً (٣) . وأنه لتشابه الأسماء المغربي وابن الخازن وسيف الدولة وسيف الدولة وأنه لجودة خط كل من ابن الخازن والمغربي وأنه لصلة والد الوزير المغربي وأهله بسيف الدولة الحمداني (٤) الحمداني . ذهب ياقوت إلى ماذهب إليه وجاء من بعده فحروا خلفه حتى تجيء دائرة المعارف الإسلامية فتعبر عن أبي الفرج بهذه العبارة ونال رعاية سيف الدولة الحمداني ويحيى من بعدها من المحدثين فينقلون العبارة في كتبهم أو مقالاتهم من أمثال

(١) لوحة ٣٢ ج ١ ابن الفرات - تاريخ الدول والملوك - مصور رقم ٣١٩٧ . تاريخ

دار الكتب . (٢) ١٠/٨٠ معجم الأدباء . ط . رفاعي

(٣) ١٣/٩٩، ٩٨ معجم الأدباء . ط . رفاعي .

(٤) ج ٣ ص ١٥٥ وما بعدها خطط المقرئ .

الاستاذ أحمد أمين في كتابه ظهر الإسلام والاستاذ سيد صقر في مقدمة كتاب مقاتل الطالبين والاستاذ محمد بك كرد علي في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ولجنة دار السكتب في مقدمة كتاب الأغاني .

أعتقد أن الأمر ما شرحت وأن اللبس أو التفسير الذي قام به ياقوت هو أساس المسألة كما جاءت في كتب الأدباء والمؤرخين .

ويبقى بعد ذلك أن نعرف من هو سيف الدولة هذا الذي كتب له ابن الخازن نسخة من كتاب الأغاني فلعل هذه المعرفة أن تزيدك اقتناعاً أو تزيد المسألة في ذهنك وضوحاً وبياناً .

سيف الدولة هذا هو أبو الحسن صدقه الذي يقول عنه ابن خلكان « كان يقال له ملك العرب وكان ذا بأس وسطوة وهيبة »^(١) ، وهو أبو الحسن صدقه الملقب بنصر الدين بن بهاء الدولة أبي كامل منصور بن ديبس بن علي بن مزيد الأسدي صاحب الحلة السيفية . وله نظم الشريف أبو يعلى محمد بن الهبارية كتاب الصادح والباغم^(٢) . ويقول عنه ابن الأثير (وكان له من السكتب المنسوبة الخط شيء كثير ألوف مجلدات وكان يحسن يقرأ ولا يكتب وكان حواداً حليماً صدوقاً كثير البر والإحسان ما برح ملجأ لكل ملهوف يلقي من يقصده بالبر والتفضل يبسط قاصديه ويزورهم وكان عادلاً والرعايا معه في أمن ودعة وكان عفيفاً لم يتزوج على امرأته ولا تسرى عليها فما ظنك بغير هذا . ولم يصادر أحداً من نوابه ولا أخذهم بإساءة قديمة وكان أصحابه يودعون أموالهم في خزائنه ويدلون عليه إدلال الولد على الوالد ولم يسمع برعية أحبت أميرها حب رعيته له وكان متواضعاً محتلاً يحفظ الأشعار ويبادر إلى النادرة رحمه الله لقد كان من محاسن الدنيا^(٣)) .

(١) ، (٢) ١/٣٢٥، ٣٢٤ ابن خلكان . ط . الأميرية .

(٣) ١٠/١٥٨ السكامل لابن الأثير - حوادث سنة احدى وخمسمائة .

وتوفى سيف الدولة هذا سنة إحدى وخمسين.

الصلة التي يعقدها بعض المؤرخين بين سيف الدولة الحمداني وأبي الفرج على أساس إهداء الكتاب وإجازة أبي الفرج عليه غير ثابتة ولا تقوم من هذه المقدمة التي ذكر ياقوت ما فيها من أقوال . كما لم تر قيامها من نصوص أخرى أو من فن أبي الفرج نفسه وهذا هو المعقول لو وضعنا نصب أعيننا ما ذكرناه سابقا من أمور تلك العداوة وذلك التنافس بين الحمدانيين والبويهيين ولسنا في حاجة إلى أن ندل على مركز أبي الفرج من تلك العداوة التي كانت تستتبع حروبا وذلك التنافس الذي دعا إلى السكيد للمتنبى ببغداد فلقد يكفي أن نذكر القاريء بأن أبا الفرج كان مختصا بالمهلبى الوزير البويهى ومنقطعا له وأنه كان من الذين يكيدون للمتنبى بحضرة هذا الوزير .

أما تلك النصوص أو هذه التعليقات التي جمعها الجامع في المقدمة فلم تكن إلا لتعلي من قدر الكتاب حتى يكثر الطلب فيكثر النسخ وأعتقد أنها نصوص موضوعه وليست بمجموعة وأن الذى وضعها هو ابن الخازن نفسه ذلك لأن هذه النصوص لم تكن فيما يبدو على فرض جمعها إلا بعد وفاة أبي الفرج ولقد توفى أبو الفرج بعد سيف الدولة الحمداني وبعد الوزير المهلبى .

إن ابن الخازن هو صاحب المصلحة في هذا وهو الذى وضع هذه النصوص فيما أعتقد ومن هنا نراه يوزعها على السنة كبار الكتاب في ذلك العصر : المهلبى والصاحب وعبد العزيز بن يوسف وينص على أن أبا الفرج لم يترك إلا نسخة واحدة هي تلك التي أهداها لسيف الدولة وكأنه يريد أن يقول أنه يملك هذه النسخة فليسرع إلى الحصول على صورة منها من يريد . هذا هو رأى الذى أميل إليه في هذه المسألة وهو رأى لا أستطيع القطع به وإنما أقول بترجيحه لما قدمت من قرائن .

(٢) والصاحب بن عباد هو الشخصية التي تجيء بعد شخصية سيف الدولة وليس ذلك إلا لأنه يشترك وإياه في مسألة كتاب الأغاني فكل منهما هو

الشخص الذى ألف من أجله أبو الفرج هذا الكتاب عند بعض الإخباريين أو بعض الرواة .

والنصوص التى يرد فيها اسم صاحب مرتبطاً بأبي الفرج هى النصوص التى أشرنا إليها قبلاً من تعليق صاحب عند سماعه بخبر جائزة سيف الدولة لأبي الفرج حين أهدها الكتاب ومن وصفه للكتاب وإطنا به فى هذا الوصف وقوله : ولقد اشتملت خزائنى على مائتين وستة آلاف مجلد ما منها ما هو سميى غيره ولا راقى منها سواه ^(١) ومن قول ابن زاكور فى شرح قلائد العقيان من أن صاحب بن عباد هو الذى عمل له أبو الفرج كتاب الأغانى .

وحديث صاحب عن الجائزة وعن كتاب الأغانى مستبعد من هذا الميدان وليس ذلك اعتماداً منا على ما سبق أن رجحناه من أن مسألة إهداء كتاب الأغانى لسيف الدولة الحمدانى غير ثابتة وأنها نتجت من التباس بين الأسماء وخطأ فى تفسيرها وإنما لسبب آخر هو أن هذا الحديث لا يثبت صلة ما بين أبي الفرج وبين الوزير الأديب صاحب بن عباد فلقد يكون هذا القول مع صحة ثبوته ممن لم يتصل بأبي الفرج فهو لا يعدو أن يكون تعليقا من رجل يهتم بالعلم والأدب على حادثة سمع بها وليس من اللازم أن يكون صاحب هذه التعليقة ممن يعرفون المهدي والمجيز .

أما قول ابن زاكور فهو الذى يجب أن نقف عنده ذلك لأنه يثير أمامنا مسائل جديدة بالبحث فيما يخص هذا الكتاب .

وأول هذه المسائل أنا لو نظرنا إلى خلق صاحب ومزاجه وإلى مكانته العلمية والاجتماعية فى هذا الوقت لما استبعدنا أن يكون أبو الفرج قد ألف له هذا الكتاب فلقد كان صاحب من الذين يحبون العلم والأدب ومن الذين يعطفون على الشعراء والعلماء . ولقد كانت مجالسة منتدى

الكثيرين منهم وكان يعطيهم عن سعة حتى ليقال أنه أنفق أمواله على الشعراء والأدباء والزوار والقصاص وأنه مدح بمائة ألف قصيدة ما بين عربية وفارسية^(١). ولقد كان أبو الفرج يقول الشعر ويؤلف الكتب سعيًا وراء المال.

ولو نظرنا إلى الصلات القائمة بين صاحب وبين الوزارة والإمارة في بغداد لما وجدنا هذه الخصومات التي كانت تشوب الموقف فيما بين بغداد وحلب. ولعل الأمر أن يكون على العكس فانها الدعابات الحلوة التي تكون بين الأصدقاء والخلان ولعلنا لم ننس بعد أمر تلك الرقعة التي دفع بها صاحب إلى أبي إسحاق الصائلي ليوصلها إلى المهلبى والتي كان فيها :
وأترك محجوباً على الباب كالخصي ويدخل غيرى كالأيور ويخرج^(٢)
فانها رقعة تدل على حسن الصلات وتدل من جانب آخر على عدم الحرج في أن يعمل أبو الفرج كتاب الأغاني للصاحب الأمر الذي لا نشعر به في مسألة إهداء الكتاب لسيف الدولة الحمداني.

لا تستبعد المسألة من حيث هذه النواحي وإنما نقيم استبعادنا لها على أمور أخرى هي :

أولاً : أنها لم تظهر إلا متأخرة وذلك وإن لم يكن سبباً كافياً للاستبعاد إلا أنه سبب قوى لبدء الاتهام.

ثانياً : إن تصوير التواريخ للمسألة يدفع إلى استبعادها ذلك لأننا نعلم أن أبا الفرج قد نص في مقدمة كتاب الأغاني على أن الذي بعثه على تأليف هذا الكتاب رئيس من الرؤساء ولن نستطيع أن نتصور أن ابن عباد كان رئيساً قبل أن يبلغ الثلاثين من العمر فلقد كان في بدء أمره كما يقول ياقوت من صغار الكتاب وكان يخدم أبا الفضل ابن العميد ثم ترقى به الحال فكتب لمؤبد الدولة بن ركن الدولة^(٣) وهو أمير وظل هكذا حتى مات

(٢) ٣٠٦ المصدر السابق

(١) ٦/٢٦٣ معجم الإدياء . ط . دفاعي

(٣) ١٧٢ ، ١٧٣ المصدر السابق

ركن الدولة وولى مؤيد الدولة بلاده بالرى وأصفهان وتلك النواحي فأبقى على ابن العميد حتى قتل وعند ذلك استوزر صاحب وذلك فى سنة ستين وثلاثمائة (١) ويقال أنه قد اشتغل فى بدء أمره معلما فى قرية (٢). وإذا كان هذا هو المسطور من أمر صاحب فإن مضمونه أن يكون صاحب قد طلب ذلك وهو رئيس أى فى سنة ستين وثلاثمائة وأن يكون أبو الفرج قد بدأ يجمع كتاب الأغاني فى هذه السنة وليس يخفى أن أبا الفرج قد توفى بحسب الرواية الشائعة التى صححها الخطيب البغدادى سنة ست وخمسين وثلاثمائة. وإذا ما وضعنا إلى جانب التصوير السابق ما يشير إليه ياقوت من أن هذا الكتاب قد أخرج والمهلبى على قيد الحياة تبين لنا إلى أى حد تصبح هذه الروايات متضاربة وبعيدة عن الواقع لأن المهلبى قد توفى فى سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة (٣).

ثالثا - أن أمر إخفاء اسم هذا الرئيس فى المقدمة يجعله غير صاحب فلقد توفى أبو الفرج والصاحب فى عز مجده وسلطانه وكان يسعد أبا الفرج فيما نعتقد أن يهدى الكتاب للصاحب وأن يذكره فى مقدمة الكتاب باسمه لا بصفته تلك التى يفسرها بالرياسة.

إننا نرى أن أبا الفرج لم يخف اسم هذا الرئيس إلا اتقاء لغضب أو خوفا من مكروه وأن هذا الرئيس كان من المغضوب عليهم يوم أن أخرج أبو الفرج هذا الكتاب للناس. ذلك هو ما نميل إليه فى أمر هذا الرئيس وهو ما سنناله بالشرح بعد لحظات.

أعتقد أنا نستطيع أن نقول أنه ليس لدينا من النصوص ما نقيم به صلة بين أبي الفرج وبين صاحب وإن كنا لا نستطيع أن نستبعد قيام هذه الصلة من حيث مكانه صاحب الاجتماعية والأدبية وأنه كان موثلا العلماء ومقصد الشعراء أو الأدباء.

(١) ٦/٢٧٤ تجارب الأمم . ط . التمدن سنة ١٩١٥ .

(٢) ١/١٧١ الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لأدم متر . ط . لجنة التأليف .

(٣) ٦/١٩٧ تجارب الأمم . ط . التمدن سنة ١٩١٥ .

كما أنه ليس لدينا مما بقي من فن أبي الفرج نفسه ما يثبت هذه الصلة الأدبية وهو الأمر الذي يدعونا إلى التوقف ويدفعنا إلى الحذر والحيطه من تصديق كل ما يقال .

(٣) والشخصية الثالثة أو الشخصيتان الثالثة والرابعة هما شخصية ابن العميد ومخدومه ركن الدولة بن بويه . وياقوت هو الذي يذكر هذه المسألة حين يقول : قرأت بخط هلال بن المظفر الكاتب الزنجاني . حدثني الأستاذ أبو المظفر عبد الغفار بن غنيمه قال كان أبو الفرج الكاتب الأصماني صاحب كتاب الأغاني كاتباً لركن الدولة حظياً عنده محشياً لديه وكان يتوقع من الرئيس أبي الفضل بن العميد أن يكرمه ويبيجله ويتوقر عليه في دخوله وخروجه وعدم ذلك منه فقال .

مالك موفور فما باله أكسبك التيه على المعدم
ولم إذا جئت نهضنا وإن جئنا تطاولت ولم تُتميم
وإن خرجنا لم تقل مثل ما نقول قدم طرفه قدم
وإن كنت ذا علم فمن ذا الذي مثل الذي تعلم لم يعلم
ولست في الغارب من دولة ونحن من دونك في المنسم
وقد ولينا وعزلنا كما أنت فلم نصغر ولم نعظم
تكافأت أحوالنا كلها فصل على الأنصاف أو فاصرم^(١)

وقد روى أبو حيان في كتاب الوزيرين من تصنيفه من خبر هذه الآيات غير هذا والشخصية التي يشير إليها أبو حيان هي شخصية رجل آخر له مثل الاسم والسكنية . وهي شخصية علي بن الحسين بن هندو . وكنيته أبو الفرج ولعل هذا التشابه في الأسماء هو الذي أوقع الكاتب الزنجاني في الخطأ^(٢) .
على أن مسألة الارتباب في صلة هذه الآيات بصاحب الأغاني لا تقف

(١) ١١٠ ، ١١١ / ١٣ معجم الأدباء . ط . رفاعي .

(٢) راجع ٢٧٩ / ٦ مسكويه ١٣٦ / ١٣ معجم الأدباء

عند ذلك الحد بل تعدوه إلى ما أورده ابن خلكان من أن هذه الحادثة وهذا الشعر إنما كان من أبي الفرج أحمد بن محمد الكاتب (١).

ولعلنا لو فكرنا في المسألة من حيث دلالة الآيات نفسها. وما فيها من عزل وتولية ومن حيث المدة التي كان فيها أبو الفضل بن العميد وزيراً وأنها هي عينها تلك التي كان فيها المهلب وزيراً ببغداد وأن أبا الفرج كان في ذلك الوقت منقطعاً إليه ومختصاً به لوقفنا من هذه الآيات ومن هذه الحادثة موقف من لا يرى فيها خيراً من حيث دلالتها على صلة صاحب الأغاني برجال السياسة والسلطان.

نتوقف هنا كما توقفنا فيما مضى ونقول هنا ما قلناه آنفاً من أنه لم يثبت لدينا ما يقيم الصلات بين كل من سيف الدولة الحمداني وأبي الفضل بن العميد والصاحب بن عباد وبين أبي الفرج صاحب الأغاني. ونحترس هنا أيضاً فنقول إننا لا نستبعد قيام هذه الصلات وإنما نستبعد فقط أن تكون هذه النصوص التي تروى صحيحة وأن تكون هي الدالة على هذه الصلات.

(٤) ويبقى بعد ذلك من الشخصيات السياسية بالمشرك شخصيات يثبت فن أبي الفرج نفسه قيام الصلة بينه وبينها وهذه الشخصيات هي شخصيات أبي عبد الله البريدي وأبي محمد الوزير المهلب.

أما البريدي فقد كان من رجال السياسة الذين ألقوا بال الخلفاء وثاروا عليهم أكثر من مرة وجمعوا الجموع وتغلبوا على جند الخلافة في بعض المواقع وكان الخلفاء يخشون بأسه ويريدون مصالحةً إتياء لشره ودفعاً لخطره وكانت هذه المصالحة تقليد البريدي الوزارة وكان ذلك فيما يحكي مسكويه سنة سبع وعشرين وثلاثمائة (٢). وهنا قال أبو الفرج قصيدة يهجو فيها البريدي الوزير. ويشير إلى أن مصالحةً بتقليده الوزارة ليست من الأمور التي تحمد للخليفة وأنها إن ترد عن الخلافة كيد هذا الوزير.

(١) ٨٥ / ٢ وفیات الأعيان . ط . الأميرية

(٢) ٤٠٩ / ٦ تجارب الأمم التمدن .

ويذكر ياقوت أن أبيات هذه القصيدة قد بلغت المائة (١).
وقبل أن نضع بين يدي القارئ ما تبقى من أبيات هذه القصيدة نحب
أن نشير في ذهنه مسألة قد تعيننا على الوقوف على اللون الفني الذي يسود
هذه القصيدة وهل هي من الشعر السياسي أو من شعر الهجاء؟ وهذه المسألة
هي: لماذا اهتم أبو الفرج بهذه الحادثة دون غيرها من الأحداث؟ لقد
وقعت في أيام أبي الفرج أحداث أحالت الدولة إلى دويلات ووقع فيها من
العسف والظلم والاضطهاد ما ينطق الصم البكم فضلا عن الأدباء فلماذا لاذ
بالصمت ولماذا لم يصور غير هذه الحادثة من الأحداث؟

لا نستطيع الذهاب إلى أنه قد فعل وأن هذا الشعر قد ضاع فليست
حادثة البريدي أعز على الرواة والإخباريين من غيرها من الأحداث حتى
يحفظوا ما قيل فيها من شعر ويتركوا ما قيل في غيرها من الأحداث. إن
اللون الفني في هذه القصيدة هو فيما نعتقد الذي سيشرح لنا موقف
أبي الفرج ومقصده وهل قصد إلى السياسة أو إلى الهجاء؟

هذه هي الأبيات التي وردت في كل من الفخرى ومعجم الأدباء .
يا سماء اسقطي ويا أرض ميدي قد تولى الوزارة ابن البريدي
جل خطب وحل أمر عضال وبلاء أشاب رأس الوليد
هد ركن الإسلام وانتهك الملك ومحيت آثاره فهو مودى
ويقول:

وتوهمت أن سيخذه ذا ك فيقتاله اصطياد الصيود
هو أزنى مما تقدر أما ليس بمن يصاد بالتقليد (٢)
كما جاء فيها:

يالقوى لحر صدرى وعولى وغلبلى وقلبي المعمود
حين سار الخميس يوم خميس بالبريدي في ثياب سود

(١) ١٢٧ / ١٣ معجم الأدباء . رفاعى

(٢) ١٢٧ ، ١٢٨ معجم الأدباء : ط . رفاعى

قد حباه بها الإمام اصطفاؤه واعتماداً منه لغير عميد
خلع تخلع العلاء ولواء عقده حل عقدة المعقود^(١)
وهي أبيات وإن تكن قليلة إلا أنها تصور لنا رأى أبي الفرج في الموقف
وفي ابن البريدى بصفة خاصة فأبو الفرج يرى أن هذا التقليد شرعى الإسلام
والمسلمين وهو يرى أن الخليفة قد جرى على غير الطريق المستقيم وأنه
لا يعرف خلق البريدى وطبعه وهو يدلنا على أن هذا التقليد قد آلمه هو
بصفة خاصة . لماذا ؟ ذلك هو السر الذى نريد أن نعرفه وهو السر الذى
سيفسر لنا اهتمام أبي الفرج بهذه الحادثة خاصة .

إن أبا الفرج يرى أن طبع البريدى من الطباع السيئة ويعبر عن ذلك
بعبارة مؤلمة قاسية فالبريدى فى طباعه الأم وأحب ما يقدر الخليفة هو
ابن زناء ولن يفيد فيه معروف ولن يكسب منه الخليفة خيراً . ولكن هل
هذا هو الذى دفع أبا الفرج إلى هذه القصيدة ؟ أو أن أبا الفرج كما أشار
هو أراد أن يشفي نفسه مما تجدد ؟

أعتقد أن هناك شيئاً آخر هو الذى ملأ نفس أبي الفرج بعواطف
السخط على البريدى وأنه انتهز هذه الفرصة فرصة التقليد ليشفى نفسه من
هذه العواطف . وأعتقد أن هذا الشيء لم يكن إلا الجوار فلقد كان
أبو الفرج جاراً للبريدى يسكن وهذه العائلة فى درب واحد من دروب
بغداد وكانت داره ملاصقة لدار البريدى^(٢) . فهل كان هذا الجوار هو
السبب فى كل هذا وأنه الذى ملأ قلب أبي الفرج موجد على هذه العائلة
وأنه وجد المتنفس فى هذه الحادثة ؟ أعتقد هذا ويزيدنى إيماناً بهذا الاعتقاد
حرص أبي الفرج على الابتعاد عن خضم السياسة وما تثيره من مشكلات
وهو حرص أشرفنا إلى بعض أسبابه عند حديثنا عن الأسرة وسنزيده
إيضاحاً فى الباب الثانى إن شاء الله .

(١) ٢٥١ ، ٢٥٢ الفخرى فى الآداب السلطانية الطبعة الثانية المعارف .

(٢) ١٠٤ / ١٣ معجم الأدباء . ط . رفاعى .

صلة أبي الفرج بالبريدى صلة عداة وفنه فيه هو فن الهجاء ولعله أن يكون من المستحسن أن نذكر هنا ما قاله البريدى حين انتهت إليه هذه القصيدة وما فعله حين سمع هذا البيت .

هو أذن عما تقدر أما ليس ممن يصاد بالتقليد
فيقال إنه حين سمع هذا البيت ضحك وضرب يديه ورجليه وقال .
لو عرف أبو الفرج ما في نفسي وأزال الوحشة وصار إلى لبالغت في صلته
والأفضال عليه من أجل هذا البيت ^(١) .

وأما المهلبى فقد قدمنا في الفصل السابق عن صلة أبي الفرج به الشيء الكثير وقد يكفي في هذا الموقف أن نشير إلى أننا نعتقد أنه الشخصية التي ألف أبو الفرج لها كتاب الأغاني وأنه الرئيس الذي أشار إليه في مقدمة الكتاب فقد كان أبو الفرج منقطعا للمهلبى مختصا به ^(٢) . وكان المهلبى يختاره في كل شيء مريح وكانت صحبته له قبل الوزارة وبعدها وظل هكذا إلى أن فرق بينهما الموت ^(٣) . وكان أبو الفرج يؤلف له الكتب ومن ذلك مناجيب الخصيان ^(٤) . وأن أبي الفرج لم يذكر اسم المهلبى واكتفى بصفة الرياسة لأن الرجل قد مات مغضوبا عليه من معز الدولة سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة ولعله من أجل هذا الغضب نفسه سكت أبو الفرج عن أن يقول في المهلبى شيئا من الرثاء .

ذلك فهم أفهمه وهو ينتهى بي إلى فرض إلا أنى أطمئن إليه وأشعر أنه أقرب الفروض في هذه المسألة إلى الصواب .

وقبل أن نختم هذا الفصل نشير إلى علاقة أبي الفرج برجال السياسة من خلفاء الأندلس وأنه كان يهدى إليهم كتبه ويحييه الأنعام عليها سرا ^(٥) . ويذكر ابن خلدون كما يذكر صاحب نفح الطيب عن المستنصر ما يلي (وكان

(١) ١٢٨ معجم الأدباء . ط . رفاعى (٢) ٢/٢٧٨ البيهقي . ط . دمشق

(٣) ١٣/١٠٥ معجم الأدباء . ط . رفاعى . (٤) ١٠٠ المصدر السابق

(٥) ١١/٣٩٨ الخطيب ، ١٣/١٠٠ معجم الأدباء .

يبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجالا من التجار ويرسل إليهم الأموال
لشراؤها حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه وبعث في كتاب الأغاني
إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني وكان نسبة في بني أمية وأرسل إليه فيه بألف
دينار من الذهب العين فبعث إليه بنسخة منه قبل أن يخرج به إلى العراق (١).
لقد اتصل أبو الفرج بالمهلب وخلفاء بني أمية بالأندلس ولكنه الاتصال
الأدنى الذي يقوم على تأليف الكتب ونيل الجوائز عليها . أما ما عدا ذلك
من أمور السياسة والسلطان فليس لدينا من النصوص ما يثبت . وقد يكفي
ما قدمنا من أحاديث لبيان موقف أبي الفرج من رجال السياسة الذين يصلهم
به أقوال بعض المؤرخين من القدماء .

(١) ٤/١٤٦ تاريخ ابن خلدون ، ١/١٨٠ نفع الطيب .

الباب الثاني

حياة أبي الفرج

الفصل الأول

أصبهان وسر من رأى

نستطيع الآن بعد أن شرحنا بعض العوامل المؤثرة في حياة أبي الفرج من حيث هو إنسان ، وحققنا بعض المسائل المتعلقة بتاريخه أن نعمد إلى هذه الحياة فنرسم لها صورة وأن نضع هذه الصورة في إطارات من الحدود الزمانية والمكانية . تلك التي تحدثنا عنها في الفصل الأول من الباب الأول نضعها في هذه الإطارات حتى نبين شخصية أبي الفرج ونقف على الجوانب المهمة من حياته وعند ذلك نستطيع الوقوف عند هذه الجوانب لنتعرف عليها واحداً واحداً ونصوره الصورة التي تجعله من الأسس الصالحة لبيان ما كان يجري عليه أبو الفرج في مروياته من خصائص أو تقاليد .

وأول الإطارات فيما نرى إطار أصبهان ثم إطار سر من رأى وحديثنا عن هذين أو عن هاتين المدينتين يتطلب منا الوقوف في حذر واحتياط — إن لم يكن في دقة واتقان — على ما لعبته كل من المدينتين من دور في حياة أبي الفرج وذلك لأن المواد التي سنعتمد عليها في بيان هذا الدور ليست إلا القرائن التي لم تصل بعد إلى مرتبة الأدلة التي تدفع إلى الإقناع واليقين .

(١) والدور الذي لعبته أصبهان في حياة أبي الفرج إنما يرجع في الغالب إلى حياة الأسرة وأرجو ألا نكون قد نسينا ما قلناه في الفصلين الأول

والثاني من الباب الأول من أن كثيرين من أسرة أبي الفرج لأبيه كانوا ينتسبون إلى هذه البلدة وأن منهم جده وعمه وعم أبيه وابن عمه وأن نسبة أبي الفرج إليها إنما كانت عن طريق الوراثة حيث لم يثبت لدينا أنها كانت عن طريق المولد .

ويرجع هذا الدور من حياة الأسرة إلى عهد قديم إلى ما قبل سنة ثلاث وثلاثين ومائتين كما سنرى بعد لحظات قصار أى إلى ما قبل مولد أبي الفرج بأكثر من خمسين سنة الأمر الذى يدفعنا إلى أن نسقط من حسابنا أثرها فى حياة أبي الفرج وأن نقف من هذا الأثر عند حياة أسرته لأبيه .

هذا الدور الذى لعبته أصبهان فى حياة أسرة الأب غير واضح الحدود أو بين المعالم ولن نستطيع أن نقول أكثر من أن هذه البلدة كانت من المواطنين التى استقر فيها بعض الأمويين من نسل الخلفاء عند اضمحلال هذه الدولة وبعد انحلالها وأنها أيضا كانت من المواطنين التى لأهلها تعلق بالأمويين ومحبة لهم .

جاء فى الأغاني عند حديث أبي الفرج عن عبدالله بن معاوية بن عبدالله ابن جعفر بن أبي طالب وخروجه بالكوفة فى آخر أيام الدولة الأموية وانتقاله إلى نواحي الجبل ومقامه بأصبهان قبل انتقاله إلى خراسان ما يلى (وقال ابن أبي خيثمة عن مصعب . وقصده وجوه قريش من بنى أمية وغيرهم فمن قصده من بنى أمية سليمان بن هشام بن عبد الملك وعمر بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان فمن أراد منهم عملا قلده ومن أراد منهم صلة وصله فلم يزل مقيما فى هذه النواحي حتى ولى مروان بن محمد الذى يقال له مروان الحمار فوجه إليه عامر بن صبرة فى عسكر كثيف فسار إليه حتى إذا قرب من أصبهان ندب له ابن معاوية أصحابه وحضهم على الخروج إليه فلم يفعلوا ولا أجابوه فخرج على دهش هو وأخوته قاصدين لخراسان وقد ظهر

أبو مسلم فيها...) (١) وهو نص يثبت فيما نرى أمرين الأول ذهاب بعض الأمويين إلى أصبهان عند اضطراب الأمور وانحلال الخلافة والثاني شيء من الولاء بين الطالبين والأمويين .

وفي صفحة من صفحات أخبار أصبهان لأبي نعيم نجد هذا النص (محمد ابن الوليد الأموي الخياط المدني روى عن ابن أبي عيينة وهشام بن سليمان حكى ابنه عنه أنه قال أنا من ولد سليمان بن عبد الملك بن مروان ولا تخبر به احداً فإني رجل خياط وإياك أن يسمع منك أحد (٢)) . وهو نص يثبت أيضاً أمرين الأول إقامة بعض الأمويين من سلالة الخلفاء في أصبهان في عصر أبي الفرج وفي عصر قريب منه حيث يروى هذا عن ابن أبي عيينة المعاصر لدعبل واصل بن ابراهيم وغيرهم ممن عاشوا في النصف الأول من القرن الثالث الهجري (٣) . والثاني أن هؤلاء الأفراد كانوا من الصنائع ومن يشتغلون بالعلم وأنهم كانوا يكتمون أمورهم مخافة أن يعرف عنهم أنهم من نسل خلفاء بني أمية فينالهم الأذى من أعوان السلطان .

أما المقدسي فيذهب بنا إلى أبعد من هذا حيث يذكر لنا أن في أهل أصبهان بله وغلو في حب معاوية (٤) .

هذا كل ما نستطيع قوله في هذه المسألة وهو قول يأذن لنا في أن نقول أنه من الجائز أن يكون أحد أجداد أبي الفرج قد أقام بهذه البلدة وأنه هاجر منها إلى غيرها من مدن العراق وأن هذه الهجرة هي التي جاءت بالنسبة إلى الأسرة فكان محمد بن أحمد الأصبهاني جد أبي الفرج وعبد العزيز بن أحمد الأصبهاني عم أبيه والحسن بن محمد الأصبهاني عمه وأبو عبد الله أحمد ابن الحسن بن محمد الأصبهاني ابن عمه .

(٢) ٢/١٨٢ أخبار أصبهان لأبي نعيم

(١) ١١/٧٠ أغاني . سامي

(٣) ٨ - ١٨/٢٩ أغاني . سامي

(٤) ٣٩٩ أحسن التقاسيم للمقدسي

أما من هو هذا الجد؟ وما هي تلك المدينة؟ فهي الأمور التي نرجو أن تسبقين ولو بعض الشيء عند حديثنا عن المدينة الثانية مدينة سرمن رأى .
(ب) والدور الذي لعبته سرمن رأى أوضح وأبين من ذلك الذي لعبته أصبهان ويحيثه الوضوح والبيان من أمرين الأول أن النصوص التي تثبت لنا هذا المقام وتوضح لنا أشياء من حياة الأسرة ومنزلتها الاجتماعية كثيرة ودالة . الثاني أن هذه المدينة لم تكن مقام أسرة أبيه فحسب وإنما كانت مقام أسرة أمه أيضا . بل كانت مقام كثيرين من الذين ينتسبون إلى الوزارة والكتابة ولهم أثر في حياة أبي الفرج أو في حياة الأسرتين .

والأشخاص الذين نلتقي بهم من أسرة الأب في سرمن رأى هم الحسن ابن محمد الأصبهاني عم أبي الفرج وعبد العزيز بن أحمد عم أبيه وأحمد بن الهيثم جد أبيه ومحمد بن أحمد الأصبهاني جده .

أما الحسن فنراه مع ابن برد الخيار وهارون بن محمد بن عبد الملك الزييات في مجلس عبيد الله بن سليمان^(١) . كما نراه يرقب حركات أبي العبر الهاشمي^(٢) . ثم نراه واحدا من الكتّاب في أيام المتوكل .

وأما عبد العزيز بن أحمد فنراه حيث نرى ابن أخيه الحسن بن محمد الأصبهاني نراه مع أبي العبر في سرمن رأى ونراه على أنه أحد الكتّاب بسرمن رأى في عصر المتوكل^(٣) .

أما أحمد بن الهيثم جد أبيه فنراه في منزله بسرمن رأى ونرى معه اسحاق ابن ابراهيم الموصلی وجماعة من الصحب والخلان ينعمون بالشراب وسماع الغناء الشهى من اسحاق وأبو الفرج نفسه هو الذي يهيء لنا هذا اللقاء حيث نراه يقول :

أخبرني علي بن صالح بن الهيثم الأنباري قال حدثني أحمد بن الهيثم -

(١) ٩/٣١ الأغاني . سامي (٢) ٢٠/٩١ المصدر السابق

(٣) راجع ص ٩٨ ، ٩٩ من جهرة النسب لابن حزم

يعني جد أبي رحمه الله - قال كنت ذات يوم جالسا في منزلي بسر من رأى وعندي اخوان لي وكان طريق اسحاق في مضيه إلى دار الخلافة ورجوعه منها على... الخ^(١).

وأما محمد بن أحمد الأصهباني جد أبي الفرج فنراه في مواطن كثيرة وفي مواقف خالدة . فنراه مرة مع عبيد الله بن سليمان بعد توليه الوزارة . نراه ويقص عليه هذا بعض أخبار المعتضد مع بدر^(٢) ومعنى ذلك أنا نراه بعد سنة تسع وسبعين ومائتين وهي السنة التي ولي فيها عبيد الله الوزارة للمعتضد^(٣) وهو حين يتحدث عن عبيد الله لا ينسى أن يقص علينا اتفاقهما في النشأة فهو تربه الذي شهدت سر من رأى طفولته معه .

ثم نراه في منزله يجتمع فيه العلبة من القوم من طالبيين وعباسيين فنراه ونرى معه الحسين بن الحسين بن زيد بن علي . ومحمد بن علي بن حمزة العلوي العباسي وأبو هاشم داود بن القاسم الجعفرى . ونراه يدير دفة القول والقوم يسمعون له فيشير كلامه في أنفسهم ما يشير^(٤) . كل ذلك في سر من رأى وفي عصر المتوكل كما يشهد بذلك حديث راوى الخبر عن معاشره زيد بن الحسين لأولاد المتوكل وكيف أن هذه المعاشره كانت تحمل الحسين نفقات باهظة .

ثم نراه أخيراً مع إبراهيم بن العباس الصولى ومحمد بن عبد الملك الزيات وهو يريد أن يتثبت من صحة حكم هذا الأخير في أبي تمام . ولا ينسى محمد بن أحمد الأصهباني أن يذكر لنا في هذا الموطن أنه كان يقوم من إبراهيم مقام الولد من الوالد^(٥)

(١) ٢١/٢ أغاني . سامى (٢) ٩/٣٣ ، ٣٢ المصدر السابق

(٣) ٨/١٦٣ السكامل لابن الأثير (٤) ٦٩٨ ، ٦٩٩ مقاتل الطالبيين ط . مصر

(٥) ٩٦ ، ١٥/٩٧ أغاني . سامى

وإذا أردنا أن نؤرخ للأسرة بهذه المدينة كانت حياة محمد بن أحمد الأصهباني بها أوضح السبل إلى هذا التاريخ لأنها تدلنا على أنه كان بسر من رأى قبل مقتل محمد بن عبد الملك الزيات أى قبل سنة ثلاث وثلاثين ومائتين^(١) ثم كان بها طفلاً يلهو مع عبيد الله بن سليمان ومضمون هذا أنه كان بهذه المدينة مع بعض الأهل أو مع أبيه .

وإذا كنا نعلم أن المعتصم قد بدأ بإنشاء هذه المدينة سنة إحدى وعشرين ومائتين وبدأ بها على أنها معسكر للجيش ثم بنى له وللوزراء والقواد والكتاب القصور وأنه استقدم لها الأهالي من كل إقليم وطلب إلى أهل كل إقليم أن يعمروا عمارة إقليمهم^(٢) . إذا كنا نعلم كل هذا جاز لنا أن نقول أن أسرة أبي الفرج لا يية كانت من الأسر التي عمرت سر من رأى أول عهدا بالحياة . وأن أول جد هبط هذه المدينة كان أحمد بن الهيثم والد محمد ابن أحمد الأصهباني جد أبي الفرج ولا يمكن أن يكون هذا الهابط جداً قبله فيما تؤذن ظروف الحال .

هذه صلة أسرة الأب بسر من رأى . أما صلتها بأسرة الأم فتتلخص في أنها كانت مقامهم أيضا يوم أن كان أفرادها يشتغلون بالكتابة في قصور الخلفاء أو في دواوين الوزراء فأحمد بن محمد بن ثوابه كان من كتاب الديوان في أيام المهتدي وله مع الخليفة ومع وزيره سليمان بن وهب أحداث يروها أبو الفرج نفسه^(٣) . ثم أنه كان من الذين أباح المهتدي دمهم مع الحسين ابن مخلد وسليمان بن وهب سنة ست وخمسين ومائتين^(٤) . وليس يخفى أن سر من رأى كانت مقر الوزراء والكتاب في ذلك الحين .

(١) ٧/١٤ ابن الأثير . ط . ١٩٠ هـ

(٢) ٣/١٩٩ يعقوبى . ط . النجف سنة ١٣٥٨

(٣) ٣٠/٦٩ أغاني . ساسى

(٤) ص ١٨٣ — المجلد الثالث الطبرى ط . أوروبا

ولقد كان يحيى بن محمد بن ثوابه جد أبي الفرج لأمه أيضا ^(١) من الكتاب وكان من الذين يقيمون بسر من رأى كما هو الواضح من حديث محمد ابن القاسم بن مهروبه السابق ومحمد بن شيوخ سر من رأى في ذلك الوقت. كانت أسرة الأب تقيم بسر من رأى وكانت أسرة الأم تقيم أيضا بسر من رأى وكل واحدة من الأسرتين قد جاءت من إقليم غير ذلك الذي جاءت منه الأخرى فجاءت أسرة الأب من أصبهان كما تؤذن بذلك نسبتها إليها وجاءت أسرة الأم من قرية النيل تلك التي خلدها البحترى في شعره حين هجأ آل ثوابه ^(٢). أفلا يؤذن ذلك كله بشيء؟ إنه يؤذن فيما أعتقد بالقول بأن المصاهرة بين الأسرتين قد تمت بسر من رأى. كما يؤذن بالقول بأن سر من رأى قد كانت موطن الميلاد ولست أريد الاسترسال فأقول بأن أبا الفرج حين سكن بغداد منذ الصبي ^(٣). قد جاءها من سر من رأى فقد يكون غيرها طريق أبي الفرج إلى بغداد.

أما مقام أبي الفرج أو مقام أبيه بسر من رأى فهو الأمر الذي لا نعلم عنه شيئا فليس بين أيدينا من النصوص ما يشير ولو عن بعد إلى الحالات التي كان عليها المقام.

نعم نحن نعلم أن سر من رأى قد أثرت في أبي الفرج بثقافتها أثرت فيه لا من حيث أنها موطن مهم من مواطن القصور التي كانت تقع فيها الأحداث ويقوم فيها الغناء فهي من هذه الناحية قد لا تمتاز عن دمشق وبغداد. ولا من حيث أن الأصوات الممثلة التي دار حولها الكلام في الأجزاء الأولى من كتاب الأغاني قد اختيرت للوائح واللوائح من خلفاء العباسيين الذين كلفوا بالغناء وبرعوا فيه ^(٤). ومن الذين كانت عاصمة

(١) ١٨/٤٣ أغاني . ساسي

(٢) راجع ١١٨، ١١٩ ج ١، ١٠٨ ج ٢ ديوان البحترى . ط . الجواب سنة ١٣٠٠ هـ

(٣) لوحة ٢٧٥ ب، ٢٧٦ تاريخ الاسلام الكبير للذهبي

(٤) ١٥٦ - ٨/١٦٩ الأغاني . ساسي

ملكهم سر من رأى . فقد يستطيع أبو الفرج أيضا أن يقوم بعملية التاريخ وجمع الأخبار حول الغناء والمغنين ولو لم يذهب إلى سر من رأى فقد كانت هذه الأخبار من الميادين التي يحول فيها العلماء ويصولون ونظرة واحدة إلى ما كتبه ابن النديم عن هذه الحركة تثبت صحة ما نقول (١) .

نعم نحن لا ننكر أن هذه الحركة الغنائية كانت شديدة في سر من رأى حتى لقد كان القوم أحزابا منهم من هو مع عرب و منهم من هو مع شارية لا يدخل أصحاب هذه في هؤلاء ولا أصحاب هذه في هؤلاء (٢) . ولكننا نعلم أيضا أن هذه الحركة كانت قد خففت بسر من رأى في عصر أبي الفرج وأنها كانت قد انتقلت في ذلك الوقت مع الخلفاء والوزراء والكتاب إلى بغداد ومن هنا كان الذين علموا أبا الفرج فن الغناء من البغداديين كما سنرى في الفصل الثالث إن شاء الله .

إنما أثرت سر من رأى في أبي الفرج عن طريق شيوخها الذين أخذ عنهم من أمثال عمه الحسن بن محمد الأصهباني ومن أمثال حبيب بن نصر المهلبى واحمد بن عبد العزيز الجوهري ولن نستطيع أن نقول متى أخذ عن هؤلاء فتاريخهم مجهول لا نعرف منه إلا الجمل القصيرة التي لا تحدد لنا تاريخ الوفاة الأمر الذي يمكن الاعتماد عليه في تحديد الزمن الذي تلقى فيه أبو الفرج العلم عن شيوخ سر من رأى .

نعم نحن نعلم أن أبا الفرج قد روى لهم في كتابه الذي أخرجه للناس سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة وهو كتاب مقاتل الطالبيين ويدل هذا على أنه قد أخذ عنهم حتما قبل ذلك التاريخ ولكن ذلك لا يفيدنا في الحديث عن النشأة أو التربية الأولى وأن أفادنا في الحديث عن أثرهم في أبي الفرج أو تأثير أبي الفرج بهم فقد يكون أبو الفرج قد أخذ عنهم وهو كبير وقد يكون أبو الفرج قد التقى بهم وأخذ عنهم في بغداد كما هو الظاهر من حال الحسن

(١) ١٠١ - ١٢٢ الفهرست لابن النديم . مصر

(٢) ١٤/١٠٩ ، ١٣/٢٩ ، أغاني . سامي

ابن محمد الأصمبھانی عمہ فقد ترجم له الخطيب على أنه من زاروا بغداد وأخذ عنهم أبو الفرج ^(١) وقد يكون أبو الفرج قد أخذ عنهم عن طريق الاجازات والمكاتبات .

ليس لدينا من النصوص ما يثبت زمن هذا الأخذ ولا حتى محله وكل ما نعتمد عليه ليست إلا القرائن التي تثبت هذا الأثر والتي تقف منه عند حد الإثبات .

لقد كان حبيب بن نصر المهلبى وأحمد بن عبد العزيز الجوهري من الذين يأخذ عنهم أبو الفرج أخباراً رويها عن الشيوخ الذين ألموا بسر من رأى أو أقاموا فيها من أمثال أبي العيناء وعمر بن شبة ومحمد بن داود الجراح وهارون بن محمد بن عبد الملك الزيات وغيرهم ولقد كان هؤلاء من الذين لم يترجم لهم الخطيب أو غيره . ومن هنا عجزنا عن القطع في إثبات أمر غير الأخذ عنهم ولعل من العقبات التي تحول بيننا وبين الاعتقاد بأن أبا الفرج قد أخذ عنهم في الصغر أنا سنرى في الفصل التالى أن نشأة أبي الفرج الأولى كانت بالكوفة وأنه لم يثبت لدينا ولو حتى عن طريق اللفتة العابرة أو الإشارة الغامضة أنها كانت بسر من رأى أو بأصبهان .

وقد يكون من الخير أن نعترف في هذا الموطن بأننا لم نعثر على آثار الحسين بن محمد الأصمبھانى والد أبي الفرج في سر من رأى وأنا لم نلقه أول لقاء إلا في بغداد الأمر الذى سنشير إليه في الفصل الثالث إن شاء الله . هذه آثار سر من رأى في الأسيرة وفي أبي الفرج صورناها كما أمدتنا بذلك المعلومات التاريخية التي وقفنا عليها وليس يسعنا إلا تركها والانتقال إلى غيرها من المدن التي قد تلقى ضوءاً على حياة أبي الفرج تلك الحياة التي ظلت غامضة حتى على المحققين من الباحثين والادباء .

الفصل الثاني

الكوفة

وتمتاز الكوفة عن كل من أصبهان وسمر من رأى بأمور . تمتاز أولاً بأن إقامة أبي الفرج بها ثابتة ولقد نص هو نفسه على ذلك كما سبق أن رأينا عند حديثنا عن الحدود المكانية في الفصل الأول من الباب الأول . ومن هنا لم نحتاج إلى شيء من الفروض النظرية لنصل إلى ما هو الجائز أو المحتمل .

وتمتاز ثانياً بأنها مدينة النشأة والتربية الأولى فيما نعتقد يدفعنا إلى ذلك حديث الأقدمين من المؤرخين عن شيوخي لا سيما المحدثين منهم وأنصهم على أن أكثر هؤلاء من الكوفيين ^(١) . وأن أقدمهم محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمي ومحمد بن جعفر القتات ^(٢) . كما يدفعنا إليه حديث أبي الفرج نفسه عن محمد بن الحسين السكندی الذي يصفه بأنه مؤدبه ^(٣) والذي يصرح في مواطن كثيرة بوصفه بأنه خطيب مسجد القادسية ^(٤) .

يضاف إلى ذلك أن الكتاب الذي أخرجه أبو الفرج للناس ولم يبلغ الثلاثين من العمر وهو مقاتل الطالبين إنما يقوم على الثقافة الكوفية ويأخذ فيه أبو الفرج عن الشيوخ الكوفيين من أمثال أحمد بن محمد بن سعيد الحمداني ومحمد بن الحسين السكندی وعلي بن العباس المقانعي وأحمد بن عيسى بن أبي موسى العجلي والحسين بن الطيب بن الشجاعى البلخي ومحمد بن علي بن مهدي

(١) لوحة ٢٧٥ ب تاريخ الاسلام الكبير للذهبي مصورة رقم ٤٢ تاريخ دار الكتب

(٢) ٢/٢٢٣ ميزان الاعتدال

(٣) ١٣/٩ أغاني . سامي ، ١٣/١٠ بولان وسبرد النص بتمامه في هذا الفصل

(٤) ١٤/٨٥ ، ٢١/٣٩ أغاني . سامي

وكثير غيرهم ممن نص أبو الفرج نفسه على أنه قد أخذ عنهم بالكوفة^(١) . وفي ذلك من الدلالة على أنه قد تثقف بالثقافة الكوفية أولاً ما فيه . وهذه الأمور مجتمعة هي التي دفعتنا إلى أن نجعل الحديث عن أبي الفرج بالكوفة قبل الحديث عنه في بغداد .

وتمتاز ثالثاً بأن التحديد الزمني لهذه الإقامة يكاد يكون معروفاً معرفة واضحة فأبو الفرج قد أخرج كتاب المقاتل الذي يحمل بين طياته الثقافة الكوفية سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة كما يذكر هو في المقدمة ومعنى ذلك أنه كان بالكوفة يتلقى العلم قبل أن يجلس للاملاء ببغداد .

وأبو الفرج أيضاً يحدثنا بأنه كان مع أبيه ببغداد بعد سنة ثلاثمائة حين زارها أبو الفياض سوار بن أبي شراعه^(٢) الشاعر الاخباري البصري ومعنى ذلك أن مقام أبي الفرج بالكوفة لم يتأخر إلى ما بعد سنة ثلاثمائة بكثير .

وتمتاز رابعاً بأن الألوان الثقافية التي كان يأخذها أبو الفرج بها تسكاد تسكون معروفة كما تسكاد تسكون معروفة أيضاً العلل والأسباب التي دفعت بأبي الفرج إلى هذه الألوان وإلى الكوفة نفسها .

والأسباب نستطيع أن نلتبسها من حياة الأسرة وما ذكرناه في الفصل الثالث من الباب الأول فقد ذكرنا هناك أن أسرة الأب كانت على صلات حسنة بالطالبيين وأن منزل جده محمد بن أحمد الأصهباني كان الندوة التي يجتمع فيها هؤلاء في بعض الأحيان وفسرنا الحب بين الأمويين والطلبيين بأنه الحب الذي ينشأ أولاً من الضرورات السياسية ثم يصبح بعد ذلك من الأمور التي لا تثير ما في النفوس من إحن وعداوات . وأن موقف كل من الطالبيين والأمويين من العباسيين هو الذي قرب بينهما وجعلهما في منزلة الأصدقاء والأحباب .

(١) ٣٤ ، ٦٩ / ١٣ ثم ١٧ / ٦٨ ثم ١٦٢ / ١٨ المصدر السابق . وراجع أيضاً

١٣٦ مقاتل الطالبيين (٢) ٢٠ / ٣٥ أغاني . ساسي .

ولقد ذكرنا هناك أيضاً أن أسرة أبي الفرج لامة كانت من الأسر الشيعية التي نالها الاضطهاد لتشييعها ووقع على بعض أفرادها أذى من الخلفاء وأن أبا الفرج قد ورث تشييعه عن أسرة أمه وعاون على هذا ذلك الميل الذي وجد في أسرة أبيه . وإذا فقد كان من المعقول أن تندخل هذه العوامل في اختيار البيئة الثقافية وأن يقع الاختيار على الكوفة لأنها البيئة الشيعية الأولى ولأنها مقر الطالبين .

ونستطيع أن نضم إلى ذلك أيضاً أن الكوفة أقرب البيئات الثقافية إلى قرية النيل وهي قرية آل ثوابه تلك التي خلدها البحترى في شعره كما سبق أن أشرنا . وليس يخفى أن آل ثوابه هم أسرة الأم .
هذه هي العوامل التي تفسر لنا الاختيار - إن كان قد وقع - وترشح له .

والألوان الثقافية التي أخذها أبو الفرج بالكوفة هي الأحاديث النبوية والأخبار الدينية المذهبية التي تدور في الغالب حول مقاتل الطالبين . أما الحديث فقد كان محصول أبي الفرج منه قليلاً ولعله من هنا لم يترك لنا كتاباً في الحديث ويذكر ابن حجر أن ما رواه الدار قطنى في غرائب مالك عن أبي الفرج الأصماني كان عدة أحاديث (١) . على أن هذه الثقافة قد أفادت أبا الفرج من جانب آخر فلقد مكنت له من أن يجرى على طريقة المحدثين في رواية الأخبار الأمر الذي سنقف عنده طويلاً في الباب الثالث إن شاء الله .

وأما الأخبار التي أخذها أبو الفرج عن الكوفة والكوفيين فيغلب عليها طابع الجد وذلك هو الواضح من المرويات التي يرويها أبو الفرج عن شيوخ الكوفة لا بالنسبة إلى ما أورده في كتاب المقاتل بل بالنسبة إلى ما أورده في كتابه الذي يحرص فيه كل الحرص على الأخبار العابثة المستهترة

وهو كتاب الأغاني ونستطيع أن نعرض عليك بعض مروياته التي أخذها عن الكوفيين والتي أوردتها في كتابه الأخير .

حدثني الحسين بن الطيب الشجاعى البلخى بالكوفة قال حدثنا أيوب بن محمد الطلحى قال حدثنا عبد القاهر بن السرى السلى قال حدثنا عبد الله بن كنانة عن عباس بن مرداس أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لأمته عشية عرفة قال فأجبت لهم بالمغفرة إلا ما كان من مظالم العباد بعضهم لبعض قال فإني آخذ للمظلوم من الظالم قال أى رب إن شئت أعطيت للمظلوم من الجنة وغفرت للظالم فلم يجب فى حينه فلما أصبح فى المزدلفة أعاد الدعاء فأجيب لهم بما سأل فضحك النبي صلى الله عليه وسلم أو تبسم فقال أبو بكر رضى الله عنه بأبى أنت وأمى أن هذه الساعة ما كنت تضحك فيها أو تبسم فقال أن إبليس لما علم أن الله غفر لأمتى جعل يحثو التراب على رأسه ويدعو بالويل والثبور فضحكت من جزعه (١) .

حدثنا الحسين بن الطيب البلخى قال حدثني أبو غسانه قال بلغنى أن أول من أخذ بعينه فى الاسلام عمرو بن عثمان بن عفان أتاه عبد الله بن الزبير الاسدى فرأى عمرو تحت ثيابه ثوبا رثا فدعا وكيله وقال اقترض لنا مالا فقال هيات ما يعطينا التجار قال فأرجعهم ما شاموا فاقترض له أولا ثمانية آلاف درهم وثانیا عشرة آلاف فوجه بها اليه مع تحت ثياب فقال عبد الله ابن الزبير فى ذلك :

سأشكر عمرا إن تراخت منيتى أياذى لم تمنن وإن هى جلت
فتى غير محبوب الغنى عن صديقه ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت
رأى خلقى من حيث يخفى مكانها فكانت قذى عينيه حتى تجلت (٢)

أخبرنى محمد بن الحسين السكندى مؤدبى قال حدثنى على بن محمد النوفلى قال حدثنى عمى قال دخل الحكم بن قنبر على عمى وكان صديقا له فبش به

(١) ١٣ / ٦٩ الأغاني . سامى .

(٢) ٣٣ الأغاني . سامى .

ورفع مجلسه وأظهر له الأنس والسرور ثم قال أنشدني أبيانك التي أقسمت فيها بما في قلبك فأنشده :

وحق الذي في القلب منك فإنه عظيم لقد حصنت سرى في صدرى
ولسكنها أفشاه دمعى وربما أتى المرء ما يخشاه من حيث لا يدرى
فهب لى ذنوب الدمع إنى أظنه بما منه يبدو إنما يقتضى ضرى
ولو يقتضى نفعى لخلّى ضمائرى ترد على أسرار مكنونها سرى
فقال لى يابنى اكتبتها واحفظها ففعلت وحفظتها يومئذ وأنا غلام^(١).

أخبرني محمد بن الحسين السكندی خطيب مسجد القادسية قال حدثني الرياشي قال حدثني الأصمعي قال كان أهل الجاهلية يسمون الغنوى طفيل الخيل لشدة وصفه الخيل^(٢).

أخبرني أحمد بن عيسى العجلي بالكوفة قال حدثنا سليمان بن الربيعي البرجمي قال حدثنا نصر بن مزاحم عن عمرو بن مسعدة عن أبي مخنف عن عبد الرحمن بن عبيد أبي الكنود ، وأخبرني . . . أن المختار بن أبي عبيد خطب الناس يوماً على المنبر فقال لتنزلن نار من السماء تسوقها ريح حالكة دهماء حتى تحرق دار أسماء وآل أسماء .

وكان لأسماء بن خارجة بالكوفة ذكر قبيح عند الشيعة يعدونه في قتلة الحسين عليه السلام^(٣).

حدثني أحمد بن عيسى العجلي السكوفي المعروف بابن أبي موسى قال حدثنا الحسين بن نصر بن مزاحم قال حدثني أبي قال حدثني عمر بن شبه عن جابر الجعفي قال سمعت ابن جذيم التاجي يقول لما استقام لمعاوية أمره لم يكن شيء أحب إليه من لقاء أبي الطفيل عامر بن واثله فلم يزل يكاتبه ويلطف له حتى أتاه فلما قدم عليه جمل يسأله عن أمر الجاهلية ودخل عليه عمرو بن

(١) ١٠٤٩ المصدر السابق

(٢) ١٤/٨٥ المصدر السابق

(٣) ١٣/٣٥ الأغاني . ساسي

العاص ونفر معه فقال لهم معاوية . أما تعرفون هذا ؟ هذا خليل أبي الحسن ثم قال يا أبا الطفيل ما بلغ حبك لعلی ؟ قال حب أم موسى . قال فما بلغ من بكائك عليه ؟ قال بكاء العجوز الثكلى والشيخ الرقوب وإلى الله أشكو التقصير . قال معاوية إن أصحابي هؤلاء لو كانوا سئلوا عنى ما قالوا فى " ما قلت فى صاحبك . قالوا إذا والله لا نقول الباطل . قال لهم معاوية . لا والله ولا الحق تقولون ^(١)

لقد تعمدت أن أسرد لكل واحد منهم خبرين ولقد تعمدت أن تكون المرويات كلها من جزء واحد من أجزاء الأغاني اللهم إلا خبر محمد ابن الحسين السكندى الأخير ولقد حرصت على أن تكون الكوفة واضحة فى النسبة وليس ذلك إلا لتكون الأخبار صادقة الدلالة على ما نذهب إليه من أن طابع الجد هو الذى يغلب فى المرويات التى يأخذها أبو الفرج عن شيوخه من الكوفيين .

أما كيف كان يعيش أبو الفرج بالكوفة فهو الأمر الذى لم نجد من الأقدمين من يذكره بل لم نجد منهم من يذكر أن تربيته الأولى كانت بالكوفة ولعل لهم عذراً فى ذلك فقد كانت المدة قصيرة إذ انتقل أبو الفرج إلى بغداد حوالى سنة ثلاثمائة أو بعدها بقليل كما يدل عليه حديثه عن أبي الفياض سوار بن أبي شراعه الذى أشرنا إليه سابقاً والذى يقول فيه (وابنه أبو الفياض سوار بن أبي شراعه أحد الشعراء الرواة قدم علينا بمدينة السلام بعد سنة ثلاثمائة ^(٢)) . وإذا كان أبو الفرج قد ولد عام أربع وثمانين ومائتين فإن الذى يفهم أنه قد انتقل إلى بغداد وأنه فى سن السابعة عشرة تقريباً وأنه لم يكن قد لفت إليه الأذهان وهو بالكوفة ومن هنا لم تكن للناس عنه ذكريات وليس يخفى أن أمثال هذه الذكريات إنما تكون الدعامة الأولى لمن يريد الحديث عنه أو تاريخ حياته فى المدة التى قضها

(١) ١٥٩ ، ١٦٠ المصدر السابق

(٢) ٢٠/٣٥ المصدر السابق

بتلك المدينة بل لعل أبا الفرج لم يلفت إليه الذهن حتى في بغداد إلا بعد أن
كبر وجلس مجلس الشيوخ الذين يأخذ عنهم الطلاب ولعل هذا هو السر
في خلو كتب التاريخ عن كل ما يصف حياته الأولى يوم أن كان يطلب العلم
في المساجد وفي المجالس وفي بيوت بعض الكتّاب والشعراء .

لم نعثر على نصوص تصور لنا كيف كان يعيش أبو الفرج بالكوفة
ولكن ليس معنى ذلك أننا سنقف أمام هذه المسألة مكتوف الأيدي فعندنا
التصوير التاريخي للحالات التي كان يكون عليها الطلاب حين يعثرون في
سبيل العلم ويرحلون من إقليم إلى إقليم وهو تصوير إن لم يضع أيدينا على
صورة المعيشة الحقيقية لأنّ الفرج بالذات فانه سيقرب صورة هذه المعيشة
إلى الأفهام .

في تراجم ياقوت للعلماء والأدباء كثير من النصوص التي تصور هذه
المعيشة في عصر أبي الفرج وغيره ونستطيع أن نقتصر منها على تلك التي
تعرفنا بالمدارس أو دور العلم في عصر أبي الفرج وكيف كان يعيش الطلاب
إذ ذاك . ولعل مما يتمم هذه الصورة أن نذكر طرفاً من أخبار العلماء
والمؤدبين في ذلك العصر وموقفهم من أمثال هؤلاء الطلاب .

يذكر ياقوت بصدد حديثه عن جعفر بن محمد الموصلي المتوفى سنة
ثلاث وعشرين وثلاثمائة ما يأتي : وكانت له ببلده دار علم قد جعل فيها خزائن
كتب من جميع العلوم وقفاً على كل طالب للعلم لا يمنع من دخولها إذا جاءها
غريب يطلب الأدب وإن كان معسراً أعطاه ورقاً وورقاً تفتح في كل يوم
ويجلس فيها إذا عاد من ركوبه ويجتمع إليه الناس فيملي عليهم من شعره
وشعر غيره ومصنفاته مثل الباهر وغيره من مصنفاته الحسان ثم يملئ من
حفظه من الحكايات المستطابة وشيئاً من النوارد المؤلفة وطرفاً من الفقه
وما يتعلق به ^(١) .

وجاء بصدد ترجمته لعل بن يحيى المنجم المتوفى سنة خمس ومسيبعين ومائتين (كان بكر كر من نواحي القفص ضيعة نفيسة لعل بن يحيى المنجم وقصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة يسميها خزانة الحكمة يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم والكتب مبدولة في ذلك لهم والصيانة مشتملة عليهم والنفقة في ذلك من مال علي بن يحيى^(١) .

في هذين النصين نرى لونين من دور العلم في ذلك العصر الذي ولد فيه أبو الفرج . اللون الأول وهو أقدمها لون خزانة الكتب تلك التي كان يقيمها الأغنياء في قصورهم وفاء بحق الثقافة وبحق الشعب . وهذا اللون لا نجد فيه من يقوم بالدرس والإملاء وذلك هو الواضح من مثل علي بن يحيى المنجم وخزانة الحكمة .

أما اللون الثاني فهو لون دور العلم ويمتاز عن اللون الأول بأنه يكاد يكون مدرسة وهذا اللون هو اللون الواضح من صنع جعفر بن محمد الموصلي ؟

هذان اللونان يجعلان الحياة الثقافية سهلة يسيرة ويحببان العلم إلى طلابه ويدفعانهم إلى المزيد فهي حياة لا يشق فيها الطالب إلا بالتحصيل تحصيل العلم بدون كلفة ولا مؤونة فلهذا هؤلاء الأغنياء وعليه أجرهم .

هذا حق الشعب أوجبه الأغنياء الموسرون على أنفسهم وفاء بحق الإنسانية وإحساسا بالأخوة . وهناك حق آخر أوجبه العلماء على أنفسهم لهذا الشعب وهو التعليم بالمجان وترى ذلك بصورة جلية من حياة العالم الكبير محمد بن جرير الطبري أستاذ أبي الفرج وشيخ المؤرخين والمفسرين . ولعل هذه القصة تصور ما زيد أبلغ تصوير يقول ياقوت (وكان يختلف إليه أبو الفرج بن أبي العباس الأصبهاني وأخذ يقرأ عليه كتبه فالتمس أبو جعفر حصيرا لصفة له صغيرة فدخل أبو الفرج الأصبهاني وأخذ مقدار

الصفة واستعمل له الحصير متقرباً بذلك له وجاءه به وقد وقع موقعه فلها
خرج دعا ابنه ودفع إليه أربعة دنانير فأبى أن يأخذها وأبى أبو جعفر أن
يأخذ الحصير إلا بها^(١).

كما نراه من حياة أبي عبد الله المرزباني قرين أبي الفرج فقد قال القاضي
الحسين بن علي الصيمري سمعت المرزباني يقول كان في دارى خمسون ما بين
لحاف ودواج معدة لأهل العلم الذين يبيتون عندي^(٢).

في هذا الجو العلمى كان يعيش الطلاب من أمثال أبي الفرج . أفنخشى
عليه شيئاً ونشفق من ارساله إلى السكوفة ليقيم فيها وحده ؟ إن سبل العلم
لينة وطرقه ميسرة أوجب الأغنياء على أنفسهم فيها شيئاً وأخذ العلماء على
عائقهم الباقي .

لكننى مع كل هذا أخشى منك ما خشيت من نفسى وهو أن نذهب إلى
أنه ليس من المعقول أن تسكون على مثل هذه الصورة جميع الحالات التى
يكون عليها الطلاب لاسيما ونحن نعلم أن أبا الفرج كان يصف محمد بن الحسين
السكرندى بالمؤدب أو مؤدبه كما نعلم أن أمثال هؤلاء المؤدبين لا يعفون
الطلاب من الأجر وليس هناك ما يمنع من أن يكون أبو الفرج وهذه حاله
مع محمد بن الحسين السكرندى عن يدفعون الأجور .

ذلك أمر لا نستطيع إنكاره وقد يكون من الخير لكلينا ولأبي الفرج
نفسه أن نقف على صورة من تلك الصور التى يأخذ فيها المعلمون من
الطلاب أجراً . حدث الزجاج قال كنت أخطر الزجاج فاشتبهت النحو
فلزمت المبرد لتعلمه وكان لا يعلم مجاناً ولا يعلم بأجرة إلا على قدرها . فقال
لى أى شئ صناعتك قلت أخطر الزجاج وكسى فى كل يوم درهم ودانقان
أو درهم ونصف وأريد أن تبالغ فى تعليمى وأنا أعطيك كل يوم درهما

(١) ١٨/٨٢ المصدر السابق

(٢) ٢٦٨ ، ٢٦٩ معجم الأدباء طه رفاعى

وأشـرط لك أن أعطيك إياه أبداً إلى أن يفرق الموت بيننا ^(١) . . . وجاء في الأغاني . . . قال الزبير قال الموصلي وكان بن أبي عبيدة يملئ شعر كثير بثلاثين ديناراً ^(٢)

ولسنا بحاجة وقد عرفنا أحوال الأسرة إلى حد ما بسر من رأى إلى أن نقول إنها كانت بحيث تستطيع أن تدفع مثل هذه الأجور . هذه صورة تقريبية لحياة أبي الفرج بالكوفة تصور لنا المعيشة التي كان من الممكن أن يعيشها في وقت كان يسكن فيه الطلاب في دور العلم أو في بيوت الأماتذة وقصور الأغنياء . كما تصور لنا ألوان المعرفة التي كان يطلبها أبو الفرج بالكوفة وأنها كانت المعرفة الدينية أو علوم الحديث والأخبار .

والآن نريد أن نترك هذه الصورة إلى أخرى هي حياة أبي الفرج ببغداد . وقبل هذا التـرك نوضح أمراً نعتقد أنه من الخطورة بمكان . ذلك لأننا لا نستطيع أن نمضى على أن ما أخذه أبو الفرج من الكوفة هو العلم الجاد لا سيما ونحن نعلم أن الكوفة كانت بيئة المجان والخلعاء من المغنين والشعراء وأن الغناء قد استقر فيها قبل أن يستقر ببغداد وأن عمر بن أبي ربيعة كان يلم بها لسمع غناء قينتين حاذقتين لصاحب إبليس عبد الله ابن هلال ^(٣) وأن إسحاق الموصلي حين هم بتأليف كتاب في الأغاني أرسل كتاباً إلى علي بن هشام القائد ينبئه أن في هذا الكتاب أحاديث قيان الحجاز والكوفة ^(٤) . وأن بالكوفة نشأ الحمادون الثلاث وأنها قامت في بقعة تـلم بها الأديرة من كل طرف وإذا ذكرنا الأديرة فقد ذكرنا الخمارين والخمارات وما يتبع ذلك من لهو وعبت ومن زندقة وإلحاد . نعلم ذلك كله عن هذه البيئة فهل يصح لنا والحالة هذه أن نسل أبا الفرج منها وأن نمضى على أنه لم يأخذ من البيئة الكوفية إلا كل ما هو جاد ؟

(١) ١ / ١٣١ المصدر السابق (٢) ٨ / ٢٦ أغاني . ساسي .

(٣) ١ / ١٥٣ . أغاني دار الكتب .

(٤) ٦ / ٤٩ معجم الأدباء . ط . رفاعي

لا سبيل إلى انكار أن هذه البيئة قد أثرت أثرها وفعلت فعلتها في نفس أبي الفرج ولعل كتابه الديارات لم يكن إلا عن وحي هذه البيئة . ولسكننا مع كل هذا لن نقف عندها في هذا الموطن لسبب بسيط هو أننا نعلم أن أبا الفرج قد انتقل إلى بغداد وهو صغير وأن سنه إذ ذاك لم تكن لتسمح لمثل هذه الآثار بالظهور وأن ما أخذه عن الكوفة من هذا الجانب ليس إلا الصور التي استحالته إلى رواسب وظلت كامنة في نفسه حتى شب عن الطوق وحتى وجدت ما يستثيرها من الحياة في بغداد . وإذ كنا قد مضينا على ألا نذكر من عوامل البيئة ومؤثراتها شيئاً إلا أن تكون آثاره واضحة وبارزة للعيان فأنا سنرجى الحديث عن هذه الرواسب التي استقرت في نفس أبي الفرج من هذه الحياة الكوفية حتى نصل إلى آثارها البارزة في حياته العقلية أو في حياته الخلقية وعند ذلك نعال منها ما يظهر لنا أن علله الحقيقية إنما ترجع إلى هذه الحياة الكوفية وما فيها من عبث ومجون قد استقرت صورته في نفس أبي الفرج وظلت حبيسة فيها لصغره أو لتزمت شيوخه من رجال الحديث والأخبار من الكوفيين .

الفصل الثالث

بغداد

وحياة أبي الفرج الطالب ببغداد أكثر وضوحاً وأقل خفاءً وليس يرجع ذلك إلى أن أبا الفرج الطالب كان من نضج العقل وقوة التفكير بحيث يدير الجدل والحوار حول مسائل العلم وقضاياها وبحيث يترك في أنفس الشيوخ والأقران ذكريات تردد صداها الأيام وتسكون اللبنة التي يعتمد عليها الباحث في الكشف عن حياته ورسم صورة حية نابضة له . فلم يكن أبو الفرج من ذلك في شيء فيما نعتقد . وإنما كان طالباً همه الأول والأخير تقييد العلم . تقييد ما يملكه الأساتذة على الطلاب وتقييد ما يدفع به الشيوخ إلى الطلاب من كتب يحملونهم إياها ليلغوها عنهم إلى غيرهم وتقييد كل ما يطرئ سمعه ولو عن غير شيخ وكل ما يقع تحت بصره من مكتوب حتى ولو كان هذا المكتوب غير مسمى الصانع على حد تعبيره هو وكما سنرى في الفصل الخاص بمرحلة التحمل من الباب الثالث إن شاء الله . ومن هنا أومن الحرص على هذا التقييد كان أبو الفرج من الرواة الممتازين ولم يكن من العلماء الناهمين . ولعله من هنا أيضاً أعرض التاريخ عن أبي الفرج أو كاد ولولا أن قبض الله له ذلك النساخ الذي أراد أن يأكل الخبز من وراء كتاب الأغاني في ذلك الوقت الذي ذهبت فيه الأحداث بالكثير من الكتب التي اعتمد عليها أبو الفرج عند التقييد والتدوين لما شاع ذكره وعلا صيته .

إن الوضوح إنما يأتي حياة أبي الفرج الطالب ببغداد من أمور أخرى غير ذاته .

(١) بأنها أولاً من أنه أصبح ببغداد وبغداد عاصمة الدولة ومقر الخلفاء تتوجه إليها الأبصار والاسماع ويعنى بها الباحثون وينصت إليها التاريخ . وينصت إلى أكثر ما يقال ولذلك سجل الأقدمون أن أبا الفرج قد سكن بغداد منذ صباه^(١) . وقال الأقدمون إنه نشأ وترى هناك^(٢) . ونستطيع نحن أن نمضي أكثر من الأقدمين خطوة أو خطوات فنحدد أيام الطلب بالسنوات ونعترف منذ الآن بأنه لن يكون التحديد الذي يسجل في دقة سنوات البدء والختام وإنما سيكون التحديد التقريبي وأنه الذي يمكن أن يقال .

نستطيع أن نجعل سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة حد الختام ذلك لأننا نعلم أن أبا الفرج قد ألف كتابه مقاتل الطالبين في هذه السنة وأنه أشار إلى ذلك أكثر من مرة فأشار إليه في المقدمة وأشار إليه في الخاتمة^(٣) .

ونستطيع أن نجعل حد البدء سنة ثلاثمائة أو قبلها بقليل ذلك لأننا نعلم أنه قد أخذ عن يحيى بن علي بن يحيى وهذا قد توفي سنة ثلاثمائة^(٤) . ولعل هذا هو الذي دفع ابن حجر إلى أن يقول وكان طلبه في حدود الثلاثمائة^(٥) .

(٢) وبأنى الوضوح ثانياً حياة أبي الفرج من أن نعلم أنه كان يقيم إلى جوار أبيه ببغداد وأنه هو نفسه الذي يدلنا على هذا في ترجمته لآني شراعة حين يقول (وابنه أبو الفياض سوار بن أبي شراغه أحد الشعراء الرواة قدم علينا بمدينة السلام بعد سنه ثلاثمائة فكتب عنه أصحابنا قطعات الأخبار واللغة وفاتني فلم ألقه وكتب إلى والي أبي رحمه الله بأجازة وأخبرنا بأخبار على يد بعض إخواننا . . .)^(٦) وعلى هذا نستطيع أن نتصور أن هذا الأب هو الذي كان يتحمل أثقال الحياة وأنه قد خلى بين ابنه وبين

(١) لوحة ٢٧٦ تاريخ الاسلام الكبير للذهبي مصورة رقم ٤٢ تاريخ دار الكتب

(٢) ٢/٢٧٨ البيهقي ، ١/١٨٤ مفتاح السعادة لطشكبرى زاده

(٣) ٤ ، ٧٢١ مقاتل الطالبين . ط . مصر

(٤) ٢٠٦ فهرست لابن النديم ط . مصر

(٥) ٤/٢٢١ لسان الميزان

(٦) ٢٠/٣٥ أغاني . ساسي

العلم يطلبه ولعله من أجل هذا انتهى أبو الفرج من طلب العلم مبكراً وجلس للتأليف قبل أن يبلغ الثلاثين .

(٣) ويأتى الوضوح هذه الحياة من أمر آخر لعله أن يكون أهم من كل ما تقدم ذلك هو وضوح حياة شيوخه من البغداديين فأنا نستطيع الاعتماد على هذه الحياة الواضحة لهؤلاء الشيوخ في أن نعرف من أمر أبي الفرج الطالب هذه المسائل .

١ - المواد التي كان يتعلمها

٢ - الأماكن التي كان يتلقى فيها العلم .

٣ - الأسلوب أو الطريقة التي كان يجري عليها التعليم

وقبل البدء بالكشف عن هذه الجوانب نلفت ذهن القارئ إلى أمور .

الأول أن ليس كل شيخ أخذ عنه أبو الفرج قد كان من العلماء الشيوخ فنحن نعلم أن منهم الأصدقاء والقرناء وأن منهم الكتّاب والندماء وأن منهم الورّاقين والمغنين الأمر الذي سنشرحه في الباب الثالث إن شاء الله .

الثاني أن ليس كل شيخ حمل عنه أبو الفرج وبلغ بلفظ أخبرنا كان من الشيوخ الذين لقيهم وجلس منهم مجلس الطالب من الشيخ فنحن نعلم أن أبا الفرج وغيره كانوا يبلغون بلفظ أخبرنا عن الأجازات والمسكّات كما سنرى في الباب الثالث أيضاً ويكفى أن نذكر هنا أن هذا كان صنيع أبي الفرج مع كل من أبي الفضل الخليفة بن الحباب الجمحي وأبي الفياض سوار بن أبي شراعة الذي ذكر هو عنه أنه لم يلقه ببغداد وأنه أخذ عنه الأخبار على يد بعض الإخوان . وليس يخفى أن أمثال هؤلاء الشيوخ لن يؤثروا في أبي الفرج بذواتهم وإنما بكتبهم فإن كان همه النقل عنهم والنقل ليس غير فأنا لن نتوقع منهم أن يكشفوا لنا عن بعض الجوانب من حياة أبي الفرج الطالب وسيكون حظهم مثل حظ سابقهم من أنهم من الشيوخ الذين تحمل عنهم وليسوا من الشيوخ الذين علموه

والذين حاولوا أن يؤثروا فيه أو يطبعوه بطابعهم ومن هنا نخرجهم أيضا من هذا الميدان .

الثالث أن شيوخ أبي الفرج الذين كان يجلس اليهم للكتابة عنهم أو للقراءة عليهم كانوا من الكثرة بحيث لا يحصون عدداً . وكانوا مختلفين لا من حيث المواد التي يعلمونها الطلاب فحسب بل من حيث المذاهب التي تقوم عليها المعرفة بحيث يدعوننا إلى التريث قبل إصدار الأحكام .

نعم نحن نعلم أن هذه الكثرة وهذا الاختلاف لهما آثارهما الحميدة من حيث الجمع والاستقصاء ومن حيث عرض وجهات النظر المختلفة في المسألة الواحدة أو في الموضوع الواحد لكننا نعلم أيضا من جانب آخر أنهما يعوقان عملية الإيحاء ويحولان بين الأستاذ وبين الإيحاء السريع المنتج .

ولذا ما ضممنا إلى ما تقدم أن هذا الاختلاف المذهبي دينيا كان أو غير ديني قد دفع إلى التحاسد والتباغض وقد دفع إلى شيء من الهجاء كما وقع بين ابن الرومي والأخفش^(١) . وبين نفطوسة وابن دريد^(٢) وبين حرمي بن أبي العلاء وجحظة^(٣) . وبين ابن الرومي وأبي العباس بن عمار^(٤) . من شيوخ أبي الفرج الذين تلمذ عليهم قدرنا لماذا كان شيوخ أبي الفرج الحقيقيين من بين الأموات لا من الأحياء .

أن أمثال هذه الحالات بين الشيوخ والأساتذة إنما تمسكتنا من الآثار المادية ولا تمسكتنا من الوقوف في دقة على الآثار المعنوية من أنفس الطلاب ومن هنا كانت العناصر المميزة لحياة أبي الفرج الطالب ببغداد هي العناصر السابقة : مواد الدراسة . وأمكنة الدراسة والطرق والوسائل التي يتبعها الشيوخ ، أما الآثار النفسية والعقلية فسنحصرها في بقظة وحذر ولن ندعى أن هذه كانت نتيجة حتمية لتلك ما دمنا نعرف ما كان بين هؤلاء الشيوخ من اختلاف وما دمنا لم نقع على صورة من التلازم القوي بين

(٢) ١/٢٦٤ المصدر السابق

(٤) ٣/٢٣٩ المصدر السابق

(١) ١٣/٢٥٥ معجم الأدباء . ط . رفاعي

(٣) ١/٢٦٢ المصدر السابق

أبي الفرج وبين واحد من هؤلاء الشيوخ اللهم إلا أن كان جحظه وبعض الكتاب كما سنرى بعد لحظات .

والمواد العلمية التي كان أبو الفرج يتعلمها قد ذكرها القدماء في إجمال حينها صوروا لنا ثقافة أبي الفرج . فقد قال عنه الخطيب ، وكان عالماً بأيام الناس والأنساب والسيرة وكان شاعراً محسناً والغالب عليه رواية الأخبار والآداب^(١) ، وقال عنه التنوخي (ومن المتشيعين الذين شاهدناهم أبو الفرج الأصماني . كان يحفظ من الشعر والأغاني والأخبار والآثار والأحاديث المستندة والنسب ما لم أر قط من يحفظ مثله ويحفظ دون ذلك من علوم آخر منها اللغة والنحو والخرافات والسير والمغازي ومن آلة المنادمة شيئاً كثيراً مثل علم الجوارح والبيطرة ونتف من الطب والنجوم والأشربة)^(٢) وغير ذلك كما قال صاحب لسان الميزان (كان إليه المنتهى في معرفة الأخبار وأيام الناس والشعر والغناء والمحاضرات يأتي بأعاجيب يحدثنا وأخبرنا)^(٣) . وهي ألوان من الثقافة تشهد بها كتب أبي الفرج التي بأيدينا . ونستطيع أن نردها في سهولة ويسر إلى بيئات ثقافية أو إلى مدارس بعينها ذلك لأننا نستطيع أن نميز بين نوعين منفصلين من الثقافة عند أبي الفرج . أولها ثقافة الكتاب ، وقد كان أبو الفرج منهم^(٤) . وثانيهما ثقافة الندماء والعالمين بالغناء وقد كان أبو الفرج أيضاً واحداً منهم^(٥) . وليس أدل على ذلك من كتبه ورسائله في الأغاني والغناء وعمله . أما اللون الأول فكانت الثقافة فيه تقوم على الأخذ من كل شيء

(١) ١١/٣٩٨ تاريخ بغداد للخطيب (٢) ٤٦٢ وفيات الأعيان . ط . باريس

(٣) ٤/٢٢١ لسان الميزان

(٤) ٢/٢٢ تاريخ أصبهان لأبي نعيم ١٣/١٠ معجم الأدباء . ط . رفاعي

(٥) لأبي الفرج كتب ورسائل في الأغاني ذكرها في كتاب الأغاني الكبير منها في

المقدمة كتاب مجرد الأغاني ومنها رساله في النغم والمعال ذكرناها عند حديثنا عن اسحاق الموصلي في الباب الأول .

بطرف ومن هناكثر تردد أدب الفرع على الشيوخ من المحدثين واللغويين والكتاب والشعراء ومن الأخباريين والوراقين . ونستطيع أن نقف هنا لنرى إمكانية الدراسة ونقف على الأساليب التي كان يجري عليها العلماء والمدرسون .

من السهل أن نجتمع في هذا الحديث بين المحدثين واللغويين ذلك لأننا نعلم أن اللغويين إلى هذا العصر كانوا يقلدون المحدثين . كانوا يسلكون مسلكهم في الاملاء أو في القراءة على الشيخ ويتخذون من المساجد دوراً للعلم كما كان يفعل هؤلاء ولقد كان آخر من أملى من اللغويين فيما يذكر السيوطي أبو القاسم الزجاج المتوفى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة (١) .

ثم لأننا نعلم أن شيوخ أدب الفرع من الذين عديم الخطيب من المحدثين البغداديين من أمثال محمد بن العباس اليزيدي (٢) . كانوا من اللغويين وكانوا من الذين نص أبو الفرع نفسه على أنه كان يأخذ عنهم اللغة والأدب فقد جاء في كتاب الأغاني بصدد ترجمته لأبي محمد اليزيدي ما يلي ، وكان أبو محمد عالماً باللغة والنحو راوية للشعر منصرفاً في علوم العرب أخذاً عن أبي عمرو بن العلاء وجوّد قراءته ورواها عنه وهي المعول عليها في هذا الوقت . وكان بنوه جميعاً في مثل منزلته من العلم والمعرفة باللغة وحسن التصرف في علوم العرب ولسائرهم علم جيد ... وآخر من كان بقي من علماء أهل هذا البيت أبو عبد الله محمد بن العباس بن محمد بن أبي محمد وكان فاضلاً عالماً ثقة فيما يرويه منقطع القرنين في الصدق وشدة التوقي فيما ينقله وقد حملنا نحن عنه وكثير من طلبة العلم ورواته علماً كثيراً فسمعنا منه سماعاً عاماً . (٣) .

(١) ٢/١٩٩ للزهر السيوطي . ط . سنة ١٣٣٥

(٢) ١١/٣٩ الخطيب في تاريخ بغداد

(٣) ١٨/٧٣ أغاني . سامي

ثم لأننا نعتقد أن أبا الفرج ببغداد كان قد بدأ يتحول عن دراسة الحديث إلى دراسة اللغة والأدب وفن الغناء .

واللغويون من شيوخ أبي الفرج ببغداد كثيرون . نرى منهم في كتاب الأغاني إبراهيم بن عرفة وأبا جعفر بن رستم الطبري ومحمد بن العباس اليزيدي ومحمد بن القاسم الأنباري ومحمد بن مزيد بن أبي الأزهر ومحمد بن جعفر الصيدلاني ومحمد بن الحسن بن دريد وعبدالله بن مالك وعلي بن سليمان الأخفش . وكلهم قد أخذ عنه أبو الفرج وأكثروا . وكلهم قد أخذ عنه أبو الفرج بصرف النظر عن مذهبه اللغوي أو مذهبه الديني أو صلته برجال الحكم والسياسة إذ لم يكن من هم أبي الفرج إلا الجمع والاستقصاء والتوسع في الرواية وعرض وجهات النظر المختلفة التي تبصر القاريء بالحقيقة وتجعله في أمن من التصديق في سهولة ويسر الأمر الذي ينكره العلم ويحذر منه العلماء .

ومواد هؤلاء الدراسية تكاد تكون واحدة في مجلتها ويصورها هذا النص من ياقوت (كان أبو بكر الأنباري يملئ كتبه المصنفة ومجالسه المشتملة على الحديث والتفسير والأخبار والأشعار^(١)) . فقد كانت هذه هي المواد التي يدرسها هؤلاء وإن وقع الاختلاف في أجزاء هذه المواد أحياناً أو في أمورها التفصيلية من حيث الألوان الأدبية والتاريخية . . . إلخ .

وأما كن الدراسة والمساجد والدور . أما المساجد فقد كانت من نصيب ابن الأنباري فقد كان يملئ في ناحية من المسجد وأبوه في ناحية أخرى^(٢) . وقد كان المسجد الذي يملئ فيه يسمى باسمه واسم أبيه إذ كان يعرف بمسجد الأنباريين وذلك هو الواضح من حديث ابن التديم عن إبراهيم بن عرفة نفيطويه فلقد كان هو الآخر من الذين يتخذون من المساجد

(١) ١٨/٣٠٨ معجم الأدباء . ط . رفاعي

(٢) ٣٠٧ المصدر السابق

بمجالسهم العلمية^(١). وليس ذلك بالامر الغريب فلقد كانت سنة العصر أن أن تسمى المساجد باسم من يقوم بالتدريس فيها من الشيوخ لغويين ومحدثين ومؤرخين^(٢).

وطريقة أبي بكر وطريقة نفطويه هي الإملاء . الإملاء من مكتوب أو من محفوظ الأمر الذي اشتهر وعرف عن ابن الأنباري^(٣) فقد كان يملئ من غير دفتر ولا كتاب لأنه كان فيما يقولون في نهاية الذكاء والفطنة وجودة القريحة وسرعة الحفظ .

وأما الدور فقد كانت نصيب ابن دريد من هؤلاء الأشياخ فقد كان الطلاب يذهبون إلى منزله للقراءة عليه أو النقل من كتبه^(٤). كما هو الواضح من حديث السيرافي عنه ويظهر أن السبب في ذلك إنما يرجع إلى أن ابن دريد كان من الخلعاء المستهترين^(٥).

وطرق التدريس هذه وأما كن الدراسة لهما آثارهما الواضحة في مرويات أبي الفرج لا سيما في كتاب الأغاني فنحن نرى أخذه يكثر عن قوم وبقل عن آخرين . نراه يكثر حيث يكون القراءة من السكتب وحيث يكون المكان هو دار الأستاذ في الغالب ونراه يقل حين تكون الطريقة هي الإملاء وحين يكون الشيخ من الذين يعقدون مجالسهم العلمية في المساجد . ومن هنا نرى أخذ أبي الفرج الأصمهاني عن إبراهيم نفطويه وعن محمد بن القاسم الأنباري من القلة بحيث لا يقاس إلى ما أخذه أبو الفرج عن كل من محمد بن العباس اليزيدي وعلى بن سليمان الأخفش وبحيث لا يقارب ما أخذه أبو الفرج عن كل من ابن دريد وابن أبي الأزر . أنه يكاد لا يضارع ما أخذه

(١) ١٢١ فهرست لابن النديم . ط . مصر

(٢) ١٨/٦١ ، ٦٠ معجم الأدباء . (٣) ١١٢ فهرست لابن النديم .

(٤) ١٧/٨٧ معجم الأدباء . ط . رفاعي (٥) ١٨/١٣٠ المصدر السابق

عن محمد بن جعفر الصيدلاني وعبد الله بن مالك عن لم يشتهر شهرة ابن
الأنباري ولم يجلس مجلسه من المسجد .

لقد كان أبو الفرج يقرأ على الأولين أو يكتب عنهما كتباً بتمامها ومن
هنا نراه يقرأ على علي بن سليمان الأخفش كتاب المقاتلين ^(١) . ويقرأ على
محمد بن العباس اليزيدي أخبار أبي كده ونسبه وديوان شعره ^(٢) . كما يقرأ
عليهما كتاب النقائض ^(٣) .

كما نراه يأخذ أخبار بعض الشعراء عنهما إلا في القليل النادر ومن ذلك
أخبار إسماعيل بن عمار وأخبار الوليد بن طريف وأخبار الهجاء بين جرير
والفرزدق وأيام العرب .

ولعل محمد بن يزيد بن أبي الأزهر هو الشخص الوحيد من بين هؤلاء
الذي انفرد برواية كتاب إسحاق الموصلي في الغناء . أخذه عن حماد بن
إسحاق ^(٤) . وأخذه أبو الفرج عنه . ولا يروى ابن أبي الأزهر عن غير
حماد إلا في القليل النادر .

هؤلاء هم شيوخ أبي الفرج من اللغويين البغداديين وهذه هي الطرق
التي قام عليها تدريسهم والتي أفاد منها أبو الفرج كما أفاد غيره من الطلاب
وهذه هي الأماكن التي اتخذوا منها مجالسهم العلمية وهي المجالس التي كان
يؤمها أبو الفرج كما كان يؤمها غيره من الطلاب . وإذا كان لابد من وقفات
عند بعض المميزات الخاصة التي قد نرى آثارها في حياة أبي الفرج فهي
هذه الميزات .

أولاً - الروح العلمية عند ابن الأنباري وهي روح خلقية قبل كل شيء .

(٢) ١٠/١٠٥ المصدر السابق

(٤) ٣/٢٨٨ تاريخ بغداد

(١) ٢/٣٥ أغاني . ساني .

(٣) المصدر السابق

وبعد كل شيء وطابعها الحرص على الحقيقة والنزول عند حكمها حتى ولو كان هذا النزول على حساب الأساتذة وفي صالح الطلاب . حكى أبو الحسن الدارقطني أنه حضر مجلس إملائه في يوم الجمعة فصحف إسماء أورده في إسناد حديث ... قال الدارقطني فأعظمت أن يحمل عن مثله في فضله وجلالته وهم وهبت أن أوقفه على ذلك فلما فرغ من إملائه تقدمت إليه فذكرت له وهم وعرفته صواب القول فيه وانصرفت ثم حضرت الجمعة الثانية مجلسه فقال أبو بكر البستمي عرف جماعة الحاضرين أنا صحفنا الإسم الفلاني لما أملينا حديث كذا في الجمعة الماضية ونبهنا ذلك الشاب على الصواب وهو كذا وعرف ذلك الشاب أننا رجعنا إلى الأصل فوجدناه كما قال (١) .

ثانياً - الروح العلمية عند اليزيدي وهي أيضاً روح خلقية وطابعها التثبت قبل التقبل أو كما يقول أبو الفرج عنه . « كان فاضلاً عالماً ثقة فيما يرويه منقطع القرين في الصدق وشدة التوقي فيما ينقله » (٢) . ذلك لأن هذه الروح هي التي تخلق العلماء وهي التي تجدد نشاط العلم وهي التي تدفع الإنسان إلى الوقوف طويلاً قبل أن يستجيب .

ثالثاً - ذلك السلوك الخاص لابن دريد وهو السلوك الذي يقوم على شرب الخمر والحرص على الطرب والغناء ومحبة المرد من الغلمان . قال أبو هلال أخبرنا أبو أحمد قال كنا في مجلس ابن دريد وكان يتضجر من يخطيء في قراءته فحضر غلام وضى فجعل يقرأ ويكثر الخطأ وابن دريد صابر عليه فتعجب أهل المجلس فقال رجل منهم لا تعجبوا فان في وجهه غفران ذنوبه وقال بعضهم في مجلس ابن دريد .

(١) ٣٠٨ ، ١٨/٣٠٩ معجم الأديباء . باقوت .

(٢) ١٨/٢٣ أغاني . سامي .

من يكن للظباء طالب صيد فعليه بمجلس ابن دريد
 إن فيه لأوجها قيدتني عن طلاب العلا بأوثق قيد^(١)
 ويظهر أنه من هذا المسلك الخاص كانت صلة جمجمة البرمكي بابن دريد
 قوية^(٢) . وجحظه كما نعلم هو الأستاذ الصديق بالنسبة إلى أبي الفرج وكل
 منهما يسلك هذا المسلك ويجرى في هذا الميدان .

رابعاً - بعض العادات القبيحة عند إبراهيم بن محمد عرفة المعروف
 بنفطويه فقد كان قدراً وسخاً يفرط به الصنان ولا يأبه لشيء من ذلك حتى
 ولو تأذى الجلساء وأظهروا له ذلك^(٣) .

ونستطيع الآن أن ننقل إلى نوع آخر من المدارس يختلف عن
 النوع السابق في كثير من الصفات ذلك هو مدارس المغنين والندماء
 والجلساء .

ومدارس هذا النوع من التعليم هي رحبات الدور والقصور . قصور
 الخلفاء والوزراء ودور الأغنياء ومن اليهم من الأغنياء والموسرين . أو
 دور من اتخذت ربة القيان والغلمان وتربية المغنين والمغنيات له مهنة وصناعة
 ولعل هذا الحديث المروى عن ابن حبيب يصور لنا هذا النوع الأخير .
 جاء في الأغاني . قال ابن حبيب كان في السكوفة صاحب قيان يقال له
 ابن رامين قدمها من الحجاز فكان من يسمع الغناء ويشرب التبنذ يأتونه
 ويقيمون عنده مثل يحيى بن زياد الحارثي وشراعه بن الزند ومطيع بن أبياس
 وعبد الله بن العباس المفتون وعون العبادي الحيري ومحمد بن الأشعث
 الزهرى المغنى وكان نازلاً في بني أسد في جيران اسماعيل بن عمار فكان
 اسماعيل يغشاه ويشرب عنده ثم انتقل من جواره إلى بني عائذ فكان
 اسماعيل يزوره هناك على مشقة لبعدهما بينهما . وكان لابن رامين جوار
 يقال له ن سلامة الزرقاء وسعده وريجه وكن من أحسن الناس غناء^(٤) .

(١) ١٣٩ ، ١٨/١٤٠ معجم الأدباء . ط . رفاعي (٢) ١٣٦ المصدر السابق

(٣) ١/٢٦٧ المصدر السابق (٤) ١٠/١٢٨ أغاني . ساسي .

وثقافة أبي الفرج الغنائية واضحة من اهتمامه بهذا اللون الفني وتأليفه فيه أكثر من كتاب فله فيما نعلم كتاب مجرد الأغاني وقد ذكره هو في المقدمة^(١) وله هذا الكتاب الكبير كما أن له رسائل أخرى في النغم وعللها وفي مسائل الأصابع وقد بسط هو كما يقول هذه المسائل بسطاً لا تحتاج بعده إلى مزيد من العناية^(٢).

وثقافة أبي الفرج الغنائية تستمد وجودها من كتب كثيرة قرأها وألم بما فيها وذكرها هو في مواطن كثيرة من كتابه الأغاني الكبير وليس بنا من حاجة إلى الحديث عن هذه الكتب الآن فانما وقفنا لتحدث عن الأساتذة الذين ربوه والمواطن التي ألم بها أول عهده بالثقافة الغنائية يوم أن لم يكن يستطيع الاعتماد على نفسه وعلى ما يقرأ من كتاب.

والدور التي نعتقد أن أبا الفرج كان يلم بها ليثقف شيئاً من هذا الفن الغنائي وأخباره كثيرة فيما نعتقد. منها دور نستطيع الوقوف عليها من الأحاديث العارضة التي تجيء في ثنايا الكلام ومنها أخرى نستطيع أن نصل إليها من صلته بأصحابها وأخذه عنهم. فنستطيع مثلاً أن نقول أن أبا الفرج قد أخذ فن الغناء عن حرمي بن أبي العلام لأننا نراه يأخذ عنه أخباراً كثيرة في كتابة الأغاني ولأننا نراه يصفه بأنه من أكابر المغنين حين يتحدث عن المعتضد وماله من صنعة غنائية وذلك حيث يقول (وكان المعتضد بالله رحمة الله عليه ربما كان أراد أن يضع في بعض الأشعار غناء وبحضرته أكابر المغنين مثل القاسم بن زرور وأحمد بن المسكي ومن دونهما مثل أحمد ابن أبي العلام وطبقتهم فيعدل عنهم...) (٣) كما يصفه المعتضد بالحسن في الغناء أيضاً في حديث آخر من أحاديث الأغاني. (أخبرني محمد بن إبراهيم قريش قال حدثني أحمد بن أبي العلام المغني قال غنيت المعتضد صوتاً في شعر له ثم ابتعته بشعر الوليد بن يزيد.

(١) ١/٢ المصدر السابق

(٣) ٨/٤٢ المصدر السابق

(٢) ٥/٥٠، ٩/٤٧، أغاني . ساسي .

كِلَلَانِي تَوْجَانِي وَبَشْعَرِي غَنِيَانِي

فَقَالَ أَحْسَنُ وَاللَّهِ هَكَذَا تَقُولُ الْمُلُوكُ الْمُتَرْفُونَ وَهَكَذَا يَطْرِبُونَ . . .
أَحْسَنْتُ يَا أَحْمَدُ الْإِخْتِيَارَ لَمَّا شَاكَلَ الْحَالَ وَأَحْسَنْتُ الْغَنَاءَ أَعَدُّ
فَاعِدَتَهُ . . . الخ (١).

وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَقُولَ أَنَّ أَبَا الْفَرَجِ قَدْ أَخَذَ أَيْضاً عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْقَاسِمِ
ابْنَ زُرْزُورٍ وَأَنَّهُ لِيُحَدِّثَنَا أَنَّهُ كَانَ يَسْمَعُهُ وَهُوَ يَغْنَى بَعْضَ الْأَصْوَاتِ سَمِعْتُ
إِبْرَاهِيمَ ابْنَ الْقَاسِمِ ابْنَ زُرْزُورٍ يَغْنِيهِ فَسَكَانٌ مِنْ أَحْسَنِ مَا صَنَعَ فِي هَذَا
الصَّوْتِ . . . الخ (٢).

وَكَذَلِكَ كَانَ أَبُو الْفَرَجِ يَسْمَعُ غَنَاءَ أَبِي عَيْسَى بْنِ الْمُتَوَكَّلِ (كَانَ عَبْدَ اللَّهِ
بْنَ الْمُتَوَكَّلِ جَمَعَ لَهُ صِنْعَةٌ مَقْدَارُهَا أَكْثَرُ مِنْ ثَلَاثِمِائَةِ صَوْتٍ مِنْهَا الْجَيِّدُ الصَّنْعَةُ
وَمِنْهَا الْمُتَوَسُّطُ قَدْ سَمِعْنَا كَثِيراً مِنْهَا . . . الخ (٣).

وَيُحَدِّثُنَا أَبُو الْفَرَجِ أَيْضاً عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى الْمُسَكِّيِّ عَلَى أَنَّهُ مِنْ
الْبَارِعِينَ فِي فَنِّ الْغَنَاءِ وَأَنَّهُ قَدْ أَدْرَكَ مِنْ أَخْذِ عَنْهُ (وَلَقِيَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِنَا
وَأَخَذَ عَنْهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَدْرَكَنَاهُ مِنْ عَجَائِزِ الْمَغْنِيَّاتِ مِنْهُمْ قُرْبَى الْعَمْرِيَّةِ
وَكَانَتْ أُمٌّ وَلَدَ عَمْرٍو بْنِ بَانِهِ وَمِنْ أَدْرَكَهُ مِنْ أَصْحَابِنَا جَمِيعَةٌ وَكَتَبْنَا عَنْهُ عَنْ
ابْنِ الْمُسَكِّيِّ هَذَا حِكَايَاتٍ حَسَنَةً . . . (٤) ، وَنَفْهَمُ نَحْنُ مِنْ هَذَا أَنَّ أَبَا الْفَرَجِ
قَدْ أَخَذَ عَنْ عَجَائِزِ الْمَغْنِيَّاتِ اللَّاتِي مِنْهُمْ قُرْبَى هَذِهِ .

وَدَارَ أُخْرَى كَانَ يَلُمُّ بِهَا أَبُو الْفَرَجِ لِأَخْذِهِ عَنْ صَاحِبِهَا الْعِلْمَ وَالْمَعْرِفَةَ
وَيَكْتُبُ عَنْهُ الْأَخْبَارَ وَالْأَشْعَارَ تِلْكَ هِيَ دَارُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عَرَفَةَ وَيَذَكِّرُنَا
الزُّبَيْدِيُّ فِي طَبَقَاتِهِ عِنْدَ تَرْجُمَتِهِ لِابْنِ الْأَنْبَارِيِّ أَنَّ قَدْ كَانَ لِنَفْطُويِهِ جَوَارُ
يَجِدْنَ الْغَنَاءَ وَمِنْهُمْ وَاحِدَةٌ عَرَفَتْ بِقَارْنِهِ الْأَلْحَانَ . (٥) وَنَذْهَبُ نَحْنُ لَمَّا
نَعْرِفُ مِنْ صَلَاتِ أَبِي الْفَرَجِ بِنَفْطُويِهِ وَمِنْ أَخْذِهِ عَنْهُ الْأَدَبَ وَالْأَخْبَارَ
أَنَّهُ قَدْ كَانَ يَأْخُذُ عَنْ دَارِهِ أَيْضاً الْأَصْوَاتَ وَالْأَلْحَانَ .

وَالدُّورُ الَّتِي يَحْسُنُ بِنَا أَنْ نَقِفَ عِنْدَهَا طَوِيلًا هِيَ دُورُ آلِ الْمُنْجَمِ وَدَارِ

(١) ٨٥ المصدر السابق ، ٩/٣٣ الأغاني أيضاً (٢) ٩/١٩ المصدر السابق

(٣) ٩٩ أغاني . سامي (٤) ٦/١٦ المصدر السابق

(٥) ١١١ ، ١١٢ . طبقات الزبيدي . مصورة دار السكتب .

أحمد بن جعفر جحظه وذلك لأننا نعتقد أن هذه كانت هي الدور التي تثقف فيها أبو الفرج وأخذ عن أهلها كثيراً .

وأما آل المنجم فصلة أبي الفرج بهم قديمة ترجع إلى أول عهده ببغداد فقد روى عن يحيى بن علي المتوفى سنة ثلاثمائة . وروى عنه الأصوات المائة ووقف إلى جانبه حين اختلفت روايته عن رواية جحظه في الأصوات الثلاثة المختارة^(١)

وآل المنجم معروفون بهذه الثقافة الغنائية يحكى ذلك عنهم جحظه الأستاذ والصدى لأبي الفرج فهو يقول : حدثني رذاذ غلام المتوكل قال شهدت على بن يحيى المنجم وقد أمره المتوكل أن يغنيه وكنت جالساً إلى جانبه فقال لي قد وقعت وأن تمنعت جدني حتى أغني ثم لا يكون له موقع والمبادرة إلى أمره وسرعة الطاعة له أصوب اضرب على فضربت عليه وغنى^(٢)

ويذهب جحظه إلى أبعد من هذا فيروى لنا أن علي بن يحيى المنجم هذا قد أخرج سير الخلفاء على شاكلة لم يسبقه إليها أحد قبله^(٣) .

ودور آل المنجم هي الموطن الذي يلزمه من يريدون حفظاً من هذه الثقافة الغنائية ويصور لنا ما كان يجري فيها لعهد أبي الفرج هذا الحديث من صاحب بن عباد ، وتوفرت على عشرة فضلاء البلد فأول من كارتني أولاد المنجم لفضل أبي الحسن علي بن هارون وغازته واستكشاري من روايته وطيب سماعه ولذيذ عشرته فسمعت منه أخباراً عجيبة وحكايات غريبة ومن ستارته أصواتاً نادرة مشنفة مقرطقة يقول في كل منها الشعر

(١) ١ / ٦ الأغاني : سامي .

(٢) ١٥ / ١٦٣ المصدر السابق

(٣) ١٤ / ١٠٩ الأغاني سامي .

لفلان والصنعة لفلان أخذته هذه عن فلان أو فلانة حتى يتصل النسب بإسحاق أو غيره من أبناء جنسه (١) .

ويظهر أن الحال لم تستمر حسنة فيما بين أبي الفرج وبين هذه الأسرة فنحن نشعر من عنوان ذلك الكتاب الذي عارض به علي بن هارون كتاب أبي الفرج والفرق والمعيان بين الأوغاد والأحرار ، قسوة واحساساً بالقطيعة وأن يكن مصدر ذلك فيما نعتقد أبو الفرج نفسه فقد سمي علي ابن هارون كتابه ، كتاب اللفظ المحيط بنقض ما لفظ به اللقيط (٢) . وليس بعد هذين العنوانين من دليل .

أما جحظه فهو بالنسبة إلى أبي الفرج الأستاذ والصدیق وصلة أبي الفرج به واضحة كل الوضوح حتى لقد ألف كتاباً في أخباره (٣) . وأبو الفرج يقرأ عليه في الثقافة الغنائية كتاب أبي حشيشة (٤) وأبو حشيشة هذا هو الأستاذ الذي أخذ عنه جحظه فيما يحكى عنه ابن النديم (٥) وهو أحد الرواة الذين يروى عنهم الأصوات المائة والأصوات الثلاثة المختارة من هذه المائة كما كان الأستاذ الذي يابجأ إليه أبو الفرج كلما أشكلت عليه الأمور (٦) ولسنا بحاجة إلى أن ندلل على أنه قد قرأ عليه كتابه الخاص بالطنبوريين والطنبوريات فذلك أمر واضح لسكل من قرأ الأغاني .

والصورة التي كان يجري عليها العمل في دار جحظه هي تلك الصورة التي تقطر الدعابة من جوانبها والتي يحكيها لنا غرس النعمة حين يقول (. . .) كان جحظه لما أسن يفسو في مجالسه فيلق من يعاشره منه جهداً . قال الحسين بن العباس وكنت أحب غنائه والكتابة عنه لما عنده من الآداب وكان يستطيب عشتري وكنت إذا جلست عنده أخذته غلبة الريح

(١) ١١٦ / ١٥ معجم الأدباء : ط . رفاعي

(٢) ٢٠٧ ، ١٦٧ الفهرست لابن النديم

(٣) ٢٧٨ / ٢ يتيمة الدهر لثعالبی . ط . دمشق .

(٤) ١٥ / ١٣٨ أغاني . ساسی

(٥) ٢٠٨ الفهرست لابن النديم

(٦) ١١ / ٣٢ أغاني . بولاق

لجنته يوماً في مجلس الأدب والناس عنده وهو يملئ فلما خفوا قال لي ولاخر
كان معي أجلسا عندي حتى أقعدكما على أسود وأطعمكما طباهاجة بكبود
وأسقيكما من معتقة اليهود وأبحركما بعنبر وعود أطيب من الندود وأغنيكما
غناء المشدود . فقلت هذا موضع السجود . وجلسنا وصديقي لا يعرف
خلقه في الفساد وأنا قد أخذت الريح فوق فوفي لنا بجميع ما ذكره وقال
لنا وقد غنى وشررنا نحن بالغداة علماء وبالعشى في صورة المخنكرين . فلما
أخذ النبيذ منه أخذ يفسو وصديقي يغمزني ويتعجب فأقول له إن ذلك
عادته وخلقه وأن سبيله أن يحتمل إلى أن غنى صوتاً من الشعر والصنعة له
فيه وكان يجيده .

إن بالحيرة قسا قد مجر . فتن الرهبان فيها وافتن

ترك الانجيل حيناً للصبا . ورأى الدنيا بجونا فزكن

قال فطرب عليه صديقي طرباً شديداً واستحسنه كثيراً وأراد أن يقول
له أحسنت والله يا أبا الحسن . فقال له ما في نفسه يتردد من أمر الفساد .
أفس على يا أبا الحسن كيف شئت فحجل جحظه وخجل الفتى وانصرفنا (١)
ولعل الأمر الذي يجب أن نلتفت إليه هو أن هذا اللون من الثقافة
لا يكون إلا حيث يكون القصص وحيث تكون الخلاعة والمجون . ومن
يدري فلعل أبا الفرج وقد أهتم بهذا اللون الفني كان يذهب إلى الحانات
ليشرب ويطرب وإلى الأديرة لتسكون الفتنة والعبث وهل يصادق جحظه
ويتخذ منه الأستاذ دون أن يناله خير أو شر هذه الحياة .

لقد كتب أبو الفرج في أخبار جحظه ونقل عنه النقلة من الرواة فصوروا
لنا حياته في منزله (٢) . وصوروا لنا حياته في الأديرة (٣) . وصوروا لنا
حياته عند الأصدقاء (٤) . وهي حياة كلها اللهو والعبث وكلها الدعابة والمجون .

(١) ٢/٢٥٦ ، ٢٥٧ معجم الأدباء (٢) ٤/٦٦ تاريخ بغداد

(٣) ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦١ المجلد الرابع . معجم البلدان . دير العناري

(٤) ٢٦٤ ، ٢٦٥ / ٢ معجم الأدباء

وتحدث عنه ابن النديم فقال : أبو الحسن أحمد بن جعفر بن موسى بن خالد ابن برمك شاعر مغن مطبوع في الشعر حاذق بصناعة غناء الطنبور . . . وكان مع ما وصفناه به بعيداً عن أدب النفس وكان وسعياً وفي دينه بعض العهدة بل العهدة كلها ^(١) . وهل يكون الطالب الصديق إلا صورة تقريبه من أستاذه ؟

ويبقى بعد ذلك ببغداد بيئات ثقافية أخرى لا يخلوا حالها من أن تجري على سنة اللغويين في الاملاء أو في قراءة الطالب على الشيخ وتلك هي بيئات السكتاب والاختاريين والشعراء وهي البيئات التي يصح أن نسميها بالبيئات المتنقلة ذلك لأن الناس يأخذون عنهم أينما وجدوا يأخذون عنهم في دكاكين الوراقين يأخذون عنهم في الدواوين يأخذون عنهم في دورهم وشيوخ أبي الفرج من هؤلاء كثيرون جداً نذكر منهم على سبيل المثال : أبا الحسن الأسدي ومحمد بن يحيى الصولي وقدامة بن جعفر والحسن بن علي الخفاف والحسن بن علي الوشاء والحسن بن علي الأزمي والطوسي وحرى ابن أبي العلاء وأحمد بن عبيد الله بن عمار وابن الرومي واسماعيل بن يونس الشيعي والحسين بن يحيى والحسين بن قاسم السكوكي وعلي بن صالح بن الهيثم الأنباري وعيسى بن الحسين الوراق ومحمد بن خلف بن المرزبان ومحمد ابن خلف وكيع ومحمد بن جرير الطبري وكثير غيرهم .

والصورة التي كان يأخذها أبو الفرج عنهم هي الصورة التي يمثلها هذا النص الذي يصور فيه أبو الفرج كيف كان يروي عن بعضهم . حدثني جماعة من الرواة منهم . . . ممن كتبت الشيء عنه من أخباره متفرقا أو رواه لي مجتمعاً ^(٢) .

ويظهر لنا أن صحبة أبي الفرج للشيوخ لم تتضح إلا مع جحظه لأن هذا كان صديقه ولأن أبا الفرج كان قليل الرواية كما قص علينا ابن النديم

وكما سنرى فى الباب الثالث إن شاء الله . وليس من شك فى أن الاعتماد على السكتب لا يدع الشخص يحرص على صحبة الأحياء . ولعله يجعله يبحث عن مثله الأعلى فى واحد من أصحاب هذه السكتب وهو الذى رأيناه من أبى الفرج حين أوضحنا أن أساتذته الحقيقين كانوا من بين الأموات . كانوا إسحاق الموصلى وعبد الله بن المعتز . ولعل السر فى هذا لاسيما فى بيئة تسكثر فيها العناصر المختلفة المتنازعة كبغداد أن الصور التى يرسمها الخيال للأموات الناهمين تكون أكمل وأجمل وأكثر نفوذاً وأقوى إيماء من تلك التى يرسمها الواقع . وهل عبدت الانسانية إلا الصور التى يرسمها أو يخترعها الخيال .

نترك الآن أبو الفرج الطالب لنتعرف على أبى الفرج الشيخ أو الرجل وسنختار من حياة أبى الفرج الجوانب التى تؤثر فى حياته العلمية وفى مروياته بصفة خاصة تلك الجوانب التى تحضه على الاستقامة أو تدفعه إلى الانحراف . ونبدأ من ذلك بالجانب المادى .

الفضيلة الرابع

الحياة المادية

في وقفة من تلك الوقفات التي يحاول أبو الفرج أن يعرف فيها بالشعراء نراه يقول (وعرف منصور النمرى ، مذهب الرشيد في الشعر وإرادته أن يصل مدحه إياه بنى الإمامة عن ولد على بن أبي طالب عليهم السلام والظعن عليهم وعلم مغزاه في ذلك بما كان يبالغه من تقديم مروان ابن أبي حفصة وتفضيله إياه على الشعراء في الجوائز فسلك مذهب مروان في ذلك ونحنا نحوه ولم يصرح بالهجم والسب كما كان يفعل مروان ولكنه حام ولم يقع وأوما ولم يحقق لأنه كان يتشيع وكان مروان شديد العداوة لآل أبي طالب وكان ينطق عن نية قوية يقصد بها طلب الدنيا فلا يبق ولا يذر (١) . وهو قول يدفعنا إلى أن ننتبه إلى كثير من المسائل حينما نحاول درس الآثار الفنية أو العلمية ذلك لأنه القول الذي يصور لنا محاولة المنتج أو الأديب لإرضاء الممدوح بتجسس رغباته ومعرفة مذهبه والجرى على ما يرضيه حتى يكون القبول الحسن وحتى تكون الجوائز السنية . ثم لأنه القول الذي يصور لنا ما قد يقع فيه الأديب من مأزق ومضايق حينما تكون هذه الرغبات متعارضة أو متباينة مع ما يؤمن به من قيم وكيف أنه يلف ويدور لينال الرضا دون أن يتورط في المسكروه . ثم لأنه أخيراً القول الذي يصور لنا أن الفنان إنما يبدع حينما يصدر عن احساس قوى وعاطفة جياشة وأنه من هنا حام منصور ولم يقع وأوما ولم يحقق بينما مروان لم يبق ولم يذر وليس ذلك إلا لأن الأول زج بنفسه في مضايق

يفنما الثاني كان يصدر عن نية قوية يقصد بها طلب الدنيا .

وفى وقفة من هذه الوقفات التي يعرف فيها ياقوت بالعلماء نراه يروى في حق شيخ أبي الفرج محمد بن جرير الطبري هذه القصص (وكان إذا أهدى إليه مهد هدية مما يمكنه المسكافاة عليه قبلها وكافأه وإن كانت مما لا يمكنه المسكافاة عليه ردها واعتذر إلى مهديها . ووجه إليه أبو الهيثم بن حمدان ثلاثة آلاف دينار فلما نظر إليها عجب منها ثم قال لا أقبل مالا أقدر على المسكافاة عنه ومن أين لي ما أكفي عن هذا . فقيل ما لهذا مكافأة إنما أراد التقرب إلى الله عز وجل فأبى أن يقبله ورده إليه .

وقال أبو الطيب القاسم بن أحمد بن الشاعر وسليمان بن الخاقاني ، أهدى أبو علي محمد بن عبيد الله الوزير إلى أبي جعفر محمد بن جرير رمانا فقبله وفرقه في جيرانه فلما كان بعد أيام وجه إليه بن نيل فيه بدره فيها عشرة آلاف درهم وكتب معها رقعة وسأله أن يقبلها قال سليمان فدخلت وأوصلت إليه الرقعة فقال يغفر الله لنا وله اقرأ عليه السلام وقل له أرددنا إلى الرمان وامتنع عن قبول الدراهم فقلت له فرقه في أصحابك على من يحتاج إليها ولا تردها فقال هو أعرف بالناس إذا أراد ذلك ^(١) . وهي نصوص تشير مع غيرها إلى أن ابن جرير الطبري كان يعمل جاهداً على أن يحول بين الصلات والهبات وبين علمه حتى تسلم له نفسه ويسلم له تفكيره وينشد الحقيقة خالصة لوجه الله وليس يعنيه أن يكون المهدي وزيراً أو واحداً من الطلاب ^(٢) .

ونحن لم نقف هنا إلا لتقنين أمثال هذه العلاقات المادية من حياة أبي الفرج وتبيين إلى أي حد كان يتأثر فنه وعلمه بهذه العلاقات فهل كان يصنع صنيع أستاذه أو كان يصنع صنيع من وصف هو من الشعراء ؟ .
إن الإجابة تتطلب منا بحث موارد الرزق ومصادر المال من حياة أبي الفرج وبحث العلاقة بين هذه المصادر وبين ما ينتجه الرجل من علم وفن .

(١) ٨٧ ، ٨٨ / ١٨ معجم الأدباء ط . رفاعي (٢) ٨٧ المصدر السابق

وقبل أن نتحدث عن هذه الموارد نذكر مظهر الحياة المادية عند أبي الفرج في تلك الفترة التي كان يعيش فيها عضواً عاملاً في المجتمع البغدادي . كان أبو الفرج يسكن داراً تقع على دجلة في المكان المتوسط بين درب سليمان ودرب دجلة ودرب سليمان هذا هو الدرب الذي ينسب إلى سليمان ابن جعفر بن أبي جعفر المنصور وهو بالجانب الغربي من بغداد وقد كان يقابل الجسر ويقرب منه في أيام المهدي والهادي والرشيد . وكان قصر سليمان يقع في هذا الدرب قبالة رأس الجسر ^(١) . ومن هنا سمي بإسمه . وقد كانت دار أبي الفرج تلاصق دار أبي الفتح البريدي ^(٢) . الأمر الذي أشرنا إليه عند حديثنا عن العداوة التي كانت بين البريديين وأبي الفرج .

وكان أبو الفرج يملك هذا المنزل وقد أشار إلى ذلك عند وصفه لفترة من الزمن قضاها بالبصرة في أخريات عمره حيث زارها وهم بمغادرتها إلى حصن مهدي فقد كتب على حائط الخان الذي كان ينزله قصيدة منها هذه الآيات التي تصور هذا البيت وتصور إلى جانبه أبا الفرج في شيء من الغنى واليسر وفي شيء من اللهو والسرور . قال رحمه الله :

بدلت من بعد الغنى حاجة إلى كلاب يلبسون الفرا
أصبح آدم السوق لي مأكلاً وصار خبز البيت خبز الشرا
وبعد ملكي منزلاً مبهجاً سكنت بيتاً من بيوت السكرى
فكيف ألغى لاهياً ضاحكاً وكيف أحظى بلذيق السكرى ^(٣)

وكان لأبي الفرج غلام يتوفر على خدمته ^(٤) . الأمر الذي لا يكون إلا للقادرين على الإنفاق على الغلمة كما كان يستضيف الناس لفترات قد تطول حتى تسكون الشهور ^(٥) .

(١) ٧٢ أقسام شائعه من كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء . ط . بغداد سنة ١٩٤٨ م

(٢) ٣٢ المصدر السابق . جمع ميخائيل عواد (٣) ١٣/١١٦ معجم الأدباء

(٤) ١٠٤ المصدر السابق

(٥) ١٢٠ ، ١٢١ المصدر السابق

كان أبو الفرج إذاً في شيء من السعة واليسر وكان أصدقاؤه من العلماء والكتاب من أمثال الصابي والأنباري وأبي العلاء صاعد يزورونه في هذه الدار لقضاء حققة وتعريف خبره والإقامة لحظات^(١). الأمر الذي يدل على أنه لم يكن في فقر وإملاق. وإذا فن أين يجيء أبو الفرج بالمال الذي يمكن من مثل هذه المعيشة ويسر سبل الإنفاق.

إن موارد الرزق عند أبي الفرج إنما تنبع فيما نرى من هذه الجهات . أولاً — أجور الطلاب الذين يأخذون عنه إما بالقراءة عليه من كتبه وإما بما يملئ عليهم من أخبار وأشعار وهي أجور لا نستطيع أن ندعي أنا نعلم مقدارها فأنما نتصور فقط أن ذلك هو الذي يحدث في ميدان الأدب والأخبار وأن هذا عند الأدباء والأخباريين باب من أبواب الرزق ومورد من موارد المال ولقد روى أبو الفرج خبراً يذكر فيه أن ابن أبي عبيدة كان يملئ شعر كثير بثلاثين ديناراً^(٢). وليس أبو الفرج اللاهي العايب بالشيخ الذي يرفض أخذ الأجور من الطلاب .

وطلاب أبي الفرج فيما يحكى الخطيب البغدادي : الدار قطني وأبو إسحاق الطبري وإبراهيم بن مخلد ومحمد بن أبي الفوارس ويذكر الخطيب أنه حدث عنه عن علي بن أحمد الرزاز وأبي علي بن دوما ويعلق على هذا الأخير بقوله ولم يكن سماع ابن دوما منه صحيحاً^(٣).

والرايون لسكتاب مقاتل الطالبيين من طلاب أبي الفرج هم أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن محمد الطبري وعبد الله بن الحسين بن محمد الفارسي وهم الذين وصلتنا النسخة المقررة عليهما^(٤).

والقارئون على أبي الفرج كتاب الأغاني ممن وقفنا على أسمائهم هم على ابن إبراهيم الدهكي^(٥) وأبو الحسين علي بن محمد بن عبد الرحيم بن دينار

(١) ١٣/١٠٤ معجم الأدباء . ط. رفاعي

(٢) ٨/٢٦ الأغاني . ساسي (٣) ١١/٣٩٩ تاريخ بغداد للخطيب

(٤) ٣ مقاتل الطالبيين (٥) ١٢/٢١٧، ٢١٦ معجم الأدباء

الكاتب^(١). وقد ذكر ياقوت أنه قد وصلت إليه أجازة متصلة عن الأول .
ويذكر ياقوت أنه قد كان من الذين رووا عن أبي الفرج أبو الحسن محمد بن
أحمد بن محمد المغربي راوية المتنبي وأحد أئمة الأدب في وقته^(٢) .

ولن نستطيع أن ندعى في هذا المقام أن هذه الأجور قلت أو كثرت
كانت ذات أثر على هذه المرويات من حيث صدقها وصحتها أو عدم ذلك .
ولا من حيث اختيار الموضوعات واختيار المواد التي تقوم عليها هذه
الموضوعات فانما كان أبو الفرج يملئ كتاب المقاتل ويقرأ عليه الطلاب كتاب
الآغاني وذلك كله قد كان فيما نرى — وكما هو الواضح من مقدمات هذه
الكتب ومن أحاديث الرواة الذين رووا الكتاب الأول أو قرأوا عليه
الكتاب الثاني — بعد الفراغ منها والانتها من اختيار موضوعاتها وجمع
موادها ومن هنا نستطيع أن نعد هذه الأجور موردا من موارد الرزق
ولا نستطيع أن نعدّها عاملا مؤثرا أو عاملا من العوامل التي تدعو الراوية
إلى الانحراف . اللهم إلا إذا قلنا أن أبا الفرج كان يملئ المقاتل على الشيعيين
وأنه من هنا كان يخشى ما يستثير عواطف الطلاب نحو آل علي أو آل أبي
طالب ولكن ذلك نفسه قد يؤذى أبا الفرج الشيعي قبل أن يؤذى الطلاب
ومن هنا نشعر أن أبا الفرج كان يملئ ما يراه هو بعاطفته المذهبية الشيعية
الحق والصواب ولو بالنسبة إلى آل علي ويكون العامل المؤثر في مثل هذه
الحالة تشيع أبي الفرج وإن اتفق وما يرغب فيه الطلاب .

وقبل أن نترك هذه المسألة نشير إلى أن هناك من طلاب أبي الفرج من
قدم من الأندلس لطلب العلم ومن كان أبو الفرج يعظمه ويكرمه^(٣) .

ثانيا — الكتب : وكتب أبي الفرج مورد من موارد الرزق ، بل هي
مصدر من مصادر الثروة إن صح ما يقوله ابن خلدون^(٤) . وما يرويه

(١) ١٤/٢٤٨ المصدر السابق .

(٢) ١٧/١٢٨ المصدر السابق .

(٣) ١٣/١٢ معجم الأدباء .

(٤) ٤/١٤٦ ابن خلدون .

صاحب نفح الطيب^(١) من أن الحكم المستنصر قد أرسل في طلب نسخة من كتاب الأغاني وأنه أرسل إلى أبي الفرج فيها ألف دينار من الذهب العين . وكتب أبي الفرج التي ألفها كثيرة كتب بعضها للرؤساء والحاكمين وكتب بعضها آخر للقراء والاملاء وكتب بعضها ثالثا لشفاء نفسه مما تجد وللكيد لبعض الأقران من أمثال هارون بن المنجم ذلك الذي كتب فيه كتاب صفة هارون وكتاب الفرق والمعيار بين الأوغاد والأحرار^(٢) . ولن نستطيع أن ندعى أن هذه السكتب جميعها كانت موردا من موارد الرزق وحسبنا أن نعلم إنه كتب بعضها للوزير المهلبى وقد كان يعيش في كنفه وذلك ككتاب مناجيب الخصيان^(٣) . وأن تعلم ما يقوله بعض المؤرخين من أنه حصل له بيلاد الأندلس كتب صنفها لبنى أمية ملوك الأندلس وكان يسيرها إليهم سرا وجاءه الإنعام سرا^(٤) .

حسبنا أن نعرف هذا لننتقل إلى أمر يعيننا في هذا الموقف ولعله من أجله عقدنا هذه الفقرة ذلك هو موقف أبي الفرج بين الضمير العلمى الذى هو ضمير خلقى قبل كل شيء وبعد كل شيء وبين رغبات الحاكمين أو من بأيديهم حق المنح والحرمان من الاغنياء الموسرين . فهل كان أبو الفرج يتحسس رغبات هؤلاء المانحين ويعمل على إرضائها أو على أقل تقدير لا يعمل على إغضاها أو كان يعرض عن كل هذا فى سبيل الحق والحق قبل كل شيء وبعد كل شيء ؟

أن الإجابة عن هذا السؤال ليست سهلة ولا يسيرة ما دمنا لم نقف على جميع كتب أبي الفرج وما دمنا لم نعرف جميع الرؤساء الذين ألف من أجلهم كتبه وأهداها إليهم فى السر أو فى العلن . ولكنها ليست مستحيلة ما دمنا نعرف العناوين والاسماء من هذه السكتب . أن هذه العناوين تحمل بين ثناياها موضوعات هذه السكتب واختيار هذه الموضوعات خيط نمسك

(١) ١/١٨٠ نفح الطيب . (٢) ١٦٧ الفهرست لابن النديم .

(٣) ١٣/١٠٠ معجم الأدباء

(٤) لوحة ٢٧٦ تاريخ الاسلام للذهبي . مصورة رقم ٤٢ تاريخ . دار السكتب .

به لنقف على مذهب أبي الفرج في تحسس أو عدم تحسس رغبات هؤلاء المانحين .

ما الكتب التي ألفها أبو الفرج وأبقاها بالمشرق ؟ وما الكتب التي ألفها أبو الفرج وبعث بها إلى ملوك الأندلس وجاءه عليها الإناعام في السر فيما يقال ؟

يجيب الخطيب البغدادي عن هذا السؤال فيقول : وصنف كتباً كثيرة منها الأغاني الكبير ومقاتل الطالبيين وأخبار الأماة الشواعر وكتاب الحانات وكتاب الديارات وآداب الغرباء وغير ذلك فهذه تأليفه التي وقعت إلينا . وجعل له ببلاد الأندلس مصنفات لم تقع إلينا منها كتاب نسب بني عبد شمس وكتاب أيام العرب ذكر فيه ألفاً وسبعمائة يوم وكتاب التعديل والانصاف في مآثر العرب ومثالبها وكتاب جمهرة النسب وكتاب نسب بني شيان وكتاب نسب المهالبة ونسب بني تغلب ونسب بني كلاب وكتاب القيان وكتاب الغلمان والمغنين وكتاب مجرد الأغاني (١) .

وقبل البدء بالحديث عن هذه الكتب وعن دلالة عناوينها أو موضوعاتها على مذهب أبي الفرج في تحسس الرغبات أو عدم تحسسها نصحح وضعاً نعتقد أن قد أخطأ فيه الخطيب ذلك أن هذه الكتب التي تخص القيان والغلمان والأغاني قد كتبها أبو الفرج وأخرجها بالمشرق ووقعت في يد الثعالبي والثعالبي فيما نعلم أقرب عهداً إلى أبي الفرج من الخطيب فقد ولد وصاحبنا حتى يرزق .

أن نظرة فاحصة إلى قوائم الكتب وتوزيعها بين المشرق والمغرب تدلنا على أن أبا الفرج قد كان يرسل إلى المغرب أخبار الحياة الجادة غير العابثة . وإنه قد كان يخرج بالمشرق أخبار الحياة الداعرة الفاجرة وليس من بأس في أن نعلل هذا الصنيع وأن نجعل من علله أن أبا الفرج كان يتحسس رغبات المانحين والمنعمين .

لقد كان المهلبى ومن على شاكلته من البيئة البغدادية يحبون كل ما هو داعر فاجر ومن هنا نفقت بضاعة أبى الفرج اللاهية عندهم ومن هنا أعرض ذوو الجد من الأدباء عن هذا المهلبى الذى لا يعرف من الحياة إلا العبث والمجون . تحدث أبو القاسم عبد الله بن عبد الرحيم الأصفهاني فى كتابه إيضاح المشكل لشعر المتنبي قال : فلما حصل المتنبي ببغداد نزل ربض حميد فركب إلى المهلبى فأذن له فدخل وجلس إلى جانبه وصاعد خليفته دونه وأبو الفرج الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني . . وانتظر المهلبى إنشاده فلم يفعل وإنما صده ما سمعه من تماديه فى السخف واستهتاره بالهزل واستيلاء أهل الخلاعة والسخافة عليه وكان المتنبي مر النفس صعب الشكيمة جادا مجدا ففرج . فلما كان اليوم الثالث . . الخ (١) .

ولقد كان المستنصر صاحب جد وصاحب ميل شديد إلى الكتب يبعث فى شرائها إلى الأقطار رجالا من التجار ويرسل إليهم الأموال حتى جلب من هذه الكتب إلى الاندلس ما لم يعده أهلها وكان الذى يقيم على هذه العملية زميل لأبى الفرج فى أيام الطلب هو أبو على القالى . ولن يرضى القالى من الأخبار إلا كل ما هو جاد رزين (٢) .

لقد كان أبو الفرج من الذين يتحسسون رغبات البيئة الخاصة أو رغبات المنعمين فى اختيار موضوعات كتبه وفى اختيار المواد التى تؤلف هذه الموضوعات وهو أمر يجب أن نقتن إليه وإلى بعض آثاره عند تقديرنا لأبى الفرج الراوى ولقيمة مروياته فى الميدان العلمى وفى الميدان الفنى ليكون لنا صدق النظرة فى التقدير .

ثالثا — ومورد ثالث من موارد الرزق عند أبى الفرج هو أجره فقد كان أبو الفرج كاتباً وبهذه الحرفة يصفه جميع المؤرخين من أمثال أبى نعيم والخطيب البغدادى والذهبي وغيرهم . ويظهر أنه كان كاتباً فى ديوان الوزير

(١) راجع خزانه الأدب ٢٨٢ — ٣٨٩ ج ١ الطبعة الأولى .

(٢) راجع تاريخ المستنصر ج ٤ ص ١٤٦ وما حوالها من تاريخ ابن خلدون

أبي محمد المهلبى فإنهم يقولون أن المهلبى كان يختاره فى كل شىء مريح وأن صحبته له كانت قبل الوزارة وبعدها إلى أن فرق بينهما الموت (١) وقد كان أبو الفرج أيضا نديما ونديما للوزير المهلبى بالذات ومن هنا نميل إلى أنه كان يأخذ رزق الندماء كما هى العادات المتبعة فى ذلك الحين وأن ابن النديم ليقص علينا أن من الناس من كان له رزق فى الندماء ورزق فى الفقهاء ورزق فى العلماء (٢).

وأرزاقي أبو الفرج من هذه الحرف إنما تجيئه من أبي محمد المهلبى وكان المهلبى هذا دنيا أبي الفرج فى ظله يرعى وفى كنفه يعيش وكان المهلبى هذا هو الشخص الذى قد فرض على أبي الفرج أن يسمع بأذنه ويصر بعينه ويقص من الأخبار والنوادر ما يريد .

لقد كان أبو الفرج نديما ومهنة الندماء تفرض عليهم أن يقصوا من الأخبار ما يلقى السامع ويغرب الحاضرين وهل يستطيع أبو الفرج أن يقص فى مجالس اللهو والطرب إلا ما يتفق والكاس والطاس وإلا ما يلذ الشاربين؟ ومرة ثانية نحس أن مزاج المهلبى وصحبه هو الذى يتحكم فى قصص أبي الفرج وأخباره وهو الذى يملأ ألوانا بعينها تتلامم والتيار السلوكى الذى يسود هذه الجماعة التى كان من أعضائها قضاة الشرع وحملات كتاب الله الكريم . ولعل هذا التسلط يظهر أكثر وأكثر حينما نعرف أن الجوائز التى تمنح لأبي الفرج الشاعر إنما كانت تصدر هى أيضا عن هؤلاء الذين يصاحبهم المهلبى من أمثال القاضى التنوخى وعنه هو بصفة خاصة وهذا هو الأمر الذى نص عليه صاحب القيمة حين قال : وكان منقطعا إلى المهلبى الوزير كثير المدح له مختصا به (٣) . ويظهر أن المهلبى كان يمنح أبا الفرج عن سعة فى المنح حتى ليقول صاحب نشوار المحاضرة رواية عن أبيه : ورأيت أنه أنا غير مرة قد وهب للجحنى وأبي الفرج الأصفهاني خمسة آلاف دينار (٤) .

(٢) ٩٠ الفهرست. ط. مصر

(١) ١٣/١٠٥ معجم الأدباء

(٤) ١/٤٢ نشوة المحاضرة. ط. هندية .

(٣) ٢/٣٧٨ القيمة. ط. دمشق

وشعر أبي الفرج يصور لنا هذه الحالات . وإنا لشعر أن أبا الفرج يريد في شعره أن يحمل الوزير المهلب كل تكاليف الحياة .

يقول أبو الفرج مرة يستميج المهلبى :

فداؤك نفسى هذا الشتا • علينا بسلطانه قد هجم
ولم يبق من نشبي درهم ولا من ثيابي إلا رمم
يؤثر فيها نسيم الهوا • ونخرقها خافيات الوهم
وأنت العباد ونحن العفا • وأنت الرئيس ونحن الخدم^(١)

وغير هذه كثير^(٢) مما يدل على أن المهلبى ببغداد كان دنيا أبي الفرج . وإذا كان من مذهب الرجل أن يرضى المانحين وإذا كان من حظ الندماء العمل على قص ما يرضى الشرب كان علينا أن نفسر عوامل الاختيار في كتب أبي الفرج بالاجواء التي تحيط بالرجل . ولم تكن إلا جو المهلبى بعد أن التقيا واصطحبا .

هذه هي الحياة المادية عند أبي الفرج مظهرها ومصادرها . وهذا هو مذهب الرجل في الربط بين العلم والمال وإنه كان يتحسس رغبات المانحين ويعمل على إرضائهم . يجب أن تكون على ذكر منها في كل خطوة نخطوها عند تقديرنا لأبي الفرج الراوية .

(١) ٢/٢٨٠ القيمة .

(٢) ١٣٥ ، ١٣٦ / ١٣ معجم الأدباء . ط . رفاعى

الفضل الخامس الحياة الاعتقادية والمذهبية

في نص من نصوص ابن النديم وعند حديثه عن محمد بن يحيى الصولى نجد هذا الخبر ، وتوفى مستقرا بالبصرة لأنه روى خبرا في على عليه السلام فطلبته الخاصة والعامة لقتله (١) .

وفي نص من نصوص مسكويه وعند حديثه عن أحداث سنة عشر وثلاثمائة نجد هذا الخبر ، وفيها توفى محمد بن جرير الطبرى له نحو تسعين سنة ودفن ليلا لأن العامة اجتمعت ومنعت من دفنه نهارا وادعت عليه الرضى ثم ادعت عليه الإلحاد (٢) .

هذان الخبران لما قيمتهما من حيث تصويرهما لبعض حالات الضغط التي يعانيها العلماء وهو ضغط قد يقع من الحاكم كما يقع من المجتمع ولهما قيمتهما في هذا الموقف بالذات لأن هذه الأحداث إنما أملت بشيخين من شيوخ أبي الفرج وأملت بهما في وقت لم تسكن الدولة قد اعترفت فيه بعد لا بحق الفرد في التفكير وإعلان رأيه في صراحة فذلك حق لم يمانعه فيه مانع ولم يعترض عليه فيه معترض بل بحقه في الحماية حمايته من الغوغاء وحمايته ممن يثيرون عليه الغوغاء من حاكين أو محكومين فلم تسكن حقوق الإنسان قد قررت ومن هنا كان الأمر موكولا إلى العلماء إن شاءوا أعلنوا آراءهم في حرية وصراحة وعليهم وحدهم تقع التبعة وإن شاءوا لفوا وداروا أو نافقوا وتملقوا .

هذان الشيخان وابن جرير منهما بصفة خاصة من طراز فريد في بابة فهو رجل يؤمن بحقه في الحرية ولا يريد أن يجعل لأحد عليه من سبيل . رجل يباعد بين علمه وبين سلطان المادة ويباعد بين علمه وبين سلطان الحاكم

(١) ٢١٥ الفهرست لابن النديم . (٢) ٨٤/٥ تجارب الأمم . التمدن سنة ١٩١٤م

أو ضغط المجتمع وهو رجل يكفى نفسه بنفسه يحييه رزقه من ماله الخاص ومن هنا كان يملئ ما يريد ومن هنا كان له مذهبه الخاص وله الكثيرون من الأنصار والأعوان^(١). ويظهر أن ابن جرير كان في صراع دائم. صراع لحقه من الحنابلة منذ أن حضر إلى بغداد^(٢). وظل هذا الصراع يلاحقه إلى أن حضرته الوفاة.

ونحن لا نريد في هذا الموقف أكثر من أن نقين موقف أبى الفرج من أمثال هذه الأزمات لنقدر أثرها في مروياته ولنعلم في يقين إلى أى حد كان ينحرف هذا الرواية عن الطريق المستقيم. وسنقصر حديثنا في هذه الفقرة عن لونين من الأزمات. اللون الدينى. واللون السياسى. ولسنا في حاجة إلى أن ندل على الأسباب التى دفعتنا إلى أن نجتمع بينهما في فقرة فكلنا يعلم أن الدين لم يكن قد انفصل بعد عن الدولة. وكلنا يعلم أن المبادئ السياسية أو المبادئ الاقتصادية لم تسكن قد انفردت بعد بالميدان تصدر عنها النظم ويحتكم إليها الحاكمون والمحكومون حين يزول النظام وتضطرب الجماعة أو حين يؤذن الحال بالانقلابات والثورات.

كان الدين كل شيء وكانت القيم الاجتماعية على اختلاف ألوانها من سياسية واقتصادية وخلقية تصدر عنه أو تربط نفسها به وكان الثائرون من أفراد المجتمع وكان المستبدون من الحكام إنما يصدرون في كل هذا عن أفكار وآراء يعلنون ويؤكدون في الاعلان أنها من الدين وأنها ما يريده الشارع الحكيم ومن هنا كان منا الربط بين اللونين وكان جمعنا بينهما في فقرة واحدة.

كان أبو الفرج من الشيعة والتشييع مذهب دينى وسياسى في وقت معا وكان أبو الفرج من الشيعة الزيدية ينص على ذلك المؤرخون من أمثال

الطوسي^(١) وصاحب الذريعة^(٢) كما يذكر ذلك أبو الفرج نفسه حين يقول متغزلا .

أنت ياذا الخيال في الـ وجنة مما بي خالي
لا تبالي بي ولا تحـ طرني منك ييال
لا ولا تفكر في حا لي وقد تعرف حالي
أنا في الناس أما مـ ي وفي حبك^(٣) غالي

هذا التشيع من أبي الفرج أو بعبارة أدل على المراد من أموى كان مبعث الدهشة والاستغراب ومثار النقد والتعليق فإن الأثير يذكر عنه وهو يقص أحداث سنة ست وخمسين وثلاثمائة ما يلي : وفيها توفي أبو الفرج على بن الحسين بن محمد بن أحمد الأصم في الأموى وهو من ولد محمد بن مروان بن الحكم الأموى وكان شيعيا وهذا من العجب^(٤) . وصاحب روضات الجنات يقول ، وأياما وجد في كلماته من المديح ففيه أولا أنه غير صريح . ولو سلم فهو محمول على قصده التقرب إلى أبواب ملوك ذلك العصر المظهرين لولاية أهل البيت غالبا والطمع في جوائزهم العظيمة بالنسبة إلى مادحيهم كما هو شأن كثير من شعراء ذلك الزمان فإن الإنسان عبيد الاحسان . مع أنى تصفحت كتاب أغانيه المذكور اجمالا فلم أرفيه إلا هزلا أو ضلالا أو بقصص أصحاب الملامى اشتغالا وعن علوم أهل بيت الرسالة اعتزالا وهو فيما ينيف على ثمانين ألف بيت تقريبا . مصافا إلى كون الرجل من الشجرة الملعونة في القرآن وداخلها في سلسلة بنى أمية وآل مروان فكيف يمكن وجود رجل من أهالى الإيمان في قوم توجه إلى قاطبتهم الألعان على أى لسان ومن أى إنسان^(٥) .

(١) ٣٧٩ الفهرست للطوسي . ط . كلكنا سنة ١٨٥٣ م

(٢) ٢٤٩ الذريعة إلى تصانيف الشيعة . ط . النجف سنة ١٣٥٦ هـ

(٣) ٢/٢٨٣ البتية . ط . دمشق .

(٤) ٨/٢٠٩ ابن الأثير

(٥) ٤٧٨ روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات . ط . المعجم سنة ١٢٨٧ هـ

ونحن لا يحق لنا أن نستغرب تشيع أبي الفرج فضلاً عن استنكاره لاسمها بعد أن علمنا أنه قد ورث هذا التشيع عن أسرة أمه وأن هذه الأسرة كانت من الرافضة أو من الزيدية كما كان أبو الفرج وأنها استهدفت للاضطهاد بسبب هذه المذاهب وبعد أن عرفنا أن هذا الميل الموروث قد قوى واشتد بفعل عاملين مهمين : أولهما تلك الصداقة التي قامت بين الأعداء القدماء من العلويين والامويين وذلك بسبب الموقف الذي تقفه كل أسرة منهما من خلفاء بني العباس وقد كان محمد بن أحمد الأصماني جد أبي الفرج قطباً من الأقطاب الذين يزورهم العلويون ويتناقشون في مسائلهم أو في مواقفهم في بيته كما سبق أن ذكرنا .

وثانها تلك التربة الكوفية التي قام عليها رجال من الشيعة بل رجال من غلاة الشيعة كأحمد بن محمد بن سعيد عقده . ذلك الذي كان يملئ في مثالب الصحابة .^(١)

لا يحق لنا أن نستغرب وأن نستنكر وإنما يحق لنا فقط أن نبحت عن مدى إيمان أبي الفرج بهذا المذهب فهل كان هذا الإيمان قويا عنيقا بحيث يدفع أبا الفرج إلى الاستهداف في سبيله مهما ينل من أذى الخلفاء والحكام أو كان ضعيفا بحيث لا يدفع أبا الفرج إلى أي شيء . وليس له من الإيمان بهذا المذهب إلا الاسم فقط ؟

إن الإجابة عن هذه المسألة من الضرورة بحيث لا يمكننا تفسير مرويات أبي الفرج لاسمها في كتابه المقاتل إلا بعد الوقوف عليها . ذلك لأنها التي ستكشف لنا عن موقف أبي الفرج كشفاً يفسر لنا ما في هذه المرويات من ميل أو انحراف عن الجادة .

ولقد ألف أبو الفرج كتاب المقاتل وهو كتاب قد صدر عن نزعة

شيعة ما في ذلك ريب . ولقد روى أبو الفرج عن الطالبين أخباراً في كتاب الأغاني كما روى عن المتشيعين كثيراً من الأخبار بل يذهب الطوسي إلى ما هو أبعد من هذا فيذكر لنا أن أبا الفرج قد ألف كتاب ما نزل من القرآن في أمير المؤمنين وأهل بيته عليهم السلام . كما ألف كتاباً آخر فيه كلام فاطمة عليها السلام في فذلك ^(١) . وهذه كتب شيعة بموضوعاتها ولا تصدر إلا عن نزعة شيعة كما هو الواضح ولسكننا مع كل هذا نخشى أن نخدع حين نمضي من غير أن نعرف مدى تلك العواطف التي يكنها أبو الفرج للتشيع وللتشيعيين أو بعبارة أخرى دون أن نعرف هل كان أبو الفرج يصدر في ذلك عن تدين أو عن علم بالدين ، ذلك لأننا نعرف أن هناك فرقا واضحا بين المتدين وبين العالم بالدين وأن الذي يؤلف في المسائل الدينية إنما يصدر أولا وقبل كل شيء عن علم ومعرفة عن عقل ضابط وذاكرة واعية عن بصر بمسائل الدين وقضاياها وليس من اللازم أن يصدر عن عاطفة قوية وعن قلب يخفق لعقيدة دينية تكون هي الفصل في التفرقة بين الحق والباطل وتكون هي المتحكمة في كل ما يصدر عنه من قول أو عمل وليس يضيره عند ذلك أن يستثير الجماعة أو يغضب الحاكمين مادام قد صدر عن هذه العاطفة وقد أَرْضَى هذا الضمير الديني .

التدين عاطفة قوية نحو المعاني الدينية والعلم بالدين علم بمسائله وقضاياها وهو أمر قد فطنت إليه العامة يوم أن جعلت إبليس أعلم العالمين . إن التدين أو أن هذه العواطف القوية هي التي يقدر تأثيرها يوم أن يكتب صاحبها في المسائل التي تخص هذا الدين أو تخص هذا المذهب من الدين ذلك لأنها قد تدفع المؤلف إلى إخفاء أو إعلان أو إلى تزييد أو نقصان كما تدفعه إلى أن ينساق فيجري وراء المرويات التي تجمي عن أبناء هذا المذهب أو هذا الدين فيختارها على غيرها ويفضلها عن سواها لأنه يراها

بعين العقيدة ويقدرها بضمير المحب المنقاد .

لكن هذه العواطف التي يخشى تأثيرها قد تعود فيحمد نفعها ذلك لأنها السياج القوى الذي يحمي الحقيقة من عبث العابثين أو كيد الكائدين وتدفع صاحبها إلى الصمود في وجه الجماهير .

علينا أن نتبين موقف أبي الفرج بوضوح لنقدر مروياته في حذر وبقظة وفي عدل وإنصاف .

لم يكن أبو الفرج بالرجل المتزمت وإنما كان من اللاهين العابثين ذلك هو الأمر الذي يدل عليه شعره ويدل عليه نثره ويفسره صحبته للقوم الماجنين .

كان أبو الفرج يشرب الخمر ويحب الغلمان ويحيا حياة المستهترين ويصف مجالسه تلك شعراً مرة ونثراً أخرى فيقول من أبيات له :

وبكر شربناها على الورد بكرة فكانت لنا ورداً إلى ضحوة الغد
إذا قام مبيض اللباس يديرها توهمته يسعى بكم مورد^(١)

ويصور حالة من حالاته مع بعض الغلمان وكان قد عتب عليه أمراً أدى إلى ما يشبه القطيعة ثم لعبت الظروف لعبتها وذهب الغلام إلى أبي الفرج في منزله وذلك حيث يقول : فأنا على غفلة إذ دخل في خف وإزار وكادت مرارتي تنفطر فرحاً فلقيته أقبل رجله وهو يضحك ويقول يأتبها رزقها وهي نائمة هذا يا حبيبي بخت من لا يصوم ولا يصلي في الحقيقة إلى أن يقول :

بت وبات الحبيب ندما في من بعد نأى وطول هجران
نشرب قفصية معتقة بحانة الشط منذ أزمان
وكلنا دارت الكؤوس لنا أثنى فاه ثم غفاني
الحمد لله لا شريك له أطاعني الدهر بعد عصيان^(٢)

(١) ٢/٢٨١ البيتية . دمشق

(٢) ١١٢-١٣/١٢١ معجم الأدباء . رفاعي

ويضيق أبو الفرج برمضان لأنه يمنعه عن اللهو والعبث وعمما يستتبعه اللهو والعبث من شراب فيقول :

وقد جاء شوال فسالت نعامه —

— صيام وأبدلنا النعيم من الضر

وضجت حديدس الدن من طول حبسها

ولامت على طول التجنب والهجر^(١)

أبو الفرج على ما يظهر غير متحفظ وأبو الفرج فيما رأينا مستهتر ومن هنا لا تجبئه الأزمات إلا عفواً واقتداراً أن قدر للأزمات أن تجيء ذلك لأن العواطف القوية هي المحرك في مثل هذه الأمور وهي التي تدفع صاحبها إلى ألا يخشى غضب الحاكم أو ثورة الجماهير وأبو الفرج لم يكن من ذلك في شيء ومن هنا خلط حياته من الأزمات وخلط تاريخه من الذكريات .

أبو الفرج صاحب ثقافة شيعية وقف التشيع منه فيما أرى عند حد العقل والذاكرة ومن هنا سخر هو نفسه في بعض الأحيان من الشيعيين . يقول التنوخي . أخبرني أبو الفرج الأصهباني قال : سمعت رجلاً من القطيعة يؤذن الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن علياً ولي الله محمد وعلى خيراً البشر فمن أبي فقد كفر ومن رضى فقد شكر ضرطت هند على ابن عمر حي على الصلاح حي على الفلاح حي على خير العمل الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله^(٢)

وأبو الفرج يملئ عن الحياة الشيعية أول عهده بالإملاء وهو في غض الاهاب فاذا ما كبر كتب في الأغاني وفي الأدب العايت اللاهى أو الماغن المستهتر .

وأبو الفرج يكتب في وقت أخذ فيه نفوذ الشيعيين يقوى وبضخم حتى كان الرؤساء في ذلك الوقت من الشيعيين وحتى أصبحت الدويلات

(١) ١٣٢ ، ١٣٣ المصدر السابق

(٢) ١/١٧٤ نشوار المحاضرة . ط . هندية

ثم الدول فيما بعد تدين بالمذهب الشيعي كما هو الحال بالنسبة للبويهيين والحمدانيين ومن هنا لم يغضب أبو الفرج أحداً ولم يغضب هو من أحد من الرؤساء والحاكمين .

هذا هو موقف أبي الفرج الديني والمذهبي أو موقفه من التشيع والشيعيين أما موقفه من السياسة والسياسيين فيتلخص فيما يلي
لم يكن موقف أبي الفرج من خلفاء بني العباس إلا موقف العداء ولا نعتقد أن أبا الفرج كان يصدر في عدائه هذا عن رأى في الحكم ومذهب في السياسة فلم يكن أبو الفرج من ذلك في شيء وليس أدل على هذا من أنه قد عاصر أخطر الأزمات التي مرت بها الخلافة العباسية وشاهد انحلال الدولة وقيام الدويلات ورأى بعينه كيف ذهبت سلطة الخلفاء وحلت محلها هيئة الأمراء وكيف أن هؤلاء كانوا يفرضون ما يريدون من أمر على خلفاء بني العباس ^(١) .

رأى أبو الفرج بعيني رأسه كل هذا ووعى هذه الأحداث كما وعاها غيره من المعاصرين من أمثال مسكويه مثلاً ولسكنه لم يترك لنا صوراً فنية عن شيء من هذا اللهم إلا تلك الصورة التي رأيناها فيما مضى والتي فسرناها بأنها صورة من صور الكيد للبريدى والنسكية به وليست الصورة التي يراد منها النيل من الراضى لأنه باعتباره من الخلفاء العباسيين الذين يضيق بهم أبو الفرج ولا يرضى عن مسلكهم في الحكم أو مذهبهم في السياسة قد قلد البريدى الوزارة ليستعين به على قضاء مآربه وتنفيذ أغراضه .

أن أبا الفرج إنما يصدر في هذا العداء عن عاملين مهمين عصبية أموية وتشيع علوى أو بعبارة أخرى أخصر وأدق إنما تصدر عن جو عائلي يلقنه هذه العداوة ويث في نفسه شيئاً غير قليل من الكراهية . فقد كان أبو الفرج

أحد أفراد الأسرة الأموية والعداء بين أمية وهاشم قديم ثم جاء الاسلام بأحداثه وكانت مواقف أبي سفيان من النبي عليه السلام وعثمان من علي رضي الله عنهما ثم كانت أحداث معاوية والعلويين وأحداث انحلال الدولة الأموية وقيام الخلافة العباسية وما صاحب هذا القيام من مصادرة الأموال وازهاق للأرواح وظلم واضطهاد ظلت صورة قائمة حتى كان عصر أبي الفرج وكل هذه من الأحداث التي يقصها الآباء على الأبناء والتي يصورونها بالصورة التي تزيد من العداء وتنمي من الكراهية . وقد كان أبو الفرج من أم شيعية تسكره العباسيين الذين يذيقون الطالبين ألوانا من العذاب وصنوفاً من الحبس والقتل ومن هنا نشأ وفي نفسه العداوة والكراهية . ولم يستطع أبو الفرج اظهار هذا العداء في صراحة قوة لأن مركزه ومركز العائلة أضعف من أن يمكنه من هذا الاظهار ومن هنا احتفظ بسرّه وكتّم عواطفه وحال بينها وبين الظهور إلا في الفلتات التي يمثلها حديثه عن ابن الرومي الشاعر عند روايته لقصيدته التي يرثي بها يحيى بن عمر بن الحسين القتيل الطالبى والتي مطلعها .

أمامك فانظر أى نهجيك تنهج طريقان شتى مستقيم وأعوج

فانا نراه يقدم بين يدي هذه القصيدة بقوله عن المرائى التي قبلت في يحيى ، فمنه قول علي بن العباس الرومي يرثيه وهي من مختار مارئى به بل أن قلت أنها عين ذلك والمنظور إليه لم أكن مبعداً لولا أنه أفسدها بأن جاوز الحد وأغرق في النزاع وتعدى المقدار بسبب مواليه من بني العباس وقوله فيهم من الباطل مالا يجوز لأحد أن يقوله (١) .

هذه العاطفة المسكتومة التي لا تستطیع أن تفصح عن نفسها في صراحة وقوة لابد لها من مسارب ولو خفية تكون المتنفس الوحيد لأصحابها ولن نستطيع أن نقطع برأى في هذه المسارب ولا أن نقول أن منها تأليف

أبي الفرج في مقاتل الطالبين وأن منها عنايته بالأخبار العابثة والأحداث
اللاهية من حياة خلفاء بني العباس فان لذلك أسبابا أخرى تقوم إلى جانب
هذه العداوة المسكتومة التي تحاول أن تفصح عن نفسها بهذا اللون من
الأخبار وكل ما نستطيع قوله في هذه المسائل هو أنه يجب علينا أن نكون
حذرين حينما نقرأ أمثال هذه الأخبار وأن نضع نصب أعيننا دائما جواز
أن يكون الدافع لأبي الفرج هو محاولة السكيد للعباسيين من طريق خفي حتى
لا يشعر به القارىء ولا يشعر به المحبون لبني العباس .

وهنا يجب أن نفطن إلى أمر آخر له أثره الخطير في حياة المرويات من
نفس أبي الفرج ثم في التاريخ العام ذلك الأمر هو أن أبا الفرج وقد أحس
في نفسه امتزاجا واثلافا بين الأموية والنشيع أو بين الأمويين والطالبيين
لم ير بأسا في أن يكون هذا من الوقائع التاريخية ومن هنا نراه يروى
من الأخبار ما يؤكد قوة الصلة وحسن الجوار بين الطالبيين والأمويين .
بل يروى ما يحاول أن يثبت به أن الأمويين كانوا أرف وأرحم بالطالبيين
من أبناء عموماتهم خلفاء بني العباس .

يروى أبو الفرج في كتاب المقاتل مرويات عن مروان بن محمد تثبت
حرص هذا الخليفة على ألا ينال عبدالله بن الحسن أو ابنه محمدا أى أذى
من واحد من الولاء (١) كما يروى ما يحاول أن يدل به على أن مروان
هذا كان يعلم أن الأمر ان يكون للطالبيين وإنما سيكون لبني العباس (٢) .

ويروى أبو الفرج في كتاب المقاتل أيضا ما يثبت أن موقف معاوية
بن صفيان من الزيديين والطالبيين كان خيرا من موقف الرشيد منهم فعاوية
أميل إلى العلويين والرشيد أميل إلى اليزيديين (٣) .

ويرى أبو الفرج ما يدل على اعتراف الطالبيين أنفسهم بهذه المسائل .
جاء في الأغاني (وأخبرني أحمد بن محمد بن سعيد وحرى عن الزبير وأخبرني

(١) ٢٥٩ مقاتل الطالبين . ط . مصر (٢) ٢٤٧ ، ٢٥٨ المصدر السابق

(٣) ٤٧٤ ، ٤٧٥ المصدر السابق

الآخفش عن المبرد عن المغيرة بن محمد المهلبى عن الزبير عن سليمان بن عياش السعدى قال : جاء عبدالله بن عمر بن عبدالله العقيل إلى سويقة وهو طريد بنى العباس وذلك بعقب أيام بنى أمية وابتداء خروج ملسكهم إلى بنى العباس فقصده عبدالله والحسن أبناء الحسن بسويقة فاستنشداه عبدالله شيئا من شعره فأنشده فقال له أريد أن تنشدنى شيئا مما رثيت به قومك فأنشده :

تقول أمامة لما رأيت نشوزى عن المضجع الأنفس
وقلة نومي على مضجعى لدى مجمعه الأعين النعس
أبى ما عراك فقلت الهموم منعن أباك فلا تبلى

قال فلما أتى عليها بكى محمد بن عبد الله بن حسن فقال له عمه الحسن بن حسن بن على عليهما السلام أتبكي على بنى أمية وأنت تريد بنى العباس ما تريد فقال والله يا عم لقد كنا نقمنا على بنى أمية ما نقمنا فما بنو العباس إلا أقل خوفا لله منهم وأن الحجة على بنى العباس لأوجب منها عليهم ولقد كانت للقوم أخلاق ومكارم وفواضل ليست لأبى جعفر فوثب حسن وقال أعود بالله من شرك وبعث إلى أبى عدى بخمسين ديناراً . . . (١١)

هذه المرويات وأمثالها لا تقبل عن الشيعة في سهولة ويسر لا سيما أولئك الذين يعتقدون أن أبا الفرج من الشجرة الملعونة في القرآن وأنه من بنى أمية الذين يلعنون في كل مكان وعلى كل لسان ومن هنا يجب أن نحذر عند قراءتنا لأمثال هذه المرويات فمن الحائز أن يكون أبو الفرج قد خدع وأن سبب الخداع أن حالته النفسية وما فيه من عناصر شيعية وأموية هي التي يسرت عليه كل هذا .

وليس لدينا عن موقف أبى الفرج السياسى من حيث اتصاله بما يرويه من أخبار غير ما تقدم ومن هنا نترك الموقف إلى موقف آخر هو .

الحياة الخلقية عند أبى الفرج

(١١) ١٠٠، ١٠١، ١٠/أغانى . ساسى

افصل السادس

الحياة الخلقية

يقول ابن الجوزى فى ترجمته لآبى الفرج ، وكان يتشيع ومثله لا يوثق برواياته فانه يصرح فى كتبه بما يوجب عليه الفسق ويهون شرب الخمر وبما حكى ذلك عن نفسه ،^(١) وهو قول يضع بين آيدنا مسألتين للتفكير فيهما .
الاولى مسألة التيارات الخلقية فى حياة آبى الفرج وما يتبع هذه التيارات من أجواء نفسية أو من أهواء خاصة ونزعات معينة .

الثانية — صلة هذه التيارات بروايات آبى الفرج من حيث الثقة بها والاطمئنان إليها والاعتماد عليها فى ميدان البحث العلمى حينما نحاول تقدير المرويات أو تقويم الآراء .

والتيارات الخلقية من حياة آبى الفرج تنفق وما أجمله صاحب المنتظم ومن هنا لن نختلف وإياه فى شئ لا سيما وقد عرفنا الكثير مما يتصل بهذه التيارات من أن آبا الفرج لم يكن بالمتدين ومن أن الأجواء التى كان يعيش فيها من جو أستاذ وصديقه جحظه إلى جو المهلبى ومن لف لفه من رجال الدين من أمثال القاضى الأيدجى والقاضى التنوخى أولئك الذين يحبون حياتين . ظاهر فيه الطهر والعفاف وباطن فيه الفسق والفجور كانت على مارأينا أجواء فاجرة داعرة وأنها تدفعنا إلى التسليم بأن آبا الفرج كان من الذين يتخلعون ويتهككون من الذين يشربون الخمر ويأتون الذكران من العالمين .

وأبو الفرج فى عرف المؤرخين حديد سريع الغضب بذى اللسان بغضب لا تفقه الأشياء ويضيق من أيسر الأمور ويطلق لسانه فيمن يستشير منه

الغضب حتى ولو كان من أوفى الأوفياء وأخلص الأصدقاء ولذا نراه يهجو
صديقه القاضي الأيدجى لأنه طلب منه عكازه فمنعها عنه . يهجو هجوه أقيح
الهجاء ويرميه بأنذل الصفات يرميه بالآبنة .

اسمع حديثي تسمع قصة عجبا لا شيء أظرف منها تهر القصصا
طلبت عكازة للوحد تحملني ورمتها عند من يخبا العصا فعصا
وكننت أحسبه يهوى عصا عصب ولم أكن خلته ضبا بكل عصا^(١)

كما نراه يسخر من أبي القاسم الجهنى محتسب البصرة لأنه يقص من
الحكايات ويورد من الأخبار المسلية ما هو من المبالغات . فقد ذكر ابن
الصابي أن أبا القاسم الجهنى محتسب البصرة كان من ندماء المهلبى وكان يورد
الطامات من الحكايات المنكرة فجرى مرة حديث النعنع فقال فى البلد الفلانى
يطول حتى يصير شجراً أو يعمل من شجره سلام . فاغتاظ أبو الفرج
الأصبهاني من ذلك وقال نعم عجائب الدنيا كثيرة ولا يدفع مثل هذا وليس
بمستبدع وعندى ما هو أعجب وأغرب وهو زوج حمام راعى بيض فى نيف
وعشرين يوماً بيضتين فأنزعهما من تحته وأضع مكانهما صنجة مائة وصنجة
خمسین فاذا انتهى مدة الحضان تفقست الصنجتان عن طست وأبريق
أو سطل وكرنيب فعمنا الضحك وفطن الجهنى لما قصده أبو الفرج من
الطنز به وانقبض عن كثير مما كان يحكيه^(٢) .

وبذاءة اللسان من أبي الفرج جعلت الناس يتحاشونه ويخشون
لسانه^(٣) وأنهم ليدكرون لنا أنه لم يسلم أحد من هجائه حتى الوزير المهلبى .
فقد ذكر ياقوت ما يلى . وعلى صنع أبي محمد بأبى الفرج ما كان يصنعه فما
خلا من هجوه حيث قال فيه :

أبعين مفتقر إليك رأيتنى بعد الغنى فرميت بى من حالى

(١) ١٣/١٣٤ معجم الأدباء . ط . رفاعى

(٢) لوحة ١٢٧٦ تاريخ الاسلام الكبير للذهبي . مصورة رقم ٤٢ تاريخ دارالكتب .

(٣) المصدر السابق

لست الملووم أنا الملووم لأننى أملت للإحسان غير الخالق^(١)

بل يروى بإقوت من الأخبار ما يفيد أن المهلبى كان يعلم هذه العادة الخلقية من أمر أبى الفرج فقد جاء فى معجم الأدباء ما يلى وحدث أبو الفرج على بن الحسين الأصفهاني قال سكر الوزير أبو محمد المهلبى ليلة ولم يبق بحضرته من ندمائه غيرى فقال لى يا أبا الفرج أنا أعلم أنك تهجونى سرا فأهجنى الساعة جهرأ فقلت الله الله أيها الوزير إن كنت قد ملتئى انقطعت وإن كنت تؤثر قتلى فبالسيف إذا شئت . قال دع ذا لا بد أن تهجونى . وكنت قد سكرت فقلت . . . إلخ^(٢) .

ولعل حدة الطبع وبذاءة اللسان هما السبب فيما يذهب إليه النقاد من أن أبا الفرج كان مجيداً فى فن الهجاء .

وأبو الفرج فى عرف المؤرخين أيضاً من القذارة بمكان فهو وسخ قذر دنس فى نفسه وفى ثيابه^(٣) . ولعله من هنا كان بذىء اللسان لا يتورع عن دنس ولا يتعفف عن مكروه ولعل هذه الصفات قد لازمته منذ الصغر بل لعلها أن تكون أثراً من آثار استأذيه القذرين أحمد بن جعفر جظه وإبراهيم بن محمد عرفه .

وأبو الفرج أيضاً غريب الأطوار والعادات فيما يقص من شأنه صديقه التنوخى فقد قال : ومن ظريف أخبار العادات أنى كنت أرى أبا الفرج على بن الحسين الأصفهاني الكاتب نديم أبى محمد المهلبى صاحب الكتب المصنفة فى الأغاني والقيان وغير ذلك . دائماً إذا ثقل الطعام فى معدته وكان أكو لا نهما يتناول خمسة دراهم فلفلا مدقوقا فلا تؤذيه ولا تدمعه وأراه يأكل حصّة واحدة أو يصطبغ بمرقه قدر فيها حصص فيسرهج بدنه كله من ذلك وبعد ساعة أو ساعتين يفصد وربما فصد لذلك دفعتين وأسأله عن سبب

(١) ١٠٣ ، ١٠٤ / ١٣ معجم الأدباء

(٢) ١٠٨ ، ١٠٩ معجم الأدباء .

(٣) لوحة ٩٠٢٧٦ تاريخ الاسلام للذهبي

ذلك فلا يكون عنده علم منه . . . (١) ولعل لهذه المسألة أثرها في حدة الطبع وسرعة الغضب وعدم ضبط أبي الفرج لنفسه عندما يستثار حتى ولو كان الذي استثاره من أعز الأصدقاء وأوفى الخلطاء من أمثال الجهنى والمهلبى والأيدجى .

وأبو الفرج يصور لنا جوانب من حياته في كتابه آداب الغرباء ولعل فيما نقله ياقوت عن هذا الكتاب ما يكفي لإعطاء فكره عن التيارات الخلقية من حياة أبي الفرج كما رسمها هو ونبدأ من ذلك بحديثه عن ذلك الغلام الذى كان يهواه والذى كان له معه مكاتبات ومعاتبات فأنا نراه يقول : إننى جئت يوم جمعه غدوه فوجدته قد ركب إلى الحلية وكانت عادته أن يركب إليها فى كل يوم ثلاثاء ويوم جمعة فجلست على دكة على دار أبيه فى موضع فسيح كان عمرها وفرشها فسكننا نجلس عليها للحادثة إلى ارتفاع النهار ثم يدخل إذا أقمت عنده إلى حجرة لطيفة كانت مفردة له فيجتمع على الشرب والشطرنج وما أشبهها فطال جلوسى فى ذلك اليوم منتظراً له فأبطأ وتصبح من أجل رهان كان بين فرسين لاختيار فعرض لى لقاء صديق فقمت لأمضى ثم أعود إليه فهجس لى أن كتبت على الحائط الذى كنا نستند إليه هذه الأبيات :

يا من أظل يساب داره ويطول حبسى لانتظاره
وحياة طرفك واحوراره وجمال صدغك فى مداره
لاحلت عمرى عن هواك ولو صليت بحر ناره

وقت فلما عاد قرأ الأبيات وغضب من فعلى لثلا يقف عليه من يحشمه وكان شديد السكتمان لما بينى وبينه ومطالباً بمثل ذلك مراقبة لأبيه إلا أن ظرفه ووكد محبته لى وميله إلى لم يدعه حتى أجاب عنها بما كتب تحتها . ورجعت من ساعى فوجدته فى دار أبيه فاستأذنت عليه فخرج إلى خادم

لهم فقال يقول لك لا التقينا حتى تقف على الجواب عن الآيات فإنه
تحتها فصعدت الدكة فإذا تحت الآيات بخطه . ما هذه الشناعة ؟ ومن فسح
لك في هذه الإذاعة ؟ وما أوجب خروجك عن الطاعة ؟ ولكن أنا جنيت
على نفسي وعلبك ملكتك فطغيت وأطعتك فتعديت وما أحشم أن أقول :
هذا تعرض للأعراض عنك والسلام . فعلمت أنني قد أخطأت وسقطت
شهد الله قوتي وحركتي فأخذتني الندامة والخيرة ثم أذن لي فدخلت فقبلت
يده فنعني . وقلت يا سيدي غلطة غلطتها وهفوة هفوتها فإن لم تتجاوز عنها
وتعف هلكتك فقال لي أنت في أوسع العذر بعد أن لا يكون لها أخت
وعاتبتني على ذلك عتاباً عرفت صحته ولم تمض إلا مد يده حتى قبض على أبيه
وهرب فاحتاج إلى الاستئذان فلم يأمن هو وأهله إلا بكونه عندي فأنا على
غفلة إذ دخل في خف وإزار وكادت مرارتي تنفطر فرحاً فلقبته أقبل رجليه
وهو يضحك وبتنا في تلك الليلة عروسين لا نعقل سكرأ واصطبجنا
وقلت هذه الآيات . . . (١)

وهو قول يدل على شغف أبي الفرج بالغلغان ولعله من أجل ذلك كان
يلم بالآديرة وكان يشهد مجتمعات النصاري وأنا لنراه يصور ذلك أيضاً
حيث يقول :

« وخرجت أنا وأبو الفرج أحمد بن إبراهيم بن علي بن عيسى رحمه الله
ماضيين إلى دير الثعالب للنزهة ومشاهدة اجتماع النصاري هناك والشرب على
نهر يزد جرد الذي يجري على باب هذا الدير ومعه جماعة من أولاد كتاب
النصاري من أحداثهم وإذا بفتاة كأنها الدينار المنقوش تتأيل وتفتني كغصن
الريحان في نسيم الشمال فضربت بيدها إلى يد أبي الفتح وقالت يا سيدي تعال
اقرأ هذا الشعر المسكتوب على حائط هذا الشاهد فضينا معها وبتنا من السرور
بهار بظرفها وملاحة منطقتها ما الله به عليم فلما دخلنا البيت كشفت عن ذراع

كانه الفضة وأومات إلى الموضع . . . وحصلت بينها وبين أبي الفتح عشرة
بعد ذلك ثم خرج إلى الشام وتوفي بها ولا أعرف لها خبراً بعد ذلك^(١) . .
هذه التيارات الخلية التي يرسمها أبو الفرج لنفسه تخلق دائماً جوا نفسياً
معيناً يلذ له أنواع من الأخبار ويطر به ألوان من الأقايص ومن هنا
تسكون الصلة بين التيارات الخلية وبين المرويات . وهنا يجب أن نقف
للتفكير في المسألة الثانية من مسائل صاحب المنتظم وهي عدم الثقة بمرويات
أبي الفرج لأنه يصرح في كتبه بما يوجب عليه الفسق ولأنه يهون شرب
الخمر وأنه ربما حكى ذلك عن نفسه .

هنا قد تختلف مع ابن الجوزي لأننا لا نؤمن بذلك المقياس الذي يقيس
به الرواة ولن تكون سبيلنا إلى الثقة برواة الأدب والأخبار ألا يكونوا
من تحدث عنهم صاحب المنتظم فهذه السبيل إن صلحت عند بعضهم في
رواية الحديث فإنها لا تصلح بحال من الأحوال في الرواية الأدبية ذلك
لأن هؤلاء اللاهين العابثين يكونون أكثر فطنة وأشد حذراً حينما يروون
أخبار الخلاعة والمجون فثقافتهم العلمية وخبرتهم بهذه الأجواء تجعلهم
بأسرارها أدري وأحداثها أخبر ومن هنا تكون قدرتهم على النقد أتم
والثقة بمروياتهم في هذا أكمل . وإذا كان الحديث عن الثقة بالراوي له محله
من الباب الثالث حيث يكون الحديث عن الضبط والعدالة فأنا سننصرف
إلى أمر آخر له صلة به ويتأثر أيضاً بالتيارات الخلية أو بالأهواء والنزعات
ذلك هو اختيار المرويات وتفضيل بعضها عن بعض . فلماذا مثلاً اختار
أبو الفرج الجوانب اللاهية العابثة من حياة الخلفاء ومن حياة المغنين
والشعراء ؟ وهل صدر في ذلك عن هوى ومزاج ورغبة فنية . أو صدر
في ذلك عن أمور أخرى من أمثال السكيد السياسي . أو لأنه هكذا كانت
حياة هؤلاء الناس ؟

إن السكيد السياسي أن يصلح بالنسبة لخلفاء بني العباس فإنه لن يصلح

بالنسبة لخلفاء بني أمية من أمثال الوليد بن يزيد . كما أنه لا يصلح أن يكون التعليل الصادق لاختيار هذه الأخبار اللاهية من حياة الشعراء الشيعة أولئك الذين يتفق أبو الفرج معهم في المذهب السياسي ويحبهم لحبه آل علي .

وأن كل هؤلاء المغنين والشعراء الذين ترجم لهم في كتاب الأغاني وصور لنا هذه الألوان من حياتهم لم يكونوا جميعا من اللاهين العابثين وإنما أبو الفرج هو الذي تتبع هذه الجوانب من حياتهم وحرص عليها لا لأنه يبشر بالبعث ويدعو إلى الفجور وإنما لما ذكره هو في مقدمة كتاب الأغاني من أن ما رتبناه أحلى وأحسن ليسكون القارئ له بانتقاله من خبر إلى غيره ومن قصة إلى سواها ومن أخبار قديمة إلى محدثة ومليك إلى سوقة وجد إلى هزل أشط لقراءته وأشهى لنصفحه فنونه لاسيما والذي ضمنناه إياه أحسن جنسه وصفوه ما ألف في بابيه ولباب ما جمع في معناه^(١) .

أن أبا الفرج قد قصد إلى الهزل لعوامل نفسية وفنية وأنه لم يقصد إليه لأنه الحقيقة التاريخية فلقد قص أبو الفرج من المصنوعات والأكاذيب قصصا وأخبارا ودل هو نفسه على بعضها وبريء من العهدة في بعضها الآخر ولم يفعل هذا إلا لأنه قصد إلى الرواية ولم يقصد إلى التاريخ وأنه قصد للرواية للامتناع والموانسة واختار من المرويات ما يجعل الخبر ألد وأمتع والقصة أشهى وأحلى ليكون السمر اللذيذ ولتكون الندوة الفرحة المرحية . ومع هنا كانت أقاصيص اللهو والغرام وكانت أحاديث الكتاب والشعراء من الغلمان وكان بعضها واضح الدعابة خفيف الظل . حدث أبو الفرج قال أخبرني محمد بن خلف بن المرزبان قال حدثنا أحمد بن الهيثم ابن فراس قال حدثني العمري عن الهيثم بن عدي وأخبرني به ابن أبي الأزرهر عن حماد عن أبيه عن الهيثم بن عدي أن رجلا أنشد مصعب بن الزبير قول جميل .

ما أنس لا أنس منها نظرة سلفت بالحجر يوم جلتهما أم منظور فقال لوددت أني عرفت كيف جلتهما فقليل له أن أم منظور هذه حية . فكتب في حملها إليه مكرمة . فحملت إليه فقال لها أخبريني عن قول جميل . ما أنس لا أنس منها نظرة سلفت بالحجر يوم جلتهما أم منظور كيف كانت هذه الجلوة ؟ قالت ألبستها قلادة بلح ومخنقة بلح واسطتها تفاحه وضفرت شعرها وجعلت في فرقها شيئا من الخلوف ومر بنا جميل راكبا على ناقته فجعل ينظر إليها بمؤخر عينه ويلتفت إليها حتى غاب عنا . فقال لها مصعب فاني أقسم عليك ألا جلوت عائشة بنت طلحة مثل ما جلوت بثينة . ففعلت . وركب مصعب ناقته وأقبل عليهما وجعل ينظر إلى عائشة بمؤخر عينه ويسير حتى غاب عنهما ثم رجع ^(١) .

وحدث أيضا قال : أخبرني عمي رحمه الله قال قال لي محمد بن موسى بن الحسين بن الفرات الكاتب كان سعيد بن حميد يهوى غلاما له من أولاد الموالى فغاب عنه مدة ثم جاءه مسلما فقال له غبت عنى هذه المدة ثم تجئني فلا تقم عندي . فقال له قد أمسينا . فقال تبيت . قال لا والله لا أقدر ولم يزل به حتى اتفقا على أنه إذا سمع آذان العتمة انصرف فقال له قد رضيت ووضع النيز فجعل سعيد يحث السقي بالأرطال فلما قرب وقت العتمة أخذ رقعة فكتب فيها إلى أمام المسجد وهو مؤذنه قوله :

قل لداعى الفراق آخر قليلا قد قضينا حق الصلاة طويلا
آخر الوقت فى الآذان وقدم بعدها الوقت بكرة وأصيلا
فتراعى حق الفتوة فينا وتعافى من أن تكون ثقيلًا

فلما قرأ المؤذن الرقعة ضحك وكتب إليه يخلف أنه لا يؤذن ليلته تلك العتمة وجعل الفتى ينتظر الآذان حتى أمسى وسمع صوت الحارس فعلم أنها حيلة وقعت عليه وبات فى موضعه ^(٢) .

(١) ٨٣ ، ٧/٨٤ ، أغاني . سامي

(٢) ١٧/٣ المصدر السابق .

إنما قصد أبو الفرج من الأخبار إلى الرواية الأمر الذي سيزداد وضوحاً عند حديثنا عن أبي الفرج وهل هو من الرواة أو من المؤرخين في الفصل الأول من الباب الثالث إن شاء الله .

والآن نستطيع أن نقول أن مزاج أبي الفرج ومزاج الذين يحيطون به من ندماء المهلب قد وضع في اختيار بعض الجوانب من حيوات بعض الشعراء والمغنين والخلفاء وأن هذه الجوانب ما كانت إلا الخليعة الماجنة لتوافق هوى هؤلاء وتدخل السرور على أنفسهم وتكون مادة سمرهم وأحاديثهم ولعلها بذلك تصور أحلامهم أكثر مما تصور واقعهم وترضى خيالهم أكثر مما ترضى عقولهم . لعلها أن تكون للتنفيس لا للحقيقة والتاريخ وعند ذلك تكون قد أدت للإنسانية البغدادية خدمات جلى لأنها قد خففت بعض آلام المعذبين .

وقبل أن نترك الحديث عن هذه التيارات الخلقية نشير إشارة بحملة إلى أن أهواء أبي الفرج نحو الأشخاص لها نفس الأثر الذي شعرنا به لأهوائه نحو هذه الألوان الخليعة من الحياة فأهوائه نحو استحق الموصلى جعلته يعرض عن قول إبراهيم بن المهدي فيه ونحو ابن المعتز جعلته يضيق بخصومه ويقف ليدافع عنه دفاعاً حاراً ونحو أبي تمام جعلته يضيق بابن مبرويه ونحو آل ثوابه جعلته يضيق بالبحترى أو بفن الهجاء عنده .

أن الأهواء الشخصية لأبي الفرج يجب أن تتحسس عند قراءة مروياته كما تتحسس الأهواء الدينية والسياسية ويبحث عنهما كما يبحث عن أثر المادة والمال فكلها عوامل مؤثرة وبينه الأثر واضحة المعالم لا من حيث أبو الفرج فقط وإنما من حيث كل مؤرخ أو راوية .

ونترك هذه الحياة إلى حياة أخرى هي :
الحياة العقلية

الفصل السابع

الحياة العقلية عند أبي الفرج

في نص من نصوص الأغاني وفي موقف من هذه المواقف التي يحاول فيها أبو الفرج أحيانا أن يعلق على أقوال الرواة نراه يقول بصدد حديثه عن جرير والفرزدق والأخطل ما يلي (فأما قدماء أهل العلم والرواة فلم يسووا بينهما وبين الأخطل لأنه لم يلحق شأوهما في الشعر ولا له مثل ما لهما من فنونه ولا تصرف كتصرفهما في سائره . وزعموا أن ربيعة أفرطت فيه حتى ألحقته بهما . وهم في ذلك طبقتان .

أما من كان يميل إلى جزالة الشعر ونخامته وشدة أسره فيقدم الفرزدق . أما من كان يميل إلى أشعار المطبوعين وإلى الكلام السهل الغزل فيقدم جريرا^(١) . وهو قول يشعرنا بأن أبا الفرج كان يعرف للميول الثقافية خطرهما فيما يصدر عن العلماء والرواة من آراء . ولعله يريد أن ينصح لنا بأن ندرس هذه الميول الثقافية من حياة العلماء والرواة وأن نتعرف عليها لتبين في وضوح وجلال كيف صدرت هذه الأحكام ؟ ولماذا اختيرت هذه الأخبار ؟

وفي نص آخر من نصوص هذا الكتاب نرى أبا الفرج يقول (أخبرني هاشم بن محمد الخزاعي قال حدثنا أبو غسان دماذ عن أبي عبيدة قال أنشدني أبو الزعرار رجلا من بني قيس بن ثعلبة لطرفة بن العبد .

تكاشرني كرها كأنك ناصح وعينك تبدي أن صدرك لي دوى

قال فعجبت من ذلك وأنشدته أبا عمرو بن العلاء وقلت له أني كنت أرويه ليزيد بن الحكم الثقفي فأنشدني أبو الزعرار لطرفة فقال لي أبو عمرو أن أبا الزعرار في من يزيد بن الحكم ويزيد مولد يجيد الشعر وقد يجوز أن يكون أبو الزعرار صادقا .

قال مؤلف هذا الكتاب ما أظن أبا الزعراء صدق فيما حكاه لأن العلماء من رواة الشعر وروهما يزيد بن الحكم وهذا أعراي لا يحصل ما يقوله لو كان هذا الشعر مشكوكا فيه أنه يزيد بن الحكم وليس كذلك لكان معلوما أنه ليس لطرفه ولا موجودا في شعره على سائر الروايات ولا هو أيضا مشبها لمذهب طرفه ونمطه وهو يزيد أشبه وله في معناه عدة قصائد يعاتب فيها أخاه عبد ربه بن الحكم وابن عمه عبد الرحمن بن عثمان بن أبي العاص... الخ^(١) وهو قول يشعرنا أيضا بأمرين . الأول أن أبا الفرج يجعل المستوى الثقافي حكمه في قبول أو رفض المرويات فهو يرفض رواية أبي الزعراء لأن العلماء من الرواة رووا خلافها ولأن أبا الزعراء أعراي لا يحصل ما يقوله .

الثاني : أن أبا الفرج يرى أن المذاهب الفنية صالحة لأن يعتمد عليها في بيان الأصل والدخيل من المرويات فهو يقبل هذا الشعر لأنه يزيد أشبه وهو يرفضه لأنه ليس مشبها لمذهب طرفه ونمطه . ولعل أبا الفرج يريد هنا أيضا أن ينصح لنا بدراسة المستويات الثقافية عندما نريد أن تكون دراستنا للأشخاص سليمة وأن يكون حكمنا عليهم من حيث الثقة بهم وبمروياتهم صادقا .

ونحن لا نريد أن نأخذ أبا الفرج بأقل مما كان يأخذ به الرواة بل نحن لا نريد أن نكون أقل من أبي الفرج إدراكا للصلة بين الحياة العقلية وبين ما خلف الراوى من كتب ومرويات . إن علينا أن نبحت الحياة العقلية عند أبي الفرج لنعرف العوامل الثقافية التي لعبت دورها في مرويات أبي الفرج وفي كتبه ليكون درسنا للرجل سليما وحكمنا عليه صادقا .

والحياة العقلية حين تدرس عند الرواة إنما تدرس لبيان هذه المسائل :
أولا - الميول الثقافية نحو فروع من العلم وألوان من الفن أو نحو نظرية من النظريات ومذهب من المذاهب إذ لكل ذلك أثره من حيث

(١) ٩٩ ، ١٠٠ / ١١ أغاني ساسي .

العناية بألوان معينة من المرويات ألوان يتحقق معها إرضاء الميول والآهواء فتكثر الرواية في لون دون لون وتختار المرويات لأشها تقرر هذ النظرية أو تجرى على هذا المذهب .

ثانيا : المستويات الثقافية ولها أثرها في دلالتنا على مدى ما يمكن أن يتمتع به الراوى من ثقة . فهل كان أهلا للتحمل والضبط ولنقد المرويات والتعليق عليها أو كان من الذين يجمعون جمع حاطب الليل ويخبطون خبط عشواء ؟

ثالثا : الحركات الذهنية وإلى أى حد كانت تنظم خطوط سيرها . وهل أصبحت من العادات الفكرية أو الخصائص العقلية التى يمكن الاعتماد عليها فى بيان عمل صاحبها وقبول المرويات أو رفضها ؟

هذه هى المسائل التى يبحث عنها فى الحياة العقلية وفى مظهرها العلى والفنى حتى تتم معرفة شخصية الراوى وهويته .

والوقوف على هذه المسائل فى دقة يتطلب منا أن نبحث هذه العقلية من حيث تكوينها فنبحث كيف تكونت ؟ ومن أى العناصر تكونت ؟ وما الصلة بين هذه العناصر هل غلب أحدها فلون العقلية بلونه وطبعها بطابعه أو كانت النسب غير متفاوتة وإذا كانت فهل تم الانسجام أو ظلت هناك عناصر منفصلة وفعالة تسبب القلق الفكرى والاضطراب العقلى وتباعد بين العقلية وبين الاستقرار الذى يجعل لها خصائص أو عادات ثابتة متميزة يعرف بها عمل صاحبها .

والحياة العقلية إنما تتكون من الأفكار التى تأخذ مكانها من الذهن وهى أفكار ترد عن واحد أو أكثر من واحد من مصادر ثلاثة .

المصدر الأول — التراث الشعبى ووسيلته إلى الذهن تلك التلقينات التى يقوم بها الآباء والأمهات والأخوة والأخوات والأتراب واللداات أو قل الروح الجماعية بعامة .

والمصدر الثاني - التراث العلمى والوسيلة هى التعليم بالأخذ عن المدرسين أو النقل عن الكتب والصحف .

والمصدر الثالث - الأفكار التى تتولد فى النفس البشرية نتيجة لتطور الاحساس إلى خاطره ففكره وقد ينتهى الأمر بهذه الأفكار إلى أن تصبح من الأصول العامة أو من القيم .

والأفكار التى ترد إلى الذهن لا تكون فى حالة استقرار دائم فقد تختلف وتتنازع لما بينها من تعارض وهنا - ومن عجب أن يكون ذلك - يكون النصر للأقوى لا للأسلم من الأفكار .

والأفكار التى ترد عن المصدر الأول من أقوى الأفكار ومن هنا تجىء خطورة المصدر الأول على الحياة العقلية للأفراد وللجماعات . وتمثل هذه الخطورة فى عدة عوامل .

الأول أن هذا المصدر يكون فى بعض الحالات المصدر الوحيد الذى تصدر عنه الأفكار التى تكون الحياة العقلية عند من لم ينل حظاً من التربية وقسطاً من التعليم وإذا كان من المتعارف أن كل تراث شعبى لا يسلم من الأوهام ولا يخلو من الأساطير تبين لنا خطر هذا المصدر ولعله من هنا كان من عمل المصلحين العمل على إذاعة الثقافة العلمية وعلى نشر أو تعميم التعليم .

الثانى: أن هذا المصدر عام ولا يخلو من تأثيره إنسان وأنه يبعث بالأفكار التى تصدر عنه إلى الذهن منذ المهد ولا يكف عن هذا الإصدار إلا عند اللحد . ومن هنا كانت هذه الأفكار مستقرة ثابتة لأنها وردت والعقل غرض طرى والذهن مرئى قابل للتأثر . ومن هنا أيضاً كان منها الأساس الأول الذى تقوم عليه الحياة العقلية عند كل إنسان ولعله من هنا حرص المصلحون على أن يكون هذا الأساس سليماً منذ اللحظة الأولى وإلا اختل البناء . حرصوا على تنقية هذا التراث من الأوهام حتى لا تكون مسافة الخلف بينه وبين التراث العلمى عظيمة وإلا اضطربت العقول وتبلبت الأفكار وإلا كان النزاع

حادا عنيفا وكانت النتيجة في الغالب تمسك الأمة بترائها الشعبي مهما يكن فيه من أساطير ومهما يدفع اليه من مآهات .

الثالث : أن الأفكار التي تصدر عن هذا المصدر قوية في ذاتها لأنها تستمد وجودها من ذلك التراث الشعبي الذي تثبتته العادات وتمكن له التقاليد والذي يحيطه الشعب بسياج من العواطف القوية التي تدود عنه وتحميه ومن هنا يكون السخط قويا والغضب حادا عنيفا حينما ينقده ناقد أو يحاول أن ينال منه نائل أو ينتقصه منتقص . ولعله من هنا أيضا حرصت الأمم الحية على حماية المفكرين من أبنائها لتمسكهم من النقد ومن التوجيه وإلا ظل هذا التراث في أولى درجاته مسيطرا وظلت الأمة في بدائية ساذجة قاصرة ولعله من هنا أيضا كانت هذه المسألة مثار النزاع الدائم بين المفكرين الأحرار وبين الحكام المستبدين .

خطورة هذا المصدر هي التي دفعت الباحثين الى الوقوف طويلا عند البيئة المعنوية بدرسونها ليتبينوا آثارها وليعرفوا الى أي حد بلغت هذه الأفكار التي تجيء عن المصدر الأول من عقل العالم ومن قلب الأديب .

والوقوف على الأفكار التي تجيء عن التراث الشعبي وقوفا علميا دقيقا يكاد يكون في حكم المستحيل ذلك لأنه يتطلب أولا وقبل كل شيء احصاء دقيقا للأفكار التي تأخذ مكانها من الذهن . ومعرفة واضحة للمصادر التي صدرت عنها . وهو العمل الذي لم يستطعه العلم بعد ولعله من هنا اضطر الباحثون إلى الاكتفاء بدراسة التيارات المختلفة ووصف البيئة المعنوية وصفا يكشف عن ألوانها ولا يحدد أفكارها .

لقد مضينا منذ المقدمة حتى نهاية الباب الأول في دراسة هذه التيارات أو هذه الألوان من العوامل المؤثرة في حياة أبي الفرج وانتهينا إلى أمور عددناها في حكم المقررات وكان منها ذلك الميل إلى التشيع وكيف أدى إلى الكتابة في المقاتل والميل إلى الملنات وكيف أدى إلى لون معين من الأخبار والأقاصيص والميل إلى التوفيق بين العصبيتين الأموية والطلبية

وكيف أدى إلى لون معين من الأخبار هي تلك التي تقرب بين العصيتين حتى لتجعل الطالبين أنفسهم يفضلون الأمويين على العباسيين والآن نستطيع أن نعرض لأمرين من أمور البيئة لهما صلة بها بعقلية أبي الفرج . وأول الأمرين ذلك الميل الشديد نحو رواية الأخبار فلقد بعث أبو الفرج ليتلقى ألوانا مختلفة من العلوم ^(١) . منها الديني ومنها اللغوي والنحوي ومنها البيطرة والتجوم وعلم الجوارح وتنق من الطب ^(٢) . ولكنه امتاز وتفوق في رواية الأخبار . ونستطيع تعليل هذا الميل وأول ما نلتبس فيه التعليل هو الوراثة وليس يخفى أن أبا الفرج كان من رجال القرن الرابع وأن هذا القرن يعتبر من أزهى القرون الإسلامية من حيث الحضارة العلمية ولقد كان لكل فرع من فروع العلوم أعلامه الأجداد ونظرة واحدة في كتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ترينا إلى أي حد كان النشاط العلمي في ألوان المعرفة وأنواع العلوم ومن هنا كان من السهل أن يكون أبو الفرج نحويًا لغويًا أو متفلسفًا أو محدثًا أو مفسرًا . . . الخ . ولكنه جنح إلى الأخبار مع أنه هو الذي بدأ برواية الحديث هذا الجنوح سببه الأول فيما نعتقد أن أبا الفرج ولد من أسرتين اشتغل أفرادهما بالكتابة وبرواية الأخبار وللكتبة منهم كتب نقل عنها أبو الفرج كما أخذ عن التقي منهم من الرجال الأمور التي وضحناها في الفصل الثالث من الباب الأول .

وميل أبي الفرج إلى رواية الأخبار موروث ولكن الألوان التي روى فيها أو حمل أخبارها مثل أخبار النسب أو أخبار الشعراء والفناء أو أخبار الأيام والحروب هي التي تحتاج إلى تعليل غير الوراثة . تعليل يردها من حيث هي أقوال عليية إلى مصدرها الأمر الذي سنعرض له بعد لحظة إن شاء الله .

ثاني الأمرين ميل عام يكاد يكون أمراً شائعاً في العقليّة الإسلامية

(١) لوحة ١٢٧٦ تاريخ الإسلام للذهبي .

(٢) ٤٦٢ وفيات الأعيان باريس .

في ذلك الوقت ولا سيما عقلية الاخباريين ذلك الأمر هو الميل إلى قص الغرائب ورواية الشاذ من الأخبار وليس من الاتفاق أن يقف ابن خلدون في مقدمته عند الاخباريين الموجودين في ذلك العصر من أمثال الطبري والمسعودي ليأخذ عليهم هذا الأمر وإنما لأن ذلك هو الطابع العام لعقلية الاخباريين في ذلك الزمان^(١). وقد عرض أيضاً لهذه المسألة المطهر بن طاهر المقدسي في كتابه البدء والتاريخ^(٢).

هذا الطابع لهذه العقلية وضح في كتاب الأغاني وضوحاً ينفراً فلقد كان أبو الفرج يقص ألواناً من القصص تتمثل فيها هذه الغرابة وهو يقصها لإرضاء للروح الدينية العامة أو الروح المذهبية الخاصة أو لأنها تستثير الخيال وترضى هذه العقلية التي تميل إلى الغريب حتى ولو كان من المصنوعات والأكاذيب. ونستطيع أن نعرض عليك مثلاً تبين هذه العقلية كما تبين أن أبا الفرج كان يقف أحياناً إلى جانب بعض المرويات ويصححها لأنها فيما نعتقد ترضى ما فيه من ميل إلى الغرائب أو ترضى العقلية العامة في مستواها لذلك العصر

جاء في الأغاني ، أخبرني عمي قال حدثني أحمد بن الحرث عن بن الأعرابي عن ابن دأب قال خرج ركب من ثقيف إلى الشام وفيهم أمية بن أبي الصلت فلما قفلوا راجعين نزلوا منزلاً ليتعشوا بعشاء إذ أقبلت عذابة حتى دنت منهم فحصبها بعضهم بشيء في وجهها فرجعت وكفوا سفرتهم ثم قاموا يرحلون بمسكين فطلعت عليهم عجوز من وراء كثيب مقابل لهم تنوكتاً على عصا فقالت ما منعكم أن تطعموا رجيمة الجارية اليتيمة التي جاءكم عشيبة قالوا ومن أنت ؟ قالت أنا أم العوام مت منذ أعوام أما ورب العباد

(١) راجع الفصل الخامس بفضل علم التاريخ إلخ من مقدمه ابن خلدون وهو الفصل الأول

(٢) راجع ج ١ ص ٤ وما بعدها

ليفترقن في البلاد وضربت بعصاها الأرض ثم قالت بطيء إياهم وتقرى
ركابهم فوثبت الإبل كأن على ذروة كل بعير منها شيطاناً ما يملك منها شيء
حتى افترقت في الوادى فجمعناها في آخر النهار من الغد ولم نكد فلما أنخأها
لرجلها طلعت علينا العجوز فضربت الأرض بعصاها ثم قالت كقولها
الأول ففعلت الإبل كفعلها بالأمس فلم نجمعها إلى الغد عشية فلما أنخأها
لنرجلها أقبلت العجوز ففعلت كفعلتها في اليومين ونفرت الإبل فنلنا لامية
أين ما كنت تخبرنا به عن نفسك فقال اذهبوا أنتم في طلب الإبل ودعوني
فتوجه إلى ذلك السكيب الذي كانت العجوز تأتي منه حتى علاه وهبط منه
وإذا فإذا فيه كنيسة وقاديل وإذا برجل مضطجع معترض على بابها وإذا
رجل أبيض الرأس واللحية فلما رأى أمية قال إنك لمتبوع فن أين بأنك
صاحبك قال من أذن اليسرى قال فبأى الثياب يأمرك قال بالسواد قال هذا
خطيب الجن كدت والله أن تكونه ولم تفعل أن صاحب النبوة يأتيه صاحبه
من قبل أذنه اليمنى وأمره بلباس البياض فما حاجتك ؟ فحدثه حديث
العجوز . فقال صدقت وليست بصادقة هي امرأة يهودية من الجن هلك
زوجها منذ أعوام وإنما لن تزال تصنع بكم ذلك حتى تهلككم إن استطاعت
فقال أمية وما الحيلة ؟ فقال جمعوا ظهركم فإذا جاءكم ففعلت كما كانت تفعل
فقولوا لها سبع من فوق وسبع من أسفل باسمك اللهم فلن تضركم فرجع
أمية إليهم وقد جمعوا الظهر فلما أقبلت قال لها ما أمره به الشيخ فلم تضرهم
فلما رأت الإبل لم تتحرك قالت قد عرفت صاحبكم وليبيضن أعلاه
وليسودن أسفله فأصبح أمية وقد برص في عذاريه واسود أسفله فلما
قدموا مكة ذكروا لهم هذا الحديث فكان ذاك أول ما كتب أهل مكة
باسمك اللهم في كتبهم^(١) .

وجاء فيه أيضاً . أخبرني أحمد بن عبيد الله بن عمار ومحمد بن أحمد الحكيم
قالا حدثنا أنس بن عبد الله النبهازي قال حدثني علي بن المنذر قال حدثني
عبد الله بن سعيد الأشقرى قال حدثني دعبل بن علي قال . لما هربت من
الخليفة بت ليلة بني سابور وحدي وعزمت علي أن أعمل قصيدة في عبد الله
بن طاهر في تلك الليلة فإني أني ذلك إذ سمعت والباب مردود علي السلام
عليكم ورحمة الله انج يرحمك الله فاقشعر بدني من ذلك ونالني أمر عظيم .
فقال لي لا ترع عافاك الله فإني رجل من إخوانك من الجن من ساكني اليمن
طراً إلينا طارياً من أهل العراق فأشدنا قصيدتك :

مدارس آيات خلعت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات

فأجبت أن أسمعها منك قال فأنشدته إياها فبكي حتى خر ثم قال يرحمك
الله ألا أحدثك حديثاً يزيد في نيتك وبعينك على نفسك بمذهبك قلت بلى
قال مكثت حيناً أسمع بذكر جعفر بن محمد عليه السلام فصرت إلى المدينة
فسمعتهم يقول حدثني أبي عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال علي وشيعته هم الفائزون ثم ودعني لينصرف فقلت له يرحمك الله إن
رأيت أن تخبرني باسمك فافعل قال أنا ظبيان بن عامر (١)

هذه العقلية التي تمثلها هذه الأخبار أو التي ترضيها هذه الأقاصيص كانت
الطابع العام لذلك العصر وكانت تلعب دورها في الحياة العقلية لأبي الفرج
فقد كان يختارها كما قلنا إرضاء للروح الدينية الإسلامية عامة أو شيعية مذهبية
كما كان يختارها إرضاء للعقلية واستثارة للخيال ومن هنا كان لا يضيره أن
تكون من المصنوعات . ولو أن الأمر وقف من أبي الفرج عند هذا الحد
لما اهتممنا بأمر الاختيار كثيراً ولكن أبا الفرج كان يصحح بعض المرويات

على هذا الأساس يصححها لأنها غريبة لا لأن هناك عوامل الصدق والصحة التي تقوم على العقل والمنطق . جاء في الأغاني بصدد حديثه عن وفاة ليلي الأخيلية ما يلي (أخبرني الحسن بن علي قال حدثني ابن أبي سعد عن محمد بن علي بن المغيرة قال سمعت أبي يقول : سمعت الأصمعي يذكر أن الحجاج أمرها بعشرة آلاف درهم . وقال لها هل لك من حاجة ؟ قالت نعم وأصلح الله الأمير تحملني إلى ابن عمي قتيبة بن مسلم وهو على خراسان يومئذ لحملها إليه فأجازها وأقبلت راجعة تريد البادية فلما كانت بالري ماتت فقبرت هناك . هكذا ذكر الأصمعي في وفاتها وهو غلط . وقد أخبرني عمي عن الحزنيل الأصبهاني عن أخبره عن المدائني وأخبرني الحسن بن علي عن ابن مهدي عن ابن أبي سعد عن محمد بن الحسن النخعي عن ابن الخصيب الكاتب . واللفظ في الخبر للحزنيل وروايته أنه أن ليلي الأخيلية أقبلت من سفر فمرت بقبر توبه ومعه زوجها وهي في هودج لها فقالت . والله لا أبرح حتى أسلم على توبه فجعل زوجها يمنعها من ذلك وتأني إلا أن تلم به فلما كثر ذلك منها تركها فصعدت أكمة عليها قبر توبه فقالت السلام عليك يا توبه ثم حولت وجهها إلى القوم فقالت ما عرفت له كذبة قط قبل هذه قالوا وكيف ؟ قالت أليس القائل :

ولو أن ليلي الأخيلية سلمت على ودوني جندل وصفائح

لسلمت تسليم البشاشة أوزقي إليها صدى من جانب القبر صائح

فما باله لم يسلم على كما قال ؟ وكانت إلى جانب القبر بومة كامنة فلما رأت الهودج واضطرابه فزعت وطارت في وجه الجمل فنفر فرمى بليلى على رأسها فأتت من وقتها فدفنت إلى جنبه .

وهذا هو الصحيح من خبر وفاتها^(١) . وواضح أن التصحيح في هذا الخبر إنما قام على الغرابة .

هذان هما الأمران الجديدان اللذان يمكن ردهما إلى البيئة بمعناها الشعبي
بيئة الآباء والأمهات والأخوة والأخوات والآثرات واللغات . أما البيئة
العلمية أو الأفكار التي صدرت عن التراث العلمي فتلك التي سنتحدث عنها الآن .

من حسن حظنا أن كانت الرواية هي الوسيلة في التعليم وهي دستور
أبي الفرج في تقييده لما وقف عليه من علم ومعرفة ذلك لأن هذه الوسيلة
أو هذا الدستور قد جعلنا نتعرف على بعض أمور هي من الأهمية بمكان .
جعلنا نتعرف على وجهات النظر المختلفة في المسألة الواحدة وهذا له أهميته
من حيث التاريخ العلمي للمسائل وتفرعها والأفكار وتوزعها . وجعلنا
نتعرف على تاريخ المسائل في العصور المختلفة وهذان الأمران يمكننا من
دراسة كتب أبي الفرج وبخاصة كتاب الأغاني دراسة علمية دقيقة تطلعنا
على الألوان الثقافية المجتمعة في هذا الكتاب كما تطلعنا على التيارات المختلفة
التي لعبت دورها في كل لون .

وأمر آخر جعلنا هذا الأسلوب نتعرف عليه هو الميول الثقافية التي
نشأت عن التراث العلمي والتي غذتها الأفكار التي تصدر عن هذا التراث
والتي ما كنا نستطيع الوقوف عليها في سهولة ويسر وفي دقة وأحكام لو لم
يكن ذلك الأسلوب أسلوب الرواية في التعليم وفي التعبير أو تقييد العلم .

قلنا أن ميلا موروثا دفع بأبي الفرج إلى الاهتمام بالأخبار . لكن أية
أخبار ؟ هنا المسألة التي نستطيع أن نفسرها تفسيراً علمياً يقوم على
النسب المختلفة لكل ما خلف أبو الفرج من كتب أو لكل ما بين أيدينا
من مرويات .

والأخبار التي تركها أبو الفرج ألوان . منها النسب ومنها أخبار

الاضطهادات أو القتل السياسى ومنها أخبار الوقائع والحروب أو أيام العرب ثم أخبار الغناء والشعر وأخبار الشعراء والمغنين وهنا قد يختلط الهزل بالجد ويقوم الاختيار على أساس من الفكاهة والدعابة اللهم إلا فى أخبار النقد الفنى .

وإذا كان أبو الفرج قد صدر فى أخبار القتل السياسى أو فى كتاب مقاتل الطالبين عن ميل موروث هو التشيع وعن ثقافة غدت هذا الميل هى الثقافة السكوفية الخاصة بالطالبين . وإذا كان أبو الفرج قد صدر فى الأخبار الهازلة العابثة عن مزاج خاص وعن ذوق معين لجماعة من الأصدقاء وعن بيئة المغنين لا يكون فيها إلا ما هو من الدعابة إن لم يكن من الخلاعة والمجون فانه فى غير ذلك . وفيما عدا بعض الأخبار السياسية التى تشبع رغبة معينة هى الكيد للعباسيين . قد صدر عن ميول ثقافية أساسها العلم ومبعثها التربية والتعليم .

وأول ميل ثقافى لأبى الفرج هو الميل إلى رواية الأخبار الخاصة بالنسب . نسب الأفراد أو نسب الأسر وهو أمر قد فطن إليه المؤرخون وعدوه من أجل ذلك من النسابين^(١) . كما فطن إليه كاتب مادة أبى الفرج فى دائرة المعارف حيث نراه يقول عن كتاب الأغانى جمع فيه الأغانى التى كانت شائعة إلى عهده مع ذكر شئ عن مؤلفيها وأنسابهم التى كانت تبدو له عظيمة^(٢) .

ومظهر عناية أبى الفرج بالأنساب واضح كل الوضوح من هذه الظاهرات .

أولا - لم يترجم أبو الفرج لشاعر أو مفن فى كتاب الأغانى

(١) لوحة ٢٧٦ تاريخ الاسلام الكبير للذهبي مصورة رقم ٢ تاريخ دار الكتب

(٢) مادة أبى الفرج دائرة المعارف الاسلامية . الترجمة العربية

ولا لقتيل سياسى فى كتاب مقاتل الطالبين دون أن يذكر لنا نسبه . نسب
أبيه فى الغالب ونسب أمه أن أمكن اللهم إلا إذا كان مجهولا .

ثانياً — لم يترجم أبو الفرج لواحد من هؤلاء . ويذكر نسبه إلا ويجمع
الروايات التى قبلت فى هذا النسب ومن هنا كنا نرى أمثال هذه العبارة
« هذا الذى بأيدى الناس على اختلافهم فيه »^(١) . حين يحدد مرويات كثيرة
وأمثال العبارة التالية « ولم أجد نسبه متصلاً فأذكره »^(٢) ، حين لا يحدد شيئاً .

ثالثاً — أن أبا الفرج لم يكتف بهذا الصنيع فى الأغاني والمقاتل وإنما
كتب كتباً بتمامها فى النسب من أمثال نسب عبد شمس ونسب بنى شيان
ونسب المهالبة ونسب بنى تغلب ونسب بنى كلاب^(٣) . وقد أشار أبو الفرج
فى كتاب الأغاني إلى كتاب له فى أنساب العرب أكثر من مرة وقد يكفى
فى التلخيص هذا النص . . . ولم أذكرها هنا لطولها وأن ذلك ليس من
الغرض المطلوب فى هذا الكتاب وإنما نذكر هنا لمعاوسائره مذكور فى
جبهة أنساب العرب الذى جمعت فيه أنسابها وأخبارها وسميته كتاب
التعديل والاتصاف . . .

ولأسد أشعار كثيرة ذكرت هذه منها هنا لأن تعلم أعراقهم فى الشعر
وسائرها يذكر فى كتاب النسب مع أخبار شعراء القبائل إن شاء الله
تعالى^(٤) . . .

وعناية أبى الفرج بهذا اللون من الأخبار أو وجود الميل فيه لا يفسر
بالوراثه فليس فى أهله فيمن ترجمنا لهم من هو من النسابين وإنما يفسر
بعوامل أخرى أهمها فيما نعتقد عاملان

(٢) ٥/١٥٣ المصدر السابق

(٤) ١٩/٥٤ ، ٥٣ أغاني . ساسى

(١) ١/٧ أغاني . ساسى

(٣) ١١/٣٩٨ تاريخ بغداد للخطيب

الاول : أن أبا الفرج كان يترسم خطى إسحق الموصلى وإسحق قد اتخذ لنفسه دستوراً هو أن يذكر أنساب القوم وقد نقل أبو الفرج نفسه هذا الدستور حين نقل رسالة إسحق إلى علي بن هشام والتي منها (. . .) وبعد فأننا جعلت فذاك في صنعة كتاب مليح طريف فيه تسمية القوم ونسبهم وبلادهم وأسبابهم وأزمنتهم وما اختلفوا فيه من غنائهم وبعض أحاديثهم وأحاديث قيان الحجاز والكوفة والبصرة المعروفة والمذكورات وما قبل فيهن من الاشعار ولمن كن وإلى من صرن ومن كان يغشاهن ومن كان يرخص في السماع من الفقهاء والاشراف فاعلمنى رأبك فيما تشتهى لأعمل على قدر ذلك^(١) . . .) . وإذا كان أبو الفرج قد جرى على هذا الدستور في كتاب الأغاني فانه قد جرى عليه في النسب أيضاً .

الثاني : ظهور كتاب الزبير بن بكار في النسب والزبير من النسابين الذين أخذ عنهم الكثيرون ومن أخذ عنه من أساتذة أبي الفرج الطوسي وحرى بن أبي العلاء وأثر هذا الكتاب واضح جداً في كتاب الأغاني حيث يتردد اسم الزبير بن بكار كثيراً .

ولعل من الخير أن نذكر أن عناية العرب بالأنساب قديمة وأن المسلمين في الدولة العباسية كان يقيمون على الأنساب بعض نظمهم المالية كتلك التي تخص الأرزاق التي يجريها الخلفاء على الشرفاء . وإنهم قد اهتموا بالأنساب اهتماماً خاصاً لهذا السبب وأن هذا الاهتمام ظل قائماً حتى عصر أبي الفرج على الرغم من أنه قد أدى المهمة التي قام من أجلها ولعل لهذا الاتجاه أثره في توجيه أبي الفرج نحو هذه الأنساب .

وأيام العرب ووقائعها لون آخر من الألوان الاخبارية التي وقف عندها أبو الفرج وقد كان عدد هذه الأيام فيما يحكى الخطيب ألفاً وسبعائة يوم^(٢) . وهو عدد إن صح يبعث في أنفسنا اعتقاداً بعناية تامة

من أبي الفرج نحو هذه الأيام وهي عناية لانستطيع أن نعلمها بأكثر من أنها ميل خلقته الثقافة العامة التي كان يتلقاها أبو الفرج في ذلك الحين^(١). وليس يخفى أن من أشياخه الأخفش واليزيدى وأنه قد قرأ عليهما كتاب النقائض وفي كتاب النقائض من أيام العرب ووقائعها الشيء الكثير. وفي كتاب الأغاني الموجود بين أيدينا صورة لهذه الأيام كما أخذها أبو الفرج عن الأخفش واليزيدى مستندة إلى السكري فابن حبيب فابن عبيدة^(٢).

أما ميل أبي الفرج إلى الشعر والغناء وأما ميل أبي الفرج إلى رواية الأحكام النقدية غنائية أو أدبية. فأما ميل أبي الفرج إلى مذهب إسحق في الغناء وأبي تمام في الشعر وأما موقف أبي الفرج إلى جانب ابن المعتز يدافع عنه ويوضح حقيقة فنه فهي الأمور التي سنجد الإجابة عنها في الفصل التالي الخاص بالحياة الفنية عند أبي الفرج لأنها كما لا يخفى من مسائل الفن وقضاياها

عقلية أبي الفرج من الناحية العلمية عقلية إخبارية تقوم قبل كل شيء وبعد كل شيء على رواية الأخبار حتى لنعجز أن نقبل لها طابعاً آخر من لغة ونحو ومن حديث ودين ومن طب وتنجيم ومن هنا نستطيع أن نقول أن هذا العنصر عنصر رواية الأخبار هو الذي سيطر على عقل أبي الفرج وأن ميل أبي الفرج إلى هذا اللون كان لونا تغذيه الوراثة وتساعد عليه البيئة العلمية ومن هنا لم يشعر أبو الفرج بكثير من الحرج لأن علمه كان يغذى عواطفه وميوله ولأنه كان راوية والرواة كما سبق أن وضحنا في التمهيد وكما سنرى في الباب الثالث لا يقفون كثيراً لتحقيق المسائل وتصحيح الأخبار وإنما يمسكون على روايتها كما أخذوها حتى لو كانت من الأكاذيب.

(١) راجع مادة أيام العرب في دائرة المعارف الإسلامية الترجمة العربية. ففيها بحث قيم عن هذه الأيام وعن عناية العرب بأيامهم وعن الأسباب في كثرة هذه الأيام.
(٢) راجع من ٣٠ - ١٠/٤٥ أغاني ساسي فان فيها صوراً واضحة عن هذه الأيام.

غير أنه مع كل هذا ومع أن الأسلوب هو الرواية نستطيع أن نبين بعض العادات الفكرية التي كان أبو الفرج يجرى عليها في مروياته .

وأول هذه العادات أن أبا الفرج يقف في مقدمات كتبه ليحدد موضوعاتها أو مسائلها وهو يحددها التحديد البين الواضح الذي يمكن القارئ من معرفة موضوع الكتاب منذ اللحظة الأولى ويتصوره تصوراً مقارباً فعل ذلك في المقاتل حيث دلنا على أنه سيذكر في هذا الكتاب أخبار من قتل من آل أبي طالب وأنه سيختار من هؤلاء من كان محمود السيرة شديد المذهب^(١) . وفعل مثل ذلك في كتاب الأغاني حيث حدد موضوعه تحديداً بيناً^(٢) . حيث قصره على ما وجد لشاعره أو مغنيه أو السبب الذي من أجله قيل الشعر أو صنع اللحن خبراً يستفاد ويحسن بذكره ذكر الصوت معه .

وأبو الفرج حين يختار موضوعه وحين يحدده هذا التحديد الذي يبين الغرض منه يبدأ فيختار المواد على هذا الأساس . وهو حين يختارها يشعر دائماً بما أخذ على نفسه من عهد ومن هنا نجدته يتوقف حين لا تكون المواد مما يفي بالأغراض ولذا نراه يقول بين حين وآخر أمثال هذه العبارات التي تدل على يقظته وحذره عن الخروج ، وإنما ذكرنا خبره معهم لأنه كان أحامهم لأهمهم وكان هوى لهم وكان عبد الله بن الحسن يحبه محبة شديدة فقتل معه لما قتل^(٣) ، ، ، ونبدأ بذكر من قتل معه من أهل بيته حسبما شرطنا في هذا الكتاب ثم نأتي بسياقة خبرهم^(٤) ، ، وخبره أحسن وأكثر تلخيصاً وأدخل في معنى الكتاب^(٥) ، وأخبار المعتضد في صنعة هذا اللحن

(٢) ١/٢ الأغاني . سامي

(٤) ٢٨٨ المصدر السابق

(١) ٤ ، ٥ مقاتل الطالبيين . مصر

(٣) ١٤١ مقاتل الطالبيين . بغداد

(٥) ٨/١١٠ أعاني . بولاق

وغيره من الأغاني دون إخباره في غير ذلك لأنها كثيرة تخرج عن حد الكتاب وشيء من أخباره مع المغنين وغيرهم يصلح لما همنا^(١).

ونستطيع أن نقرر أن أبا الفرج لم يخرج عن الحدود التي رسمها لنفسه في كتابه «مقاتل الطالبين»، وأنه خرج عن ذلك في كتاب الأغاني وأن سر هذا الخروج ليس إلا طبيعة الموضوع الأمر الذي سنتناوله بالشرح المفصل عند حديثنا عن مسألة التصنيف أو التأليف من الفصل الخاص بمرحلة الأداء ومكان هذا الحديث هو الباب الثالث إن شاء الله.

أمر آخر نذكره على أنه من العادات الفكرية لأبي الفرج هو أنه حين يحدد موضوعاته ويختار لها المواد يعرضها العرض الذي يلائم ما يرمى إليه من مقاصد وأغراض ومن هنا كان العرض في كتاب المقاتل قائما على التقسيم الزمني فنرى أبا الفرج يعرض علينا القتلى من الطالبين في الدولتين الأموية ثم العباسية. وهو في كل دولة يعرض هؤلاء القتلى باعتبار الأزمنة أو العصور التي حكم فيها الخلفاء أما العرض في كتاب الأغاني فقد قام على أساس غير هذا. أساس لم يدخل العامل الزمني فيه وإنما تحكمت طبيعة الموضوع ومن أجل هذا وضع أبو الفرج هذه المسألة في مقدمة الكتاب وبين لنا أن العوامل النفسية عوامل إرضاء القارئ وإدخال السرور على نفسه وتجديد نشاطه والانتقال به من جد إلى هزل هي التي تدخلت في أسلوب العرض أو في ترتيب المواد من مسائل الكتاب.

وقد نستطيع أن نضم إلى هذه العوامل عاملا آخر هو أن أبا الفرج قد عرض للأصوات المائة أولا وقبل كل شيء ومن هنا تأثر عرضه بتقسيم قام به غيره الأمر الذي سنشرحه أيضا في الباب الثالث عند حديثنا

(١) ٩/١٩ أغاني . ساسي

من مسألة التصنيف والتأليف من مرحلة الأداء .

هذه عقلية أبي الفرج العلمية في تكوينها وفي خصائصها قد أبنها كما
استطعنا الوقوف عليها من كتبه التي يقوم التأليف فيها على أسلوب الرواية .
ونستطيع أن نتركها إلى حيانه الفنية ولعلها بدورها أن تلقى ضوءاً على حياته
العقلية وهي جزء منها أو على حياته العلمية وهي شق يتممها .

الفصل الثاني الحياة الفنية عند أبي الفرج

والعناصر الثقافية التي تتكون منها الحياة الفنية عند أبي الفرج هي :

(أ) الأخبار الفنية للغناء العربي وما يتبع ذلك من أحاديث عن المذاهب والأجناس وعن بعض النظرات النقدية التي تكشف عن ميول أبي الفرج الفنية وعن مذهبه في الغناء .

(ب) الأخبار الفنية للشعر والشعراء وما يتبعها من أحاديث عن المذاهب الأدبية وعن ميول أبي الفرج .

(ح) الفن الشعري .

(د) الفن النثري لاسيما القصص أو الأخبار .

والعنصر الأول هو أقوى هذه العناصر وأكثرها وضوحا في حياة أبي الفرج الفنية بل هو العنصر المتحكم في حياة العنصر الثاني أو في حياة الشعر والشعراء وليس أدل على ذلك من أن أبا الفرج قد أهمل الشعراء الذين لم يجد لهم من الأشعار ما غنى فيه فأساس الاختيار عنده أن يكون للشاعر شعر غنى فيه حتى يترجم له ثم هو في ذكره للشعر الذي غنى فيه إنما يهتم به من حيث هو أصوات فيذكر هذه الأصوات كما غنيت حتى ولو غير المغنون الشعر لتستقيم لهم القسمة والتجزئة^(١) وحتى لو كان الشعر لأكثر من شاعر^(٢) .

وغلبة هذا الشعر الغنائي واضحة كل الوضوح مما ترك أبو الفرج فيه من كتب فقد كتب في هذه الأخبار الفنية للغناء والمغنين كما كتب في الأنعام

(١) راجع ٢٢٠ ، ٢٥٨ ج ٢ أغاني . دار الكتب .

(٢) ٤/٣٦ أغاني . بولاق . وهو في المائة المغتارة .

والعلل ومن ذلك كتابه الأغاني الكبير الذى يقول عنه ابن خلدون : وقد ألف القاضى أبو الفرج الاصبهاني وهو ما هو كتابه فى الأغاني جمع فيه من أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم وجعل مبناه على الغناء فى المائة صوت التى اختارها المغنون للرشد فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأرفاه ولعمري أنه ديوان العرب وجامع أشتات المحاسن التى سلفت لهم فى كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال ولا يعدل به كتاب فى ذلك فيما نعلمه وهو الغاية التى يسمو إليها الأديب ويقف عندها وأتى له بها^(١)، ومنه كتاب مجرد الأغاني وقد أشار إليه أبو الفرج فى مقدمة كتابه الأغاني الكبير^(٢). وكتاب مناجيب الحصان وهو كتاب عمه للوزير المهلبى فى خصيين مغنيين كانا له^(٣).

أما ما كتبه فى الصنعة الغنائية أو فى علل الغناء فانه يدل على دقة وعمق وحسبنا من ذلك هذا المص الذى ينقد فيه المرويات نقداً فنيا قائماً على خبرة بالصناعة وبصر بها وهو (وذكر عبيد الله أن صانع هذا الصوت الذى كنى عنه فعل ذلك وتلف له حتى أتى بالنغم العشر فى هذا متوالية من أولها إلى آخرها وأتى بها فى الصوت الذى بعده متفرقة على غير توالى إلا أنها كلها فيه وذكر أن ذلك الصوت أحسن مسموعاً وأحلى . وحكى ذلك أيضاً عنه يحيى بن على بن يحيى فى كتاب النغم وإذا فرغت من حكاية ما ذكره وحكاة عبيد الله فى نسبة هذا الصوت فقد ينبغى ألا أجرى الأمر فيه على التقليد دون القول الصحيح فيها ذكره وحكاة . والذى وصفه من جهة النغم العشر متوالية فى صوت واحد محال لا حقيقة له ولا يمكن أحداً بته

(١) ٥٠٦ مقدمة ابن خلدون بيروت سنة ١٨٨٦ الطبعة الثانية

(٢) ١/١ الأغاني - سامى

(٣) ١٣/١٠٠ معجم الأدباء

أن يفعله وأنا أبين العلة في ذلك على تقريب إذ كان استقصاء شرحها طويلا وقد ذكرته في رسالة إلى بعض إخواني في عال النغم^(١). وشرحت هناك العلة في أن قسم الغناء قسمين وجعل على مجريين الوسطى والبنصر دون غيرهما حتى لا تدخل واحدة منهما على صاحبتها في مجراها قرب مخرج الصوت إذا كان على الوسطى منه إذا كان على البنصر وشبهه به فإذا أراد مريرد إلحاق هذا بهذا لم يمكنه بته على وجه ولا سبب ولا يوجد في استطاعة حيوان أن يتلو أحدهما بالآخرى ولا إذا اتبعت إحداهما بالآخرى في ناي أو آلة من آلات الزمر تفصلت إحداهما من الآخرى وإنما قلت النغم في غناء الأوائل لأنهم قسموا قسمين بين هاتين الأصبعين فوجدوها إذا دخلت إحداهما مع الآخرى في طريقتهما لم يمكن ذلك إلا بعد أن يفصل بينهما بنغم أخرى للسبابة والخنصر يدخل بينهما حتى تتباعد المسافة بينهما ثم لا يكون ذلك الغناء ملاحقة ولا طيبا للمضادة في المجريين فتركوه ولم يستعملوه فإن صح لعبيد الله عمل في النغم العشرة في صوت فلعله صح له في الصوت الذي ذكر أنه فرقها فيه فأما المتوالية على ما ذكره ههنا فمحال ولست أقدر في هذا المرضع على شرح أكثر من هذا وهو في الرسالة التي ذكرتها مشروح^(٢).

وأبو الفرج إنما ينجح نحو مذاهب القدامى في الغناء فهو عدو المحدثين منهم ويرى أنهم أفسدوا الغناء القديم وأنهم بصنيعهم هذا قد قضاوا عليه حتى أنه لم يبق منه في عصره ما يعتمد عليه ويرى أنه صحيح سليم وهذا هو الواضح من حديثه عن ابن المهدي حيث يقول (وكان إبراهيم مع علمه وطبعه مقصرا عن أداء الغناء القديم وعن أن ينحوه في صنعته فكان يحذف نغم

(١) أشار إلى هذه الرسالة في ٥/٥٣ ، ٩/٤٩ ، الأغاني . بولاق

(٢) ٨/٢٦ أغاني . بولاق

الأغاني الكثيرة العمل حذفاً شديداً ويخففها على قدر ما أصلح له ويبقى بأدائه فإذا عيب ذلك عليه قال أنا ملك وابن ملك أغنى كما اشتهى وعلى ما ألتذ فهو أول من أفسد الغناء القديم وجعل للناس طريقاً إلى الجسارة على تغييره فالتاس إلى الآن صنفان من كان منهم على مذهب إسحق وأصحابه ممن كان يعظم الغناء القديم وينسكراً لأقدام عليه ويعيب من فعله وهو يغنى الغناء القديم على جهته أو قريباً منها . ومن أخذ بمذهب إبراهيم بن المهدي أو اقتدى به مثل مخارق وشاريه وربق ومن أخذ عن هؤلاء إنما يغنى الغناء القديم كما يشتهي هؤلاء لا كما غناه من ينسب إليه ويجد على ذلك مساعدين عن يشتهي أن يقرب عليه مأخذ الغناء وبسكرة ما ثقل وتقلبت أدواره ويستطيل الزمان في أخذ الغناء الجديد على جهته بقصر معرفته وهذا إذا طرد فإنما الصنعة فيه لمن غنى في هذا الوقت لا للمتقدمين لأنهم إذا غيروا ما أخذوه كما يرون وقد غيره من أخذوه عنه وأخذ ذلك أيضاً ممن غيره حتى يمتص على هذا خمس طبقات أو نحوها فلم يتأد إلى الناس في عصرنا هذا من جهة هذه الطبقة غناء قديم على الحقيقة البتة . ومن أفسد هذا الجنس خاصة بنو حمدون ابن إسماعيل فإن أصلهم فيه مخارق وما نفع الله أحداً قط بما أخذ عنه وزرياب الواقعية فإنها كانت لهذه الصورة تغير الغناء كما تريد وجواري شاريه وربق فهذه الطبقة على ما ذكرت .

ومن عداهم من الدور مثل دور عريب ودور جواريهما والقاسم بن زرزور وولده ودور بطل الكبري ومن أخذ عنها وجواري البرامكة وآل هاشم وآل يحيى بن معاذ ودور آل الربيع ومن جرى مجراه ممن تمسك بالغناء القديم وحمله كما سمعه فعسى أن يكون قد بقي مما أخذ بذلك المذهب قليل من كثير .

وعلى أن الجميع من الصحيح والمغير قد انقضى في عصرنا هذا (١).
ويظهر أن أبا الفرج كان يجرى في هذا خلف اسحاق فقد كان اسحاق
من يفضلون القديم ويجرون عليه وأبو الفرج قد اتخذ من اسحاق مثله الأعلى
ولعل ذلك يتضح من صنيع أبي الفرج في كتاب الأغاني حيث جرى فيه على
مذهب اسحاق حتى ولو كانت النسبة عن غيره وقد دل هو على ذلك حيث
قال (وكل ما ذكرنا فيه من نسب الأغاني إلى أجناسها فعلى مذهب اسحاق
ابن ابراهيم الموصلي وإن كانت رواية النسبة عن غيره إذ كان مذهبه هو
المأخوذ به اليوم دون من خالفه مثل ابراهيم بن المهدي ومخارق وعلوية
وعمر بن بانه ومحمد بن الحرث بن شخير ومن وافقهم فانهم يسمون الثقيل
الأول وخفيفه الثقيل الثاني وخفيفه ويسمون الثقيل الثاني وخفيفه الثقيل
الأول وخفيفه وقد أطرح الناس ما قالوه الآن وترك وأخذ الناس بقول
اسحاق (٢).

وقد شرحت هذه الأجناس شرحاً مبسطاً قائماً على الصلة بين الشعر
والموسيقى وعلى النقرات وعلى صياح الفاخات فليرجع إليها من يشاء (٣).
في رسائل إخوان الصفاء .

وقبل أن نختم هذه الفقرة نشير إلى أن اهتمام أبي الفرج بالغناء إنما
يرجع إلى إهتمام البيئة العراقية به في ذلك الوقت ويكفي أن نعلم أن من الذين
تعلموا الغناء وأناروا حول مذاهبه الجدل والخصومة من هم من الخلفاء
والأمراء والولاة من أمثال المعتضد بالله وابن المعتز وعبد الله بن طاهر وكثير
غيرهم ويعمل ابن خلدون هذا الإهتمام بما يشعر بأن الغناء إنما قام من أجل

(١) ٣٥، ٣٦ / ٩ الأغاني . بولاق

(٢) ١/٤ المصدر السابق

(٣) ١/١٤٦ رسائل إخوان الصفاء . بيروت سنة ١٣٠٦

تعلم الأدب والعناية بالشعر وذلك حيث يقول : وكان الغناء في الصدر الأول من أجزاء هذا الفن لما هو تابع للشعر إذ الغناء إنما هو تلحينه وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصاً على تحصيل أساليب الشعر وفنونه فلم يكن انتحاله قادحاً في العدالة والمروءة (١) .

ولعل أكبر مظهر لهذا الاهتمام هو هذه الكثرة الكاثرة من الكتب التي ألفت في الغناء وهي الكتب التي نقل عنها أبو الفرج كثيراً وأشار إليها صاحب الفهرست . ولعل أهمها ما اختاره المغنون الثلاثة من الأصوات المائة المختارة للرشيدي وما اختاره اسحاق اللواثق وسنشير إلى كثير من هذه الكتب عند حديثنا عن مرحلة التحمل وكيف كان النسخ من الكتب أو النقل عنها جزءاً من هذه المرحلة .

ونترك هذا العنصر إلى العنصر الثاني وهو ثقافة أبي الفرج الخاصة بالشعر والشعراء . والشعر العربي إنما اختير في كتاب الأغاني على أساس من الغناء فهو أصوات غنائية قبل كل شيء وبعد كل شيء ومن هنا كانت تغير ألفاظ الشاعر أحياناً كما كان المغنون يجمعون بين أشعار شعراء مختلفين كما سبق أن أشرنا أول الفقرة السابقة . كما كان يختار أيضاً على أساس من الفكاهة والدعابة لأن معه أخباراً يقصد بها إلى الهزل أو إلى الامتناع والموانسة وتكون هذه المقاصد هي المنحكمة في الاختيار ومن هنا لا نستطيع أن نقول إن هذه الأشعار تمثل ذوق أبي الفرج الفني على أساس أن اختيار المرء قطعة من عقله .

نعم أن هناك من الأخبار ما هو جاد كأخبار الحروب وأخبار الأحكام النقدية والخصومات الأدبية تلك التي قد تمثل مذهب الشاعر أو رأى النقاد

فيه ولكن حتى هذه لا تدل على أكثر من سعة الاطلاع عند أبي الفرج أما مدى فهمه لها وإيمانه بها وجعلها جزءاً من ثقافته فأمر وراء كل هذا ولا تدل عليه هذه بحال من الأحوال لأن كل ما يحفظه المرء في ذاكرته أو ينسخه من كتاب لا يمثل فهمه للأمور ودقته في تناول الأشياء وإنما يمثل أنها وقعت في يده أو رآها بعينه أو سمعها بأذنه ومن هنا نستطيع أن نعرض عن هذه الأشعار إلى الأخبار الفنية أو الشعرية فلعلها أن تعيننا على الوقوف على ثقافة أبي الفرج الفنية وميوله المذهبية .

وأبو الفرج يقف بين يدي ترجمته للشعراء ليدكر جماع الرأي وهو في هذا الذكر يختار بعض الأسس ليقم عليها البناء وأهم هذه الأسس هي :
(١) الأصل والمولد والمنشأ وفي الحديث عن الأصل يكون الحديث عن النسب كما قد يكون الحديث عن الوراثة الشعرية .

(ب) المذهب الفني وقد يكون فيه الحديث عن الصلة بالخلفاء والأمراء والوزراء ومذاهبهم وما يرضيهم وما لا يرضيهم من الشعر كما قد يكون الحديث عن المدرسة والمذهب الفني (١) .

وهناك قد يجعل أبو الفرج عمود الشعر من الأسس التي يقيم عليها فن النقد الأدبي فيرى أن هذا قريب وذاك بعيد كما قد يرى أن هذا صالح المذهب وذاك فاسده .

وقد يذهب أبو الفرج إلى أبعد من هذا فيقف ليسكشف لنا عن أسرار الاختلاف بين النقاد ويرينا من أين جاء الميل أو الهوى وقد أشرنا إلى مثل من هذا عند حديثنا عن الحياة العقلية حيث اتخذنا من موقفهم من كل من جرير والفرزدق ما يكفي في الدلالة على صنع الميل والهوى .

(١) ١٢/١٧ أغاني . بولاق . منصور النيمى . ١٠٠٠/١٨ أخبار على بن جبلة .

(ح) المذهب الخلقى من حيث الخلاعة والمجون وأشباههما .

ولن نستطيع أن نقول إن هذه الأشياء من مبتكرات أبي الفرج وأنها من هنا تمثل عقلية الأدبية وفهمه للأسس التي يجب أن يقوم عليها التاريخ الأدبي فانما هي من الأسس التي كانت تشيع في البيئة وليس أدل على ذلك من أن هذه الأسس بالذات كثيرا ما ترد في المرويات التي يرويها أبو الفرج بعد هذه الوقفات فهي تلخيص لها في الغالب أو اجمال حتى يحى البيان .

أن ميول أبي الفرج الفنية في الشعر إنما يكشف عنها تلك الوقفات التي يقف فيها إلى جانب بعض الشعراء مدافعا عنهم ومفسرا صنيعهم ولعله أن يكون من العجب أن نقول إن مذهب أبي الفرج الأدبي يختلف عن مذهبه الغنائى فهو هناك يحب القديم ويكلف به ويرى في صنيع المحدثين إفسادا للغناء وهو هنا لا يغفل صلة الفن بالحياة ويرى أثر البيئة فيما يصدر من الشاعر ويدافع عن المحدثين مبدئا خطا رأى عند من ينقد الشعراء لأنهم آثروا الجديد وخرجوا على عمود الشعر وعن مذهب القدماء . وهذا هو دفاعه عن ابن المعتز الشاعر (وشعره وإن كان فيه رقة الملوكة وغزل الظرفاء وهلهة المحدثين فإن فيه أشياء كثيرة تجرى في أسلوب المجيدين ولا تقصر عن مدى السابقين وأشياء ظريفة من أشعار الملوك في جنس ما هم بسيله ليس عليه أن يقشبه فيها بفحول الجاهلية فليس يمكن واصفا لصبوح في مجلس شكل ظريف بين ندامى وقيان وعلى ميادين من النور والبنفسج والرجس ومنضود من أمثال ذلك إلى غير ما ذكرته من جنس المجالس وفاخر الفرش ومختار الآلات ورقة الخدم أن يعدل بذلك عما يشتهيه من الكلام السبط الرقيق الذي يفهمه كل من حضر إلى جعد الكلام ووحشية وإلى وصف البيد والمهامة والظبي والظليم والناقة والجل والديار والقفار والمنازل الخالية المهجورة ولا إذا عدل عن ذلك وأحسن قيل له مسيء ولا أن يغمط

حقه كله إذا أحسن الكثير وتوسط في البعض وقصر في اليسير وينسب إلى التقصير في الجميع لنشر المقابح وطى المحاسن فلو شاء أن يفعل هذا كل أحد بمن تقدم لوجده مساغا ولو أن قائلا أراد الطعن على صدور الشعراء لقد رأى أن يطعن على الأعشى وهو أحد من يقدمه الأوائل على سائر الشعراء^(١) ..

أن هذا الاختلاف في الموقفين لا نستطيع أن نفهم سره إلا على أساس من الإعجاب إعجاب أبي الفرج بكل من إسحاق وابن المعتز وقد سبق أن ذكرنا أنهما من مثله العليا ومن هنا نستطيع أن نفهم لماذا وقف أبو الفرج إلى جانب من يحبذون الغناء القديم أو بعبارة أخرى من يجرون على مذهب إسحاق . ولماذا وقف إلى جانب ابن المعتز ودافع عنه هذا الدافع الحار . على أن لأبي الفرج ميلا فنيا آخر هو ميله إلى مذهب أبي تمام في المجانس والمطابق حتى لقد حاول تقليده وفشل فيما نعتقد كما سنبين عند حديثنا عن الفن الشعري إن شاء الله .

وميل أبي الفرج إلى أبي تمام ميل موروث فقد كانت الأسرة تفضله وحديث محمد بن أحمد الأصفهاني جد أبي الفرج لأبيه عن أبي تمام وتفضيل كل من ابن الزيات والصولي له قد نقلناه عند حديثنا عن الجوا الأسرى وبكفينا في هذا الموقف لبيان هذا الميل هذا القول من أبي الفرج (وقد فضل أبا تمام من الرؤساء والكبراء والشعراء من لا يشق الطاعنون عليه غباره ولا يدركون وأن جدوا آثاره وما رأى الناس بعده إلى حيث انتهوا له في جده نظيرا ولا شكلا ولولا أن الرواة قد أكثروا في الاحتجاج له وعليه وأكثر متعصبوه الشرح لجسد شعره وأفرط معادوه في التسطير لرديته

والتنبيه على رذله ودنيته لذكرت منه طرفا ولكن قد أتى من ذلك ما لا مزيد عليه (١)

هذه هي ميول أبي الفرج الفنية من حيث المذاهب الأدبية وهي ميول لا تدل على عمق في الثقافة يساوى ذلك العمق الذى أحسننا به في ثقافته الغنائية ولا بأس على أبي الفرج فى ذلك فنحن نعلم أنه قد ألف كتابه فى الأغاني ولم يؤلفه فى الشعر والشعراء .
(ح) الفن الشعري .

والفن الشعري عند أبي الفرج لا يقاس بحرية على المجانس والمطابق من مذهب المحدثين أو بحرية على مذهب أبي تمام منهم فيظهر لنا أن هذا المذهب لم يكن ليتفق وطبيعة أبي الفرج السمتحة السهلة وموهبته الفنية التى يصدر عنها الشعر بدون تعمل أو تصنع ومن هنا كانت محاولات أبي الفرج فى تقليده لأبي تمام محاولات فاشلة وليس بكفى أن يحب أبو الفرج أبا تمام أو تحب الأسرة كلها أبا تمام ليقول أبو الفرج على مذهبه ويجيد فى القول . لقد قلده أبو الفرج أبا تمام ولكنه أفلس أو كاد وليس أدل على ذلك من هذه المقطوعات الشعرية التى يقولها أبو الفرج متغزلا أو مادحا . فهو يقول متغزلا (٢) .

أنت يا ذا الخال فى الد
لا تبالي بي ولا تخط
لا ولا تفكر فى حا
أنا فى الناس إما مـ

ونشعر نحن أن هذا الغزل لا يصور من الحب شيئا فهو غزل فاطر
لا نشعر فيه بحرارة الحب ولا بأنفاس المحبين بل لا نشعر فيه بذلك

الاحساس الجميل الذى يفتاب المحبين عندما يتحدثون عن الاحباب
ويصورون حالاتهم وليس ذلك إلا لأن المذهب الشعري قد أفسد على
أبي الفرج كل شيء فالجناس والطباق وخصائص مذهب أبي تمام قد رصت
فى هذه المقطوعة رصا وحشرت فيها حشرا كادت معه أنفاس الشاعر نفسه
أن تضيق ومن هنا كان الشعر شعر صناعة لا رونق فيه ولا ماء ولا روح
فيه ولا حيوية . ويقول أبو الفرج مادحا ^(١) .

ولما انتجعنا عائذين بظله أعان وما عني ومن وما مني
وردنا عليه مقترين فراشنا وردنا نداه مجدين فأخصبنا
ونشعر نحن أن الجناس والمقابلة قد أفسدا على أبي الفرج كل شيء وأن
إحساسه نحو مولاه وسيد نعمته المهلبى غير واضح بل أن صورة المهلبى نفسه
مبهمة غامضة لا تفصح عن نفسها ولا تبين فهو شعر الصناعة الذى تفسد فيه
الصناعة ما يكون فى الشعر من سمات الوحي ومن قبسات الالهام ومن لمسات
فنية توحى بالمراد وتفصح عنه فى قوة .

ولعل هذين البيتين من تلك المقطوعة التى يبنى فيها المهلبى بمولود من سرية
رومية يريانا إلى أى حد كان أبو الفرج يجهد نفسه فى سبيل الحرص على
هذا المذهب الشعري وبناء شعره لا على المجانس والمطابق فحسب بل على
الاستعارات التى لا تنجى عفووا وإنما تقسر قسرا وتحشر فى الشعر حشرا .
متبجح فى ذرونى شرف العلاء بين المهلب منتماء وقبصر
شمس الضحى قرنت إلى بدر الدجى حتى إذا اجتمعا أنت بالمشتري ^(٢)
ولست فى حاجة إلى أن أشرح شيئا من هذا البيت الأخير فكل شيء
واضح فيه وكل شيء يدل على ما نريده من إفساد الصناعة للشعر .

لقد قلد أبو الفرج أبا تمام ولكنّه فشل وانصرف عن هذا التقليد فيما

نعتقد وخيرا فعل وإلا لظل شعره كالأرض الموات التي لا تفيد صاحبها ولا تنفع الناس .

إذا كنا قد أعرضنا عن هذا المقياس في حديثنا عن شعر أبي الفرج فإنا لن نعرض عن مقياس آخر هو من مذاهب المحدثين أيضا وجرى عليه أبو الفرج فأجاد وذلك هو مذهب الذين يعملون عن وعي وعن فهم للأمور حين يحاولون تأكيد الصلة بين الفن والحياة وخصائص هذا المذهب واضحة متميزة في شعر ابن المعتز ولقد زادها أبو الفرج وضوحا حين وقف ليدافع عن ابن المعتز وليرد عنه كيد الكائدين كما سبق أن ذكرنا .

والصلة بين الفن والحياة إنما تكشف عن نفسها عند هؤلاء الشعراء بأمور . تكشف في هذه الافتتاحيات التي تختلف كل الاختلاف عن افتتاحيات الأقدمين من الشعراء . وتكشف عن نفسها في تلك الموضوعات الشعرية التي تقطع من صميم الحياة . وتكشف عن نفسها أخيرا باللغة تلك التي تتحدد معانيها بالاستعمال لا بالمعاجم ولا باستعمالات الأقدمين من الشعراء .

وهذه الأمور أو هذه الخصائص واضحة كل الوضوح في شعر أبي الفرج فهو لا يقف بالديار ولا يصف الطريق والناقة وما لاقاه من غيت ومشقة في الأسفار وإنما يصف محالسه اللهو والطرب ويخلص منها إلى الممدوحين يطلب منهم ما يريد . يقول بين يدي المهلي ^(١) :

ويوم كمثل رداء العرو	س حسنا وطيبا إذا ما يشم
خلعت عذارى ولم أعتذر	ولم أحشم فيه من يحشم
وقابلت فيه صفاء الشما	ل بصفو الشمول وشجو النغم
فداؤك نفسى هذا الشتا	علينا بسلطانه قد هجم

ولم يبق من نشي درهم ولا من ثيابي إلا رمم
يؤثر فيها نسيم الهوا . وتخرقها خافيات الوهم
وأنت العماد ونحن العفا ة وأنت الرئيس ونحن الخدم

وقد يهجم أبو الفرج على موضوعاته هجومًا سريعًا دون مقدمات قد
تكلفه عناء السفر ومشقة الانتقال ومن ذلك قصيدته في الراضى أو في البريدى
فقد هجم فيها على موضوعه وذلك حيث يبدأ القصيدة بقوله (١) :

يا سماء أسقطى وبأرض مبدى قد تولى الوزارة ابن البريدى
جل خطب وحل أمر عضال وبلاء أشاب رأس الوليد

وليست الافتتاحيات أو المقدمات هي التي يذهب فيها أبو الفرج مذهب
المحدثين أو المجددين من الشعراء بل هو يمتضى معهم أيضا في الموضوعات
ومن هنا نراه لا يقصر همه على المدح والفخر والرثاء وما إلى ذلك من
موضوعات القدماء وإنما يذهب مذهب المحدثين أيضا في وصف الدواجن
والحديث عن الأليف من الحيوان ومن هنا نراه يرثى الديك (٢) . ويصف
القط (٣) . ويظهر أن أبا الفرج يصدر في وصفه للقط عن غرام خاص
بالقطط وعناية خاصة بتربيتها وهذا هو الواضح من حديث ابن الصبائي عن
زيارة جده وأبي على الأنبارى وأبي العلاء صاعد لآبى الفرج وعن مكانه
السنور من نفس أبى الفرج حتى ليغنى بتريته ويعالجه أن مرض (٤) وليس
أدل على هذه العناية من هذه الصورة الفنية التي يعرض فيها أبو الفرج مقدار
عنايته وعناية غيره بالقطط .

(١) ١٢٧ / ١٣ معجم الأدباء . ط . رفاعة

(٢) ٤٨٠ - ٤٨١ عيون النوارى لابن شاكر . مخطوطة رقم ١٤٩٧ تاريخ دار السكتب

(٣) ١٠٥ - ١٠٧ / ١٣ معجم الأدباء

(٤) ١٠٤ ، ١٠٥ معجم الأدباء

قرطقوه وشنفوه وحـلو هـ أخيراً وأولاً بالخضاب
فهو طوراً يمشى بحلى عروس وهو طوراً يخطو على عتاب
وليس أبو الفرج هو الذى يعنى وحده بالهر فيظهر أن تلك كانت عادة
كثير من الشعراء فى ذلك الوقت ومنهم ابن العلاف والصاحب بن عباد
فلكل منهما قصيدة فى رثاء الهر ويذكر الثعالبي أن الصاحب قد عارض
بقصيدته هذه قصيدة ابن العلاف (١).

أما الألفاظ وصلتها بالعصر والبيئة أو بعبارة أخرى صلتها بالحياة فليس
أدل عليها من قول أبى الفرج نفسه بصدد دفاعه عن ابن المعتز (فليس يمكن
واصفاً لصبوح فى مجلس شكل ظريف بين ندامى وقيان وعلى ميادين من
النور والبنفسج والرجس ومنضود من أمثال ذلك إلى غير ما ذكرته من
جنس المجالس وفاخر الفرش ومختار الآلات ورقة الخدم أن يعدل بذلك
عما يشبهه من الكلام السبط الرقيق الذى يفهمه كل من حضر إلى جعد الكلام
ووحشية وإلى وصف البيد والمهامه والظبي والظليم والناقة والجل والديار
والقفار والمنازل الخالية المهجورة ولا إذا عدل عن ذلك وأحسن قيل له
مسي ولا أن يغمط حقه كله إذا أحسن الكثير وتوسط فى البعض وقصر
فى اليسير وينسب إلى التقصير فى الجميع (٢) ..) وهو قول يربنا إلى أى حد
كان أبو الفرج يؤمن بالصلة بين الألفاظ والحياة . وشعره الذى قاله يؤكد
فهم أبى الفرج لهذه الصلة فليس فيه من وحشى الكلام قبل أو كثير بل لعل
مختارات أبى الفرج الشعرية فى كتاب الأغاني كانت تقوم هى الأخرى على
هذا الأساس ومن هنا لم يحتاج أبو الفرج إلى أن يقف ليشرح بعض القصائد
أو يروى لنا شرحها اللهم إلا فى القليل النادر الذى لا حكم له .

(١) ٣/٢٣ بتيمة الدهر، تاريخ أبى الفداء ج ٢ من ٣٦١ ، ٣٦٢ تحت عام ٣٤٨ هـ

(٢) ٩/١٤٠ أغاني . بولاق

يجرى أبو الفرج على مذهب المحدثين في الافتتاحيات وفي الموضوعات الشعرية وفي الألفاظ المختارة الحية التي يجرى عليها الاستعمال وليس كل هذا هو الذى يحدد الخصائص الفنية لأبى الفرج فهناك خصائص نعتبرها من خصائصه هو لا من خصائص مذهب المحدثين كما هو الحال فى الخصائص السابقة .

وخصائص أبى الفرج الفنية تفتى عند خاصتين أو عند ميزتين فئيتين كبيرتين الأولى دقة حسه والثانية طبيعته السمحة السهلة فعندها نستطيع أن نقبلين موهبة أبى الفرج الفنية وهى أسمى ما نريد الوقوف عليه من شعره . ودقة حس أبى الفرج هى التى مكنته من أن يشم ليوم الصفو والسرور ربحا طيبة وأن يرى له منظرأ حسنا فى قوله من الأبيات التى نقلناها آنفا .

ويوم كمثل رداء العرو س حسنا وطيبا إذا ما يشم
ودقة حس أبى الفرج هى التى مكنته من الإجادة فى فن الوصف أو فن التصوير الشعرى ومن هنا نرى صورته الفنية دقيقة وملينة بالحركة والحياة ويكفى فى الدلالة على ما نذهب إليه هذه الصورة من صور القبط .

ليث غاب خلقا وخلقاً فن لا ح لعينه خاله ليث غاب
نصب طرفه إزاء الزوايا وإزاء السقوف والأبواب
بفتضى الظفر حين يطفر للصبي د وإلا فظفره فى قراب
لا يرى أخبثيه عينا ولا يع لم ما جنتاه غير التراب
قرطوقه (١)

ودقة حس أبى الفرج هى التى مكنته من الإجادة فى فن الهجاء ذلك لأنه قد استطاع أن يشم الروائح السكرية المنقنة من حياة الأفراد وأن يكشف

عنها في لسان لاذع وشعر مؤلم موجه ومن هنا كان لكل من المهجوين حالاته الخاصة أو صفاته المعينة التي يضيق بها ويألم لها ويود أن يكون بينه وبين الكشف عنها آماد .

والذين هجاهم أبو الفرج كثيرون ولكن لكل منهم كما ذكرنا صفاته الخاصة التي تغيطه وتحققه والتي يجيئه أبو الفرج منها فهو يجيء المهلب من جانب الفقر وليس يخفى أن الرجل أيسر بعد اعسار .

أبعين مفقّر إليك رأيتني بعد الغنى فرميت في من حالي
لست الملوّم أنا الملوّم لأنني أملت للاحسان غير الخالق^(١)
ويجيء الأيدجي من جانب الأبنه والأيدجي من قضاة الشرع الذين لا يليق بهم ولا يصح أن يعرف عنهم أمثال هذه الصفات .

اسمع حديثي تسمع قصة عجباً لا شيء أطرف منها نهر القصصا
طلبت عكازة للوحل تحماني ورمتها عند من يخبا العصا فعصا
وكنت أحسبه يهوى عصا عصب ولم أكن خلته صبا بكل عصا^(٢)
ويجيء السيرافي من جهة العلم والمعرفة والعلم والمعرفة هما كل شيء في حياة السيرافي .

لست صدرا ولا قرأت على صد رولا علمك البكي بكافي
لعن الله كل شعر ونحو وعروض يجيء من سيراف^(٣)
ولعل الصورة الآتية التي صور بها أبا الحسن طازاد الكاتب تفصح عن قسوة أبي الفرج في الهجاء .

طازاد مشتق من الطيز فعد عن ذكر في الحوز
كأن رجله إذا مامشى مخنث يلعب بالشيز^(٤)

(١) ١٠٣ المصدر السابق (٢) ١٣٤ معجم الأدباء . ط . رفاعي
(٣) ٢/٢٨٢ يتيمة الدهر . ط . دمشق (٤) ١٣/١٠٩ معجم الأدباء

ويقول ياقوت في حق أبي الفرج وشعره . وله شعر جيد إلا أنه في الهجاء أجود وإن كان في غيره غير متأخر وكان الناس في ذلك العهد يحذرون لسانه ويتقون هجاءه ^(١) .

وهكذا نرى أن أبا الفرج كان يعتمد على دقة حسه ويستلهم هذا الحس المعاني التي يجب أن تذكر في شعره والصور التي توحى بما يرضى أو بما يغضب الناس .

أما طبيعته السمحة السهلة التي يصدر عنها الشعر دون تعمل أو تصنع فهي التي حالت بينه وبين المضي إلى آخر الشوط في الجري على مذهب أبي تمام وهي التي مكنته من أن يرسل القول في الشعر إرسالاً ويخرجه خالياً من كثير من التشبيهات والاستعارات التي لا تجيء عفواً وإنما تجيء عنوة واقتداراً ومن هنا كان شعره الذي ارتضاه معبراً عن نفسه وعن موسيقاها أو عن تلك الأنفاس التي تضطرب وتتحرك بتحريك الشعر واضطرابه دون أن يحجبها حاجب أو يحول بينها وبين الظهور تكلف في الشعر أو صناعة .

يقول أبو الفرج مستمعاً للمهلي ^(٢) .

رهنت ثيابي وحال القضا	دون القضاء وصد القدر
وهذا الشتاء كما قد ترى	عسوف على قبيح الأثر
يفادى بصر من العاصفا	ت أو دمع مثل وخز الإبر
وسكان دارك ممن أعسو	ل يلقين من برده كل شر
فهذي تحن وهذي تن	وأدمع هاتيك تجرى درر
إذا ما تملطن تحت الظلام	يعلن منك بحسن النظر
ولاحظن ريمك كالمجلي	ن شاموا البروق رجاء المطر
يؤملن عودى بما ينتظرن	كما يرتجى آتب من سفر

ويقول أبو الفرج متغزلاً (١).

يامن أطل بياب داره ويطول حبسى لانتظاره
وحياة طرفك واحوراره وجمال صدغك في مداره
لا حلت عمري عن هوا لك ولو صليت بحر ناره

ويقول واصفاً حاله (٢):

وإذا رأيت قتي بأعلى رتبة في شامخ من عزه المسترفع
قالت لي النفس العروف بفضلها ما كان أولاني بهذا الموضع

ويقول متحدثاً عن الدهر وأحداثه (٣):

الدهر يلعب بالفتى فيبيضه طورا ويجبر عظمه فيراش
وكذا رأينا الدهر في اعراضه ينحى وفي إقباله ينتاش

وهكذا نشعر في هذه المقطوعات بأن أبا الفرج إنما يصدر عن طبيعة واضحة سافرة تهيم له بحال القول وتشعره بأن الفن موهبة قبل أن يكون صناعة ولعل هذه الموهبة هي التي مكنت أبا الفرج من أن يختار هذه النصوص الشعرية من ذلك اللون السهل الذي لا يحتاج للشرح والتفسير إلا في القليل النادر.

(٤) ونترك هذه المسألة إلى الحديث عن النثر أو فن إيراد الخبر والقصة.

ولن نستطيع أن نعتمد على هذه الأخبار التي يرويها أبو الفرج في كل من الأغاني ومقاتل الطالبين في بيان الخصائص الفنية لأبي الفرج وليس ذلك إلا لأننا نعلم أن من تقاليد أبي الفرج في إيراد القصص والأخبار الحرص على الصور اللفظية التي أورد بها من يأخذ عنهم أو يروي لهم القصة والخبر وهذا هو الواضح من مواقف أبي الفرج في كتبه حين يتعدد الرواة وتختلف

الصور اللفظية فأنا نراه ينص في صراحة أن اللفظ في الخبر لفلان أو فلان كما ينص على الأسباب التي دفعته إلى اختيار هذه الصورة دون تلك مما سنذكره بتفصيل عند حديثنا عن الأداء في الباب الثالث إن شاء الله

نعم نحن نعلم أن أبا الفرج قد أورد في كتابه مقاتل الطالبين بعض الأخبار التي شاهد هو أحداثها وذلك من أمثال أخباره الواردة في نهاية الكتاب ولكننا نعلم أيضا أن هذه الأخبار لم تكن إلا اللفظات العابرة والاشارات السريعة التي لم يقصد منها إلى القص وإنما قصد منها لفت الذهن والإشارة إلى المعروف المتداول بين الناس وأنها لذلك لا تصلح أن تكون المواد الفنية التي نعتمد عليها في بيان هذه الخصائص .

إن ما بين أيدينا من نصوص صالحة لهذه المسألة قليلة جدا وهي تلك الأقاصيص الثلاث التي أوردتها ياقوت في معجمه نقلا عن كتاب أبي الفرج أدب الغرباء^(١) وهي نصوص أن دلت على شيء فإنما تدل على أن أبا الفرج لم يكن مغرما بالزينة اللفظية وبالإسجاع غرام معاصريه من أمثال المهلب وابن العميد والصاحب وإنما كان يرسل القول إرسالا ويقص وكأنه يتحدث إلى الناس ولا يكتب لهم ومن هنا لا نلج استعارة ولا تشبيها جاءت بها الصنعة وإنما هي التشبيهات القليلة النادرة التي تجيء عفوا والتي تستمد صورها الحية الناطقة من البيئة لا من صور الأدباء والشعراء . والقصة التالية وما فيها من شعر تفصح عما نذهب إليه أنهم إفصاح ولم تخترها إلا لأنها أكثر هذه الأقاصيص الثلاث من حيث الصور الفنية أو من حيث التشبيهات والاستعارات والشعر الذي يرد فيها يحمل نفس الطابع الذي يحمله النثر ويدل على هذه الخاصية الأدبية من خصائص أبي الفرج .

يقول أبو الفرج (وخرجت أنا وأبو الفتح أحمد بن إبراهيم بن علي

ابن عيسى - رحمه الله - ماضين إلى دير الثعالب للزئمة ومشاهدة اجتماع
النصارى هناك والشرب على نهر يزدرج الذي يجري على باب هذا الدير
ومعه جماعة من أولاد كتاب النصارى من أحداثهم وإذا بفتاة كأنها الديمار
المنقوش تمايل وتثني كغصن الريحان في نسيم الشمال فضربت بيدها إلى
يد أبي الفتح وقالت ياسيدي تعال اقرأ هذا الشعر المكتوب على حائط هذا
الشاهد فصيغنا معها وبنا من السرور بها وبظرفها وملاحة منطقتها ما الله به
عليم . فلما دخلنا البيت كشفت عن ذراع كأنه الفضة وأومات إلى الموضع
فاذا فيه مكتوب .

خرجت يوم عيدها	في ثياب الرواهب
فتنت باختيارها	كل جاء وذاهب
لشقاؤي رأيته	يوم دير الثعالب
تم ادى بنسوة	كاعب في كواعب
هي فيهم كأنها الب	در بين الكواكب

فقلت لها أنت والله المقصودة بهذه الأبيات ولم نشك أنها كتبت الأبيات
ولم نفارقها بقية يومنا وقلت لها هذه الأبيات وأنشدتها إياها ففرحت .

مرت بنا في الدير خمصانة	ساحرة الناظر فتانة
أبرزها الذكران من خدرها	تعظم الدير ورهبانه
مرت بنا تخطر في مشيها	كأنما قامت باه
هبت لنا ريح فالت بها	كما تثني غصن ريحانه
فتيمت قلبي وهاجت له	أحزانه قدما وأشجانه

وحصلت بينها وبين أبي الفتح عشرة بعد ذلك . ثم خرج إلى الشام وتوفي
بها ولا أعرف لها خبرا بعد ذلك ^(١) .

أما نثر أبي الفرج ذلك الذى يصور فيه الشعراء ومذاهبهم فى القول فهو نثر مركز موجز يلخص فى سطور ما يرويه أبو الفرج فى صفحات ونستطيع أن نعرض عليك صورة منه لنقبن إلى أى حد كان يحاول أبو الفرج البعد عن الزينة وعن الصناعة اللفظية .

يقول أبو الفرج فى حق الوليد بن يزيد (وكان الوليد بن يزيد من فتيان بنى أمية وظهر فائهم وشعرائهم وأجوادهم وأشدائهم وكان فاسقا خليعا متهما فى دينه مرميا بالزندقة وشاع ذلك من أمره وظهر حتى أنكره الناس فقتل وله أشعار كثيرة تدل على خبثه وكفره ومن الناس من ينفى ذلك عنه وينسكه ويقول أنه نحل وألصق إليه والأغلب الأشهر غير ذلك^(١))

وللوليد فى ذكر الخمر وصفاتها أشعار كثيرة قد أخذها الشعراء فأدخلوها فى أشعارهم سلخوا معانيها وأبو نواس خاصة فانه سلخ معانيه كلها وجعلها فى شعره فكررهما فى عدة مواضع منه ولولا كراهة التطويل لذكرتها ههنا على أنها تنفي عن نفسها^(٢))

هذه السمات الفنية التى تقوم على اليسر والسهولة هى التى يرجع إليها فيما نرى اختيار أبي الفرج للسهل من الأساليب القصصية والأخبارية حتى جاءت واضحة بینه لاعوج فيها ولا التواء ولا تكلف فيها ولا مشقة . ونستطيع الآن أن نترك حياة أبي الفرج لننتقل إلى الحديث عن الرواية عنده وذلك هو الباب الثالث .

(١) ٦/٩٩ الأغاني . ساسى . (٢) ١٠٧ المصدر السابق .

الباب الثالث

الرواية عند أبي الفرج

الفصل الأول

أبو الفرج وهل هو من الرواة

ذكرنا في التمهيد شيئا عن الفروق المميزة لكل من الراوى والمؤرخ واعتمدنا في بيان ذلك وفي الحديث عن صنيع كل منهما في المرويات على نصوص متأخرة . نصوص جاءت بعد عصر أبي الفرج بقرنين من الزمان أو يزيد . نصوص لكل من ابن خلدون وياقوت . وفي الميدان العلوى لا نستطيع أن نقول أن آراء هؤلاء أو أقوالهم تجرى على أبي الفرج ويؤخذ بها . بل نحن لا نستطيع أن نقول ذلك حتى ولو كان هؤلاء وأمثالهم من المعاصرين لأبي الفرج ومن البيئة التى كان يعيش فيها وذلك لأن أمثال هذه الأقوال لا تثبت فى رأينا إلا وجود النظرية أما أن يكون أبو الفرج قد آمن بها وجرى عليها فيما يقص من حالات أو فيما يروى من أخبار فذلك هو الأمر الذى لا نستطيع القول به حتى نرى هذه الظاهرة واضحة وضوحا يبيننا من صنيع أبي الفرج فى مروياته أو من قول نظرى بحريه ليثبت لنا ذلك أو يدلنا عليه وليس ذلك إلا لأننا نعتقد دائما أن كل عالم أو أديب إنما هو شخصية متميزة أن يكن لها من الصفات ما يشاركها فيها غيرها فان لها من الصفات ما يميزها عن غيرها وما يعتبر من الخصائص وما على الباحث الذى يريد العلم والحق إلا أن يبحث عن الظواهر وأن يفرد الخاص منها عن العام وأن يصور هذه الخصائص بالصورة التى تشعر

القارىء أنه أقام شخصية لها ذاتيتها الخاصة وكيانها المتميز أما أن تكون صورة هذه الشخصية هي الصورة العامة التي يطالعها القارىء في كل انسان فليس ذلك من دقة البحث في شيء وإنما هي الأقوال التي تلتقي على العواهن.

أبو الفرج شخصية متميزة لها مسلكها الخاص في إيراد المرويات وهو مسلك يشعرنا فيما ترى بالمذهب الذي كان يعتنقه أبو الفرج ويرينا في غير لبس إن كان أبو الفرج يجرى على مذهب الرواة أو يذهب مذهب المؤرخين وأبو الفرج واضح الدلالة في أنه كان يجرى على مذهب الرواة ولعل أول ما يطالعنا من هذه الدلالات أن أبا الفرج كان يحرص حرصا شديدا على ألا يفوته أى شيء مما يعرفه الناس فهو حريص على جمع كل ما قيل حتى ولو كان من المصنوعات والأكاذيب وإيس ذلك من مذاهب المؤرخين الذين يحرصون الخرص كله على الوقوف على الحقيقة وذكر ما يعتقدون أنه الحق.

والنصوص التي يفصح فيها أبو الفرج عن هذه الظاهرة كثيرة نستطيع أن نعرض منها ما يلي :

١ - جاء في الأغاني ، ومن حكى عنه أنه صنع في شعره وشعر غيره المنتصر . فاني ما ذكرت ما روى عنه أنه غنى فيه على سوء العهدة في ذلك وضعف الصنعة لثلاثين عن الكتاب شيء قد روى وقد تداوله الناس (١) .

٢ - وجاء أيضا ، ومن هذه سبيله في صنعة الغناء المعتر : بالله فاني لم أجد له منها شيئا إلا ما ذكره الصولي في أخباره فأنتيت بما حكاها لليلة التي قدمتها من أنى كرهت أن يخل الكتاب بشيء قد دونه الناس وتعارفوه (٢)

٣ - وجاء ، وهذا الخبر مصنوع من مصنوعات ابن السكلي والتوليد

فيه بين وشعره شعر ريك غث لا يشبه أشعار القوم وإنما ذكرته لئلا يخلو الكتاب من شيء قد روى (١) .

٤ - وجاء قال مؤلف هذا الكتاب . هذه الأخبار التي ذكرتها عن ابن السكبي موضوعة كلها والتوليد بين فيها وفي أشعاره وما رأيت شيئاً منها في ديوان دريد بن الصمه على سائر الروايات وأعجب من ذلك هذا الخبر الأخير فإنه ذكر فيه ما لحق دريد من الهجنة والفضيحة في أصحابه وقتل من قتل معه وانصرافه منفرداً وشعر دريد هذا يفخر فيه بأنه ظفر ببنى الحرث وقتل أمائلهم . وهذا من أكاذيب ابن السكبي وإنما ذكرته على ما فيه لئلا يسقط من الكتاب شيء قد رواه الناس وتداولوه (٢) .

٥ - وجاء وهذا الذي في أيدي الناس من النسب على اختلافهم فيه (٣) ، أبو الفرج إذا يجمع كل ما قيل يجمع الصادق وغير الصادق لأنه لا يريد أن يخلو كتابه من شيء يعرفه الناس ولو كان هذا الذي يعرفونه من المصنوعات والأكاذيب ، وتلك كما قلنا ظاهرة من الظواهر التي تلازم الرواة ولا تلازم المؤرخين .

نعم نحن نعلم أن أبا الفرج كان أحياناً يعقب على غير الصادق ولاكن ذلك لا يخرج من عداد الرواة ولن يدفع به إلى عداد المؤرخين وذلك لأن أبا الفرج لم يكن ليعقب على كل خبر كما أنه لم يقيم اختياره للأخبار على أساس الصدق والصحة بل نستطيع أن نقول أنه كان يقيم أساس الاختيار في كثير من الحالات على ما فيه متعة من كل ما هو من نسج الخيال أو من كل ما هو من الأكاذيب عند المؤرخين ويستتضح هذه المسائل جميعها في الفصول المقبلة إن شاء الله .

(١) ١٨/١٦٦ المصدر السابق . (٢) ٩/١٩ المصدر السابق .

(٣) ١/٧ المصدر السابق .

وظاهرة الجمع هذه جمع كل ما قيل حتى ولو كان من الأكاذيب قد أفادت أبا الفرج من حيث العلم بالصادق والكاذب من الأخبار والأشعار وإنا لنراه يعتمد على هذه الظاهرة في النقد وفي الدلالة على أن هذا الخبر كاذب وأن هذا الشعر لفلان أو فلان . ولعل في الخبر السابق الخاص بقصة دريد بن الصمه ما يدل على صحة هذا القول إذ نرى أبا الفرج ينص على أنه لم يجد شعر هذا الخبر في ديوان دريد على سائر الروايات .

على أن هذا الخبر التالي يدلنا دلالة قوية على مدى عناية أبي الفرج بالجمع والاستقصاء ومدى إفادته من هذه العناية في النقد وفي تصحيح الأخبار . يقول أبو الفرج ، وذكر يحيى بن علي بن يحيى عن إسحاق أن الشعر للأعشى وذلك غلط التمسناه في شعر كل أعشى ذكر في شعراء العرب فلم نجده ولا رواه أحد من الرواة لأحد منهم ووجدناه في شعر ابن المولى من قصيدة له طويلة جيدة وقد أثبتناها بعقب أخباره ليوقف على صحة ما ذكرناه إذ كان الغلط إذا وقع من مثل هذه الجهة احتيج إلى إيضاح الحججة على ما خالفه والدلالة على الصواب فيه ^(١) . وهو قول لا يحتاج كما ترى إلى تفسير أو بيان .

وثاني ما يطالعنا من الدلالات على أن أبا الفرج كان يذهب مذهب الرواة حرصه على إيراد الخبر والقصة كما وصلتته حتى ولو كان المعنى فاسداً أو الخبر مختلطاً غير صحيح الضبط وذلك هو الأمر الذي توضحه النصوص التالية .

- ١ - جاء في الأغاني بعد رواية أبي الفرج لخبر من الأخبار ، وأحسب أن هذا الخبر مصنوع ولكن هكذا أخبرنا به ابن أبي الأزر ^(٢) .
- ٢ - وجاء ، قال مؤلف هذا الكتاب . وهذا الخبر عندي مصنوع وشعره مضعف يدل على ذلك ولكني ذكرته كما وقع إلى ^(٣) .

(١) ٣/٨٥ أغاني . سامي .

(٢) ١١/٩٩ أغاني . سامي . (٣) ١/٩١ المصدر السابق

٣ - وجاءه قال مؤلف هذا الكتاب . إنما ذكرت الخبر الذي رواه الزيادى على ما فيه من التخليط لأنى إذا أتيت بالقصة ذكرت ما يروى في معناها . وهو خبر مختلط لأن عدى بن زيد^(١)

مذهب أبى الفرج إذن أن يروى القصة كما وصلت إليه والخبر كما وقع إليه ليس يعنيه صدق أو كذب بقدر ما تعنيه هذه الرواية ومن هنا كنا نراه فى بعض الأحيان يذكر القصة المصنوعة التى تخبئه من طرق عديدة وبأسانيد مختلفة يذكرها مع هذه الطرق وهذه الأسانيد مع اعتقاده بأنها من المصنوعات أو الأكاذيب ولعل خير ما يمثل هذه الحالة من حالات أبى الفرج قصة لأخبار جميلة فأنا نراه يقول . أخبرنى إسماعيل بن يونس . . . أخبرنى الحسن بن على . . . قالوا جميعاً أن جميلة حجت . . . وقد جمعت رواياتهم لتقاربها وأحسب الخبر كله مهنوعاً وذلك بين فيه^(٢) .

كما نراه فى مواقف أخرى يرجح رواية عن رواية لا لأنها أصح بل لأن اللفظ أتم وذلك من أمثال قوله . قال أبو الفرج ونسخت من كتاب لابى سعيد السكرى قال حدثنى ابن أبى قنن . . أخبرنى يحيى بن على بن يحيى بهذا الخبر مما أجاز لنا أن نرويه عنه عن أبى أيوب المدائنى عن ابن أبى الدواهى . وخبر السكرى أتم واللفظ له قال^(٣) وقوله . ونسخت من كتاب ابن النطاح عن الهيثم بن عدى وقد أخبرنا محمد بن العباس اليزيدى فى كتاب الجوابات قال حدثنا أحمد بن الحرث عن المدائنى إلا أن رواية ابن النطاح أتم واللفظ له قال^(٤) . .

وحرص أبى الفرج هذا قد يفيد الباحثين من ناحية التسلسل التاريخى لحياة الألفاظ ولحياة الأفكار والأخبار الأمر الذى لم نتم به بعد فى دراستنا الجامعية مع أنه الخطوة الأولى فى سبيل تفهم المسائل العلمية كانت أو أدبية .

(١) ٢/٣٣ المصدر السابق

(٢) ٧/١٢٨ المصدر السابق

(٣) ١٢/١٠٥ أغاني . بولاق

(٤) ١٥/٣ المصدر السابق

أما ثالث ما يطالعنا من الدلالات على أن أبا الفرج كان يذهب مذهب الرواة فهي روحه . تلك الروح التي تخالف روح معاصريه من المؤرخين من أمثال المسعودي ومسكويه ويحسن بنا قبل أن نصور روح أبي الفرج في موقفه من الأخبار التاريخية كانت أو أدبية أن نقف مع المسعودي لتقنين لنا روح الراوية في سهولة ويسر .

يقول المسعودي في مقدمة كتابه : وقد سمت كتابي هذا بكتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر لنفاسة ما حواه وعظم خطره ما استولى عليه من طوابع تواريخ ما ضمنته كتبنا السالفة في معناه وغرر مؤلفاته في مغزاه وجعله تحفة للأشراف من الملوك وأهل الديار لما قد ضمنه من جمل ما تدفع الحاجة إليه وتنازع النفوس إلى علمه من دراية ما سلف وغير في الزمان وجعلته منها على أغراض ما سلف من كتبنا ومشتغلا على جوامع يحسن بالعاقل الأديب معرفتها ولا يعذر في التغافل عنها ولم نترك نوعا من العلوم ولا فنا من الأخبار ولا طريقة من الآثار إلا وقد أوردناه في هذا الكتاب مفصلا أو ذكرناه مجملا أو أشرنا إليه بضروب من الإشارات أو لوحنا إليه بنجوى من العبارات فمن حرف شيئا من معناه أو أزال ركنا من مبدئه أو طمس واضحة من معالمه أو لبس شاهدة من تراجمه أو غيره أو بدله أو انتخبه أو اختصره أو نسبه إلى غيرنا أو أضافه إلى سوانا فوافاه من غضب الله وسرعة نقمته^(١)

هذا القول يرينا إلى أي حد يحرص المسعودي على ما في كتابه وهو حرص لم ينشأ إلا من اعتقاده أنه قد أورد ما يطمئن إليه أو ما يعتقد أنه الحق ومن هنا تهدد من يناله من أي الملل كان أو الآراء . وهو لم يكتف بهذا التهديد في أول الكتاب وإنما يذكره في آخره ويشير إلى ذلك في المقدمة وفي تنمة النص السابق وليس كل ذلك إلا ليحول بين الناس وبين التغيير والتبديل والانتخاب والاختصار وكل ذلك لا يصور إلا روح

المؤرخ الذى يرى أن ما جاء به هو الحق وما أورده هو الصواب ولو أن المسعودى كان يذهب مذهب الرواة لشعر بأنه لم يورد كل ما يمكن أن يورد ولا يعتقد أن فيما أورده ما هو من الأكاذيب والمصنوعات التى تقبل التعديل بتغيير وتبديل أو بانتخاب واختصار .

المسعودى مؤرخ يصور لنا لونا من المؤرخين فى القرن الرابع الهجرى أو فى النصف الأول منه هو ذلك اللون الذى لا يعتمد على الرواية ولا يحرص على نسبة الأقوال إلى قائلها والأخبار إلى رواتها وإنما يكتب ما يراه ما يعتقد أنه الحق وما يرى أنه الصواب .

وننتقل الآن إلى أبى الفرج لنلمس منه تلك الروح التى تسيطر عليه عند إيراد الرويات . وروح أبى الفرج فيما نرى هى روح الرواة الذين يروون الخبر وهم يتبرمون من العهدة ويروون الأخبار وهم لا يقصدون إلى أقواها إسناداً وإنما إلى أتمها ويروونها وهم يعلمون أنها فى حاجة إلى التعديل بالزيادة أو بغيرها ويروونها وقد حضوا غيرهم على ألوان من التعقيب والتصحيح ومن الإضافة أو الزيادة أن وقع الكتاب فى أيديهم ووقفوا على ما يحتاج إليه من قصة طريفة أو خبر جديد .

وروح أبى الفرج هذه هى التى تصورها هذه النصوص .

١ - جاء فى الأغاني : وأنا أذكر ما وقع إلى من أخباره جملاً مستحسنه متبرئاً من العهدة فيها فإن أكثر أشعاره المذكورة فى أخباره ينسبها بعض الرواة إلى غيره وينسبها من حكيت عنه إليه وإذا قدمت هذه الشريطة برئت من عيب طاعن ومتبع للعيوب (١) .

٢ - وجاء : وقد سمعت خبره من جهات عدة إلا أنه لم يخصصنى وقت كتبت هذا الخبر غيره وهو وإن لم يكن من أقواها على مذهب أهل الحديث إسناداً فهو من أتمها (٢) .

٣ - وجاء ، ونسخت من كتاب أحمد بن سعيد الدمشقي خبر الأحوص مع سلامه التي ذكرها في هذا الشعر وهو موضوع لا أشك فيه لأن شعره المنسوب إلى الأحوص شعر ساقط سخيف لا يشبه نمط الأحوص والتوليد بين فيه يشهد على أنه محدث والقصة أيضاً باطلة لا أصل لها ولسكني ذكرته في موضعه على ما فيه من سوء العهدة^(١) .

٤ - وجاء ، . وبعضها لم أعرف القائل له فأنتيت به كما وقع إلى فإن مربى بعد وقتي هذا أثبتته في موضعه وشرحت من أخباره ما اتصل بي وإن لم يقع إلى ووقع إلى بعض من كتب هذا الكتاب فمن أقل الحقوق عليه أن يتكلف إثباته ولا يستثقل تجشم هذا القليل فقد وصل إلى فوائد جمة تجشمناها له ولنظرائه في هذا الكتاب فخطى بها من غير نصب ولا كدح فإن جمال ذلك موفر عليه إذا نسب إليه وعيبه عنا ساقط مع اعتذارنا عنه^(٢)

٥ - وجاء ، وقد كنا وجدنا هذا الشعر في رواية على بن يحيى عن إسحق منسوباً إلى المرقش وطلبناه في أشعار المرقشين جميعاً فلم نجده وكنا نظنه من شاذ الروايات حتى وقع إلينا في شعر داوود بن سلم وفي خبر أنا ذاكره في أخبار داوود وإنما نذكر ما وقع إلينا عن روايته فما وقع من غلط فوجدناه ووقفنا على صحته أثبتناه وأبطلنا ما فرط منا غيره وما لم يجر هذا المجرى فلا ينبغي لقارئ هذا الكتاب أن يلزمنا لوم خطأ لم نتعمده ولا اخترعناه وإنما حكيتاه عن روايته واجتهدنا في الإصابة وإن عرف صواباً مخالفاً لما ذكرناه وأصلحه فإن ذلك لا يضره ولا يخلو به من فضل وذكر جميل إن شاء الله^(٣) .

وفرق فيما نعتقد بين روح أبي الفرج هذه وروح المسعودي السابقة فالمسعودي يذكر الحقيقة كما يراها وتلك روح المؤرخ وأبو الفرج يذكر المرويات كما وصلته ولو لم تكن من الحقائق ولو كانت باطلة ولا أصل لها

(١) ٨/٨٦ المصدر السابق .

(٢) ٨/١٤٤ أغاني . ساسي . (٣) ٥/١٣٥ أغاني . بولاق .

لأنه قد يراد بها إلى الإمتاع والمؤانسة وتلك روح الراوية .

ولعل من الخير لنا في هذا الموقف أن نذكر ذلك النص الذي يقف فيه ابن سلام من ابن إسحق موقف الناقد الذي لا ترضيه رواية ابن إسحق للأشعار فإن فيه ما يدل على الفرق الواضح الجلي بين روح المؤرخ وروح الراوية .

يقول ابن سلام : وكان بمن هجن الشعر وأفسده وحمل كل غناء محمد بن إسحق مولى آل مخزومة بن المطلب بن عبد مناف وكان من علماء الناس بالسيرة فنقل الناس عنه الأشعار وكان يعتذر عنها ويقول لا علم لي بالشعر إنما أوتى به فأحمله ولم يكن ذلك له عذراً فكتب في السير من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط وأشعار النساء فضلاً عن أشعار الرجال ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود أفلا يرجع إلى نفسه فيقول من حمل هذا الشعر ومن أداه منذ ألاف من السنين والله يقول وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى (١) .

ولست في حاجة إلى أن أدلل على أن اعتذار ابن إسحق يدل على روح الراوية فضلاً عن طريقته التي جرى عليها وأن روح ابن سلام روح المؤرخ الذي يبحث عن الحقيقة ويتحرى طرق الوصول إليها .

أبو الفرج راوية يحمل كل ما يصل إليه وليس بالمؤرخ الذي لا يذكر إلا ما يعتقد أنه الحق ويستتضح هذه المسألة في الفصول المقبلة إن شاء الله .

(١) ٤ طبقات الشعراء لابن سلام . ط . ليدن سنة ١٩١٦ .

الفصل الثاني

مرحلة التحمل

(١) وأولى المسائل التي يحسن بنا أن نفتتح بها الحديث عن هذه المرحلة مسألة السن التي يبدأ فيها الراوى بالتحمل . ومسألة السن هذه من المسائل التي يحتفل بها القدماء لما لها من صلة بالحالة العقلية التي يكون عليها الراوى . وليس يخفى أن لهذه الحالات العقلية أثرها القوي في قيام الثقة بالراوى . والاطمئنان إلى مروياته ولعله من هنا لا يرضى أصحاب علوم الحديث بالوقوف من هذه الحالات العقلية عند حد الصغر حيث يكون العقل غضا طرياً ولا عند حد السكبر حيث يكون العقل واهناً ضعيفاً وإنما يمتصون فيبحثون عما بين الصغر والسكبر من حالات . يبحثون عما يعتور العقل من خرف وجنون ومن سهو وغفلة ويرتبون على كل حالة أحكاماً هي الضابط لمدى ما تتمتع به المرويات من ثقة .

وأصحاب علوم الحديث يصدرون في مسألة السن هذه عن نظريتين فيما نرى . الأولى تلك النظرية التي نبئت بذورها يوم أن أصبحت الرواية علماً له أصوله التي يجب أن تتبع والتي تذهب إلى أن الراوى يجب أن يكون أهلاً للكتابة وللضبط حين التحمل حتى يطمئن الناس إلى مروياته . ومن عوامل عدم الأهلية عندهم البلوغ حتى لقد رفض بعضهم الأخذ بمن تحمل قبل البلوغ ولو أدى بعده ^(١) .

أما الثانية فهي تلك التي تجعل للتقاليد حكمها والتي تمضى على ما جرى عليه

العمل منذ عهد الرسول عليه السلام والتي تذهب إلى جواز تحمل الصبي لأن الرواة قد أخذوا عن أحداث الصحابة من أمثال الحسن بن علي وابن عباس وابن الزبير والنعمان ابن بشير وأشباههم من غير فرق بين ما تحملوه قبل البلوغ وما بعده ولأنهم لم يزالوا قديما وحديثا يحضرون الصبيان مجالس التحديث والسماع ويعتدون بروايتهم^(١).

نعم أن هناك من يحاول التوفيق بين الرأي النظري والواقع العملي وهؤلاء فيما نعتقد هم الذين أجازوا السماع في الصغر ولكنهم اشترطوا للكتابة والضبط شروطا في السن هي عشر سنين عند البصريين وعشرون سنة عند السكوفيين وثلاثون سنة عند الشاميين^(٢).

ولعل خير ما يذكر في هذه المسألة من وجهة النظر الشرعية هو ما ذهب إليه أحمد بن حنبل فقد سئل متى يجوز سماع الصبي الحديث؟ فقال إذا عقل وضبط فذكر له عن رجل أنه قال لا يجوز سماعه حتى يكون له خمس عشرة سنة فأنكر قوله وقال بثس القول^(٣).

وفصل ابن الصلاح هذا القول حين ينتهي إلى أن الذي ينبغي في ذلك هو أن يعتبر في كل صغير حاله على الخصوص فإن وجدناه مرتفعا عن حال من لا يعقل فهما للخطاب وردا للجواب ونحو ذلك صححنا سماعه وإن كان دون خمس وإن لم يكن كذلك لم نصحح سماعه وإن كان ابن خمس بل ابن خمسين^(٤).

تلك هي الأقوال أو هذه هي الأسس التي تفسر لنا بعض الشيء بحث أصحاب علوم الحديث لهذه المسألة ولو حاولنا أن نعرف أمر أبي الفرج لتبينت لنا الأمور الآتية :

(١) المصدر السابق

(٢) ٥٥ السكافية في علم الرواية للخطيب البغدادي (٣) ١٣٩ مقدمة ابن الصلاح

(٤) المصدر السابق

١ - أن أبا الفرج قد تحمل في بعض الأحيان وهو صغير أو وهو حديث السن على حد تعبيره وهو نفسه الذي يثبت هذا حين يقول تعليقا على خبر يرويه عن أبي جعفر بن رستم الطبري . (هذا حفظه عن أبي جعفر وأنا حديث السن فكتبته من حفظي واللفظ يزيد وينقص وهذا معناه ^(١))

ويظهر أن هذه لم تكن حال أبي الفرج وحده وإنما هو الأمر الذي يجري عليه الكثيرون فقد جاء في الأغاني (وحدثني أحمد بن عبيد الله بن عمار قال كنا نختلف إلى أبي العباس المبرد ونحن أحدث نكتب عن الرواة ما يروونه من الآداب والأخبار وكان يصحبنا قتي . الخ ^(٢)) .

وتفسير هذه الظاهرة ليس بالغريب إذا تذكرنا أن الرواية كانت من الأساليب الشائعة في التربية والتعليم في ذلك الوقت وليس يخفى أن التعليم يبدأ به في سن الحداثة كما أنه ليس يخفى أن كثيرين من المؤلفين يعتمدون في التأليف والتصنيف على المعلومات والمعارف التي حصلوا عليها وقت الطلب .

٢ - أن أبا الفرج قد جلس لإملاء كتاب مقاتل الطالبين سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة ^(٣) .

لسكن ليس معنى ذلك أن أبا الفرج قد أنهى مرحلة التحمل اللهم إلا إذا كان ذلك فيما يخص كتاب مقاتل وحده ذلك لأن نعلم أن مرحلة التحمل أشبه بمرحلة جمع المعلومات والمواد لتأليف الكتب وأنها تتجدد كلما هم الراوى برواية لون من الأخبار جديد .

إن مرحلة التحمل إنما تنتهى بالنسبة إلى كل خبر عند الفراغ من تحمله وتنتهى بالنسبة إلى كل كتاب عند الفراغ من تأليفه ولعله من هنا كان حرص أصحاب علوم الحديث على بحث الحالات العقلية عند رواية كل خبر وكان قولهم برد حديث أهل الغفلة^(١) . وبيحث حال من كان يفسخ وقت القراءة^(٢) وليس هناك من حالات يثبتونها من أمر أبي الفرج إلا أنه كان خلط قبل أن يموت^(٣) . ولستنا نعرف بطبيعة الحال إن كان أبو الفرج قد فرغ من التأليف في ذلك الوقت أو لا ؟ ولستنا نعتقد أن ما بين أيدينا من كتب قد أرخ بعضه وهو كتاب الأغاني وأن هذا الأخير قد أخرج للناس وقرأه بعض الطلاب على صاحبه كما سبق أن ذكرنا . ومضمون هذا كله أن ما بين أيدينا من مرويات لأبي الفرج إنما كان من روايته قبل أن يصيبه هذا التخليط .

* * *

(ب) وثاني المسائل التي نغنى بها من مرحلة التحمل مسألة المصادر التي يأخذ منها أبو الفرج أو يتحمل عنها . وأبو الفرج يأخذ عن مصدرين كبيرين هما الكتب والرجال ويظهر لنا من حديث أبي الفرج في مقدمة كتابه مقاتل الطالبين عن التدوين أن عصر الرحلة في سبيل الجمع والتدوين كان قد انقضى أو كاد . وأن الشيوخ في عصره كانوا يعتمدون على مجهودات السابقين قباهم من الرواة . ومن هنا نراه يعتذر عن تقصيره في رواية أخبار آل أبي طالب جميعا بخلو عصره من أمثال السابقين . يقول أبو الفرج (وعلى أنا لانفتي من أن يكون الشيء من أخبار المتأخرين منهم فالتناولم يقع إلينا لتفرقه في أقاصى الشرق والغرب وحلولهم في نائى الأطراف وشاسع المحال التي

(٢) ٦٦ المصدر السابق

(١) ١٤٧ السكافيه في علم الرواية

(٣) ١١/٤٠٠ تاريخ بغداد .

يتعذر علينا استعلام أخبارهم فيها ومعرفة قصصهم لاستبطانهم إياها سيما مع قصور زماننا هذا وأهله وخلوه من مدون الخبر أو ناقل الأثر كما كان المتقدمون قبلهم يدونون ويصنفون وينظمون ويرصفون^(١) .

وكثرة السكتب التي يصدر عنها أبو الفرج وكثرة النصوص التي يأخذها عن بعض هذه السكتب تؤذن لنا بالقول بأنه في هذا العصر قد بدأ السكتب يزاحم الشيخ ويحاول أن يحل محله في الرواية أو في الأداء . ولقد فطن ابن النديم وهو المعاصر لابن الفرج إلى هذه الظاهرة من حياة أبي الفرج العلمية وأشار عند ترجمته له إلى أن أكثر مروياته إنما أخذت عن السكتب ولم تأخذ عن الرجال^(٢) . بل لعل وجود هذه الظاهرة في كتب أبي الفرج وبخاصة الأغاني هو الذي يفسر لنا ما يقال من أن صاحب بن عباد كان يستصحب حمل ثلاثين جملا من كتب الأدب ليطالعها فلما وصل إليه كتاب الأغاني لم يكن بعد ذلك يستصحب سواه استغناء به عنها^(٣) .

وإحلال السكتب محل الشيخ إنما نشأ عن انتشار الكتابة والاعتماد عليها في الضبط ومن إهمال شأن الحفظ الأمر الذي سنقف عنده في الفصل المقبل إن شاء الله .

والظواهر التي يحسن بنا أن نقف عندها من حيث هذه المصادر هي التالية أولا . أن هذه السكتب التي يعتمد عليها أبو الفرج ليست كلها من الأصول الجياد أو من السكتب الأمهات . وأن هؤلاء الرجال الذين يكثر من الأخذ عنهم ليسوا جميعا من الرواة الممتازين أو من الشيوخ الكبار فأنا إذا وجدنا من السكتب الجياد كتب أبي العباس ثعلب واليزيدى وابن الأعرابي وأبي عمرو الشيباني وابن حبيب السكري والمبرد وقدامة بن جعفر وابن المعتز وإسحق الموصلي وغيرها فأنا واجدون إلى جانبها كتباً أخرى

(١) مقاتل الطالبين . ط . مصر

(٢) ١٦٦ ، ١٦٨ فهرست لابن النديم . ط . مصر

(٣) ٤٦٣ وفيات الأعيان . باريس سنة ١٨٣٨

يعدّها أبو الفرج نفسه قليلة التحصيل ضئيلة الفائدة من أمثال كتب يحيى المسكى وحش وابن خرداذبه والكتاب المنسوب إلى إسحق وغيرها .

والظاهرة نفسها موجودة في الرجال فإذا ما وجدنا من الرواة الممتازين أو من شيوخهم محمد بن جرير الطبري ومحمد بن القاسم الأنباري ومحمد بن العباس اليزيدي وعلي بن سليمان الأخفش والفضل بن الحباب الجمحي وابن دريد وابن عمار ونفطويه وأحمد بن سعيد الهمداني وعلي بن العباس السكوني وحرى بن أبي العلاء وكثير غيرهم فأنا واجدون إلى جانبهم من ليسوا بالشيوخ على الإطلاق وإنما هم من الندماء وصغار الكتاب والرجال العاديين الذين يعون الحوادث ويذكرونها .

هذه الظواهر المتعلقة بالكتب والرجال كانت معروفة لدى بعض المؤرخين ونقده الرجال من المعاصرين لأبي الفرج ولقد عابوا أبا الفرج من أجلها ووصل الأمر ببعضهم أن رماه بالكذب . جاء في تاريخ بغداد : حدثني أبو عبد الله الحسين بن محمد بن القاسم بن طبا طبيا العلوي قال سمعت أبا محمد الحسن بن الحسين النوبختي يقول : كان أبو الفرج الأصهباني أكذب الناس كان يدخل سوق الوراقين وهي عامرة والدكاكين مملوءة بالكتب فيشتري شيئاً من الصحف يحملها إلى بيته ثم تكون رواياته كلها منها^(١) . كما تراهم يتهمونه من حيث الرجال بالانساع في الرواية^(٢) .

ونحن لا نستطيع أن ننقد أبا الفرج من حيث نقده هؤلاء ذلك لأننا نعلم أنا ندرس أبا الفرج من حيث هو راوية ونحن نعلم أن من شأن الرواة جمع كل ما قيل حتى لو لم يكن مروياً عن شيوخ ممتازين أو مأخوذاً عن أصول جياذ .

على أنا نستطيع أن نذكر هذا الصنيع لأبي الفرج بالخير . نذكره

(١) ١١/٣٩٩ تاريخ بغداد للخطيب .

(٢) ٠٠ المصدر السابق

لا على أنه من الرواة الذين يحرسون على جمع كل ما قيل بل على أنه من الذين يؤرخون للحياة الفنية والحياة الاجتماعية للبيئة التي كان يعيش فيها وليس يخفى أن الأسلوب الصحيح لمثل هذا التاريخ إنما يقوم أولا وقبل كل شيء على الجمع والاستقصاء وأن الذين يكتفون في مثل هذا التاريخ بالجياد من الكتب والممتازين من الرجال إنما يخطئون وليس ذلك إلا لأن الممتازين من الرجال لا يمثلون إلا أنفسهم وأن الجياد من الكتب لا تمثل إلا العقلية الناضجة والذوق الفني الرفيع . إن هؤلاء جميعا إنما يمثلون الحياة الفكرية والحياة الاجتماعية من القمة أما الوسط وأما السطح فلا يمثله إلا كتب المرتبة الثانية والثالثة وإلا رجال لا يمكن عدم من الكبار أو الممتازين . ومن هنا يكون أبو الفرج بصنيعه هذا قد أدى خدمات يشكر عليها ولا يلام من أجلها . لأنه قد حرص على تراث الأوساط من الناس .

ثانيا : قد يأخذ أبو الفرج عن غير الممتازين من الرواة وعن غير الجياد من الكتب ولكنه يتوخى العدالة والقدرة على الضبط . وبعبارة أخرى يتحرى الصادق من الأخبار ولا يأخذ إلا عن الثقات . لكن أبا الفرج لم يفعل شيئا من ذلك وإنما روى عن الثبت الثقة وعن غيره وأورد في كتبه الصادق والكاذب من الأخبار وبظهر لنا من بعض النصوص التي يوردها أبو الفرج في كتاب الأغاني أن هذا الأمر أو هذا النساھل لم يكن خاصا بأبي الفرج وإنما كان الأمر الذي يجري عليه الاخباريون الأدباء . جاء في الأغاني : أخبرني الحسن بن علي قال حدثنا ابن مھرويه قال حدثنا إبراهيم بن الجنيد قال سألت يحيى بن معين عن محمد بن منذر الشاعر فقال لم يكن بثقة ولا مأمون رجل سوء نفي من البصرة ووصفه بالمجون والخلاعة فقلت إنا نسكتب شعره وحكايات عن الخليل بن أحمد فقال هذا

نعم وأما الحديث فلست أراه موضعاً له^(١) .

ويظهر لنا أن هذه الظاهرة توجد أيضاً فيما هو من باب الأخبار والأقاصيص من الأحاديث فأنا نرى من الرواة من يتساهل في مرويات هذا اللون من الأخبار . جاء في مقدمة ابن الصلاح : يجوز عند أهل الحديث وغيرهم التساهل في الأسانيد ورواية ماسوى الموضوع من أنواع الأحاديث الضعيفة من غير اهتمام ببيان ضعفها فيما سوى صفات الله تعالى وأحكام الشريعة من الحلال والحرام وغيرها وذلك كالمواعظ والقصص وفضائل الأعمال وسائر فنون الترغيب والترهيب وسائر ما لا تعلق له بالأحكام والعقائد .

ومن رويناه عنه التنصيص على التساهل في نحو ذلك عبد الرحمن بن مهدي وأحمد بن حنبل رضي الله عنهما^(٢) . بل نرى من فرق المسلمين من يجيزون وضع الأحاديث إذا كان المقصود منها العظة والعبرة أو الترغيب والترهيب بالاطمئاع في الجنة والآخرة من النار^(٣) .

ووجود هذه الظاهرة ظاهرة التساهل عند الأخباريين هو الذى دفع أصحاب علوم الحديث إلى عدم الأخذ عن كتبهم فيما يتعلق بالرجال بل هو الذى دفعهم إلى عدم الأخذ عن كتب المحدثين الذين يذهبون مذهب الأخباريين . يقول ابن الصلاح بصدد الحديث عن الكتب التى ألفت في شأن الرجال : ومن أجلها وأكثرها فوائد كتاب الاستيعاب لابن عبد البر لولا ما شأنه به من إيراد كثير مما شجر بين الصحابة وحكاياته عن الأخباريين لا المحدثين . وغالب على الأخباريين الاكثار والتخليط فيما يروونه^(٤) .

(١) ١٧/٢٩ أغاني . ولاق (٢) ١١٣ ابن الصلاح

(٣) ١٣٣ الكفاية في علم الرواية ، ١١٠ ابن الصلاح

(٤) ٢٥١ ابن الصلاح

وتفسير هذه الظاهرة ليس بالعسير إذا نظرنا إلى المسألة على أساس الخطر الذى يترتب على هذه المرويات فالأقاصيص مثلاً أو الأخبار الأدبية قد تتراد للفكاهة واللامتاع والمؤانسة وهنا يصبح الخطر قليلاً أو لا خطر على الإطلاق ونشعر أنه قد أصبح من غير اللازم أن تكون الأحداث قد وقعت وأن تكون الأخبار والأقاصيص من واقع هذه الحياة فأنما المطلوب من كل هذه الأشياء أن تمتع وأن تؤنس ويستوى بعد ذلك أن تكون من واقع الحياة أو أن تكون من نسج الخيال .

وكذلك الأمر فى أحاديث الترغيب والترهيب فأنما المقصود منها استثارة الانفعال وتربية العاطفة الدينية وكل ذلك لا يتطلب أمراً قد وقع فأنما يؤدى إليه المثل والقصة وما هو من هذا الميدان .

أما الأخبار التى يقصد منها إلى التاريخ وأما الأحاديث التى يقصد منها إلى التشريع فهى التى تتطلب النقد القوى والعناية الكبرى وهى التى يجب أن تقوم فيها الرواية على أساس من الدقة والضبط يدفعنا إلى الثقة ويوحى بالاطمئنان ولعله من هنا تشدد قوم فى رواية الحديث إلى الحد الذى جعل مروياتهم منه قليلة جداً الأمر الذى وقف عنده ابن خلدون وأطال^(١) .

على أن هناك أمراً آخر يجب ألا تغفله فى هذا المواطن وهو التقاليد التى جرى عليها رواة الأدب والأخبار الأدبية والنسب من قبل فلقد جرى هؤلاء منذ العصر الجاهلى على عدم اشتراط ما يعرفه أصحاب علوم الحديث من عدالة وضبط إذ كانت رواية الشعر عندهم نوعاً من التعليم وكانت رواية الأنساب والأخبار نوعاً من الشائعات التى تشيع فى البيئة والتى يعرفها أكثر الناس ويعبرون عنها بعبارات تلائم أمزجتهم وبصيغ تسعفهم دون العناية

(١) راجع من حيث الأخبار من ١ - ٢٤ ومن حيث الأحاديث ٣١١ ، ٣١٢

في كل ذلك بنقد أو تمحيص حتى لقد روى أبو الفرج نفسه فيما يخص الأنساب خبراً عن النبي عليه السلام يقلل من قيمتها ويجعلها غير أهل لأن يعتمد عليها في قضايا الشرع أو قضايا الدين^(١). ولسنا في حاجة إلى أن ندل على أن أمثال هذه الشائعات لا تعتبر مصدراً قيماً من مصادر التاريخ.

ثم هناك الضرورات التي دفعت الرواة إلى قبول الأخبار من غير العدول. وماذا يفعل الرواة حين يكون الشهود الذين شهدوا الأحداث أو الذين وقعت منهم الأحداث من المجان والفساق ومن الخلقاء والمتهمين منهم وخدمهم الشهود وإن مروياتهم وحدها هي التي تصور ما كان. فضلاً عن أنها الأخبار القيمة للامتناع والموانسة وأنهم لا بد حافظون لهذه الأخبار وراوون لها ومعرضون عن تلك الصفات التي يتطلبها أصحاب علوم الحديث في رواته. إنه من هنا فيما نعتقد ذهب ابن قتيبة إلى ما ذهب إليه حين قال: «واعلم أنا لم نزل نتلقط هذه الأحاديث في الحداثة والاكتهال عن هو فوقنا في السن والمعرفة وعن جلسائنا وإخواننا ومن كتب الأعاجم وسيرهم وبلاغات السكتاب في فصول من كتبهم وعن هو دوننا غير مستنكفين أن نأخذ عن الحديث سناً لحداثته ولا عن الصغير قدراً لخساسته ولا عن الأمة الوكعاء لجهلها فضلاً عن غيرها فإن العلم ضالة المؤمن من حيث أخذه نفعه ولن يزرى بالحق أن تسمعه من المشركين... فأما علم الدين والحلال والحرام فأنما هو استبعاد وتقليد ولا يجوز أن تأخذه إلا عن تراه لك حجة ولا تقدح في صدرك منه الشكوك... وسينتهي بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة وما روى عن الأشراف والأئمة فيهما فإذا مر بك أيها المتزمت حديث تستخفه أو تستحسنه أو تعجب منه أو تضحك له فاعرف المذهب فيه وما أردنا به^(٢)».

(١) ١/٧ أغاني . سامي

(٢) س، ع، ل . عيون الأخبار . ط . دار السكتب

أن التقاليد والضرورات وإن تفرقة الأقدمين بين خطر الحديث حين يكون للتشريع وخطره حين يكون للعظة والعبرة . وإن المقاصد التي تقصد من إيراد الأقاصيص والأخبار من أمتاع ومؤانسة . أن كل ذلك هو الذي أباح للأخباريين من الأدباء التساهل وعدم التشدد بل أن الامتاع والمؤانسة هو الذي دفعهم إلى إيراد المصنوعات والآكاذيب ووضع الأقاصيص . جاء في الأغاني (أخبرني محمد بن خلف بن المرزبان قال حدثني أبو العيناء قال سئل الأصمعي عن شعر تبع وقصته ومن وضعهما فقال ابن مفرغ^(١)) . كما جاء فيه أيضا صور للكيفية التي يضع بها بعض الندماء والرواة أمثال هذه الأقاصيص . أخبرني عمي أبو عبد الله قال سمعت رجلا سأل أبا العبر عن هذه المحالات التي لا يتكلم بها أي شيء أصلها قال أبكر فأجلس على الجسر ومعى دواة ودرج فأكتب كل شيء أسمعه من كلام الزاهب والجانئ من كلام الملاحين والمسكارين حتى أملأ الدرج من الوجهين ثم أقطعه عرضا وألصقه بخالفا فيجىء منه كلام ليس في الدنيا أحق منه^(٢) .

ولعله من أجل هذا الضحك احتاج الخلفاء إلى الندماء وإلى أخبار الحمقى والمغفلين والطفيليين ومن إليهم ولعله من أجل الامتاع والمؤانسة وضع الأقدمون من الأدباء أخباراً وأقاصيصاً أشار صاحب الأغاني إلى بعضها وذلك من أمثال قصص جميلة^(٣) . وقصص المجنون^(٤) بل أشار صاحب الأغاني إلى أن هناك كتباً قد وضعت بتمامها وذلك من أمثال هذا الكتاب الذي يشير إليه عند حديثه عن علي بن آدم بقوله (هو رجل من تجار أهل الكوفة كان يبيع البز وكان متأدبا صالح الشعر يهوى جارية يقال لها نهلة واستهام بها مدة ثم بيعت فأت أسفا عليها . وله حديث طويل في

(٢) ١٩ / ٩١ المصدر السابق

(٤) ١٦١ — ١ / ١٦٤ المصدر السابق

(١) ٥٢ / ١٧ أغاني . سامي

(٣) ١٢٨ / ٢ المصدر السابق

كتاب مفرد مشهور صنعه أهل السكوفة لهما فيه ذكر قصصهما وقتنا وقتنا
وما قاله فيها من الأشعار وأمرهما متعالم عند العامة وليس مما يصلح
الاطالة به (١).

على أن هذه المصنوعات نفسها يستفاد منها من حيث هي مصدر من مصادر
الحياة العقلية والفنية من حيث أنها تفسيرات لظواهر مختلفة أو من حيث
أنها تصوير لما يحس به الأديب من مشاعر. وللاحساس حكمه في تصوير
الآلام والآمال حتى لو كانت كواذب في حكم العقل والمنطق ولهذا الصور
دلالته على الحياة التي كانت تحياها الجماعات وعلى ما تصبو إليه من مثل
وما تضيق به من آلام.

* * *

وثلاثة المسائل التي نقف عندها من مسائل مرحلة التحمل هي مسألة
الاسناد. وحرص أبي الفرج على الاسناد واضح في كتابيه الاغانى والمقاتل
وهو حرص قد لا يتلام وتساوله في المرويات وأخذه عن الكذبة وتدوينه
للمصنوعات لأن الاسناد ما وجد إلا ليحول بين الرواة وبين أن يخذعوا
فيرووا الأكاذيب أو الموضوع من الاخبار والأقاصيص. ولذا كان
لابد لنا من هذه الوقفة لرى رأينا في أبي الفرج فهل كان حرصه على
الاسناد لتسكون الصحة في النقل أو كان لأمر آخر يقصد ويراد؟

إن الإجابة عن هـذا السؤال تتطلب منا بحث تاريخ الاسناد. بحث
نشأته والغرض منه والدور الذي يلعبه في المرويات.

والاسناد نشأ أولاً في أحضان الدين وفي بيئة المحدثين والفقهاء وينص
أصحاب علوم الحديث على أنه خصيصة شريفة من خصائص الأمة الإسلامية.

جاء في مقدمة ابن الصلاح أصل الاسناد أولا خصيصة فاضلة من خصائص هذه الأمة وسنة بالغة من السنن المؤكدة رويها من غير وجه عن عبد الله ابن المبارك أنه قال الاسناد من الدين لولا الاسناد لقال من شاء ما شاء وطلب العلو في سنة أيضا ولذلك استجبت الرحلة فيه (١).

وكان الغرض منه فيما هو واضح من أواخر النص السابق ومنه قول سفبان الثوري : لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التواريخ (٢) ، . الخيلولة بين الكذبة من الرواة وبين أن يكون لأحاديثهم الموضوعات أثر في توجيه الحياة التشريعية في الاسلام لاسيما وهم يؤمنون بأن الحديث هو المصدر الثاني من مصادر الشريعة الاسلامية وأنه مفسر ومبين للقرآن .

وهذا الغرض الذي من أجله كان الاسناد لم يوجد في الحياة إلا حين بدأ المسلمون بجمع الأحاديث وتدوينها وحين وجدوا فيما يجمعون لونها من الاختلاف قد يصل أحيانا إلى حد التعارض والتباين وحين عملوا على إزالة هذا الاختلاف بالتوفيق أولا وبالفسخ ثانيا وبالترجيح ثالثا ومن عوامل الترجيح الثقة بالرواة ومن هنا كان السند وكانت إقامة السلاسل وكانت السلسلة الذهبية (٣)

هذه النشأة كما ترى كانت يوم أن أصبحت الرواية علما له رسومه وأصوله التي يجب أن تتبع وكانت تقتضي التطبيق في عهدين عهد سابق على نشأتها وعهد لاحق لهذه النشأة حيث يبحثون حال الرواة الأولين فيرجحون رواية العدل الثقة الضابط وحيث يبحثون حال الرواة المتأخرين فلا يأخذون إلا عن العدول الثقات الضابطين .

(٢) ٣٨٢ المصدر السابق

(١) ٢١٥ ابن الصلاح

(٣) ١١ المصدر السابق

هذه الحالات لم تسكن لتستمر وإنما كان من المفروض أن تنتهى بانتها
التدوين تدوين كل ما صدر عن الرسول عليه السلام ونقده نقداً بين
الصحيح من الزائف ويكشف عن الموضوعات من الأحاديث . وهذا هو
الذى قد كان فقد أحس الرواة وأصحاب علوم الحديث بأن الاسناد قد
أدى مهمته وأنهم قد فرغوا مما احتاجوا إليه من أجله وأنهم لا حاجة بهم
إليه بعد اليوم لسكنهم مع كل هذا أبقوا عليه لأسباب يذكرونها حين
يقولون : قال البيهقي . فمن جاء اليوم بحديث لا يوجد عند جميعهم لم يقبل
منه ومن جاء بحديث معروف عندهم فالذى يرويه لا ينفرد بروايته والحجة
قائمة بحديثه برواية غيره والقصد من روايته والسماع منه أن يصير الحديث
مسلسلاً بحديثنا وأخبرنا وتبقى هذه الكرامة التي خصت بها هذه الأمة ،^(١)
وحين يقولون : إذا وجدنا فيما يروى عن أجزاء الحديث وغيرها حديثاً
صحيح الاسناد ولم نجده في أحد الصحيحين ولا منصوصاً على صحته في
شيء من مصنفات أئمة الحديث المعتمدة المشهورة فانا لا نتجاسر على جزم
الحكم بصحته فقد تعذر في هذه الأعصار الاستقلال بإدراك الصحيح
بمجرد اعتبار الأسانيد لأنه ما من اسناد من ذلك إلا وتجد في رجاله من
اعتمد في روايته على ما في كتبه عربياً عما يشترط في الصحيح من الحفظ
والضبط والاتقان فآل الأمر إذا في معرفة الصحيح والحسن إلى الاعتماد
على ما نص عليه أئمة الحديث في تصانيفهم المعتمدة المشهورة التي يؤمن فيها
لشهرتها من التغيير والتحريف وصار معظم المقصود بما يتداول من الأسانيد
خارجاً عن ذلك إبقاء سلسلة الاسناد التي خصت بها هذه الأمة^(٢) . . . وحين
يقولون : أعرض الناس في هذه الأعصار المتأخرة عن اعتبار مجموع

ما بينا من الشروط في رواية الحديث ومشايخه فلم يتقيدوا بها في رواياتهم لتعذر الوفاء بذلك على نحو ما تقدم وكان عليه من تقدم ووجه ذلك ما قدمناه في أول كتابنا هذا من كون المقصود المحافظة على خصيصة هذه الأمة في الأسانيد والمحاذرة من انقطاع سلسلتها . . . وقد سبق إلى نحو ما ذكرناه الحافظ الفقيه أبو بكر البيهقي رحمه الله تعالى فإنه ذكر فيما رويناه عنه توسع من توسع في السماع من بعض محدثي زمانه^(١) .

الإبقاء على الاسناد لم يكن فيما يروى البيهقي ومن يذهب مذهبه من أصحاب علوم الحديث لبيان صحة النقل ومعرفة الصحيح من الحسن من الأحاديث فتلك مهمة قد فرغ منها الرواة الأولون وإنما كان ذلك إبقاء على تلك الخصيصة الشريفة التي اختصت بها هذه الأمة .

إذا عرفنا هذه المسائل استطعنا في سهولة ويسر أن نفهم نظرية الاسناد في الأدب وفي الأخبار وأن نقدر أو نفرس لماذا أعرض الأدباء والأخباريون عن اعتبار مجموع الشروط التي يشترطها أصحاب علوم الحديث في رواية الحديث ومشايخه . واستطعنا أن نقدر تبعاً لذلك موقف أبي الفرج من الاسناد وكيف أنه وقف عند الاسناد موقفاً يخالف الكثيرين ممن سبقوه أو عاصروه من الأدباء والأخباريين .

حاول الأدباء والأخباريون عند تدوينهم للنصوص الأدبية والأخبارية تطبيق نظرية الاسناد في ميدانهم لنفس الأسباب التي وجدت عند المحدثين وهي الاختلاف بين المرويات . ولقد كان الاختلاف في هذا الميدان أكبر وأضخم لأن التراث في نفسه واسع المدى فهو أكثر طولاً وعرضاً بعيد المسافات الزمنية وشامع الأطراف المكانية . ثم أن الرواة أنفسهم كانوا من القلة بحيث يعجزون عن أن يجاروا المحدثين من حيث القيام بالعمل فلقد

كانت عواطفهم نحو عملهم أضعف من عواطف المحدثين وكانت كثرة المحدثين العددية والنهي الموجود عندهم عن وضع الأحاديث والوعيد الذي تهددهم به النبي عليه السلام كل ذلك جعل ميدان الاختلاف أضيق في الحديث عنه في الأخبار والآداب .

حاول الاخباريون تطبيق نظرية الإسناد في الأخبار والآداب ولكنهم لم يفتخوا من ذلك إلى نتيجة علمية محققة ويرجع ذلك فيما نرى إلى جملة أسباب نذكر منها أولاً . طول المدة الزمنية وذلك لأن المحدثين حينما طبقوا نظرية الإسناد على رواية الأحاديث في العهد السابق لنشأة هذه النظرية وجدوا أمامهم زمناً ليس بالطويل وأجيالاً من الرجال ليسوا بالعديدين . فالزمن هو العهد بين النبي عليه السلام وبين عصر الجمع والتدوين الذي بدىء به في آخر العصر الأموي أو في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز وهو عهد لا يتجاوز القرنين وهي أجيال لا تتجاوز الثلاثة في أغلب الأحيان .

على أن المحدثين قد حاولوا رد هذه المدة الزمنية إلى ما يقرب من قرن وذلك بحرصهم على العلو في السند وجعلهم الصحابة جميعا من العدول^(١).

أما رواة الأدب والأخبار فقد وجدوا أمامهم أجيالا كثيرة وقرونا متطاولة قد ترجع بهم لا إلى العصر الجاهلي فحسب بل إلى خلق العالم وإلى سرد قصص حول آدم وابنيه قابيل وهابيل وإلى رواية أشعارهم وأخبار لمن جاء بعدهم من الأنبياء عليهم السلام .

على أنا لو وقفنا فقط عند العصور التاريخية الجاهلية والإسلامية والأموية
لوجدنا أزمنة متطاولة وأجيالا من الرجال ولشعرنا بأن إقامة الاسناد عملية

شاقة عسيرة إن لم تكن مستحيلة ومن هنا نفهم لماذا وقفت السلاسل في كتب الأدب والأخبار الأدبية في الغالب عند الرواة الأولين الذين قاموا بالجمع والتدوين من أمثال أبي عبيدة والأصمعي وأبي عمرو بن العلاء ومن إليهم وفي كتاب الأغاني صور واضحة لأخبار هذه العصور تمثل هذه الظاهرة ويستطيع من يشاء أن يرجع إليها في قص أبي الفرج لأخبار أيام العرب وفي ترجمته لكثير من الشعراء من أمثال المرقش الأكبر وأعشى همدان والوليد بن عقبة وأبي قطيفة والخطيئة وتأبط شرا وعبد بن الطيب وغيرهم.

وإذا كان لا بد لنا من كلمة نقولها قبل الانتقال إلى الحديث عن سبب آخر غير هذا فإنا نقول إنه كلما اقتربنا من عصر أبي الفرج كانت إقامة السلاسل أسير وكلما كان المترجم له قريبا من عصر أبي الفرج كان النقل أصح

ثانياً - هناك ضرورة ثانية دعت الرواة إلى عدم العناية بالسند أو إلى إهماله في قبول المرويات . هي قلة الأخبار التي تروى حول بعض الشخصيات فلقد كانت هذه العلة سببا قويا من الأسباب التي دفعت الرواة إلى تقبل كل ما يقال وتلقيه بالبشر والترحاب وذلك واضح في ترجمة أبي الفرج لبعض الشخصيات فلقد كان الرجل لا يجد ما يرويه في بعض الحالات وكان في بعضها الآخر لا يجد إلا خبرا أو خبرين وليس من المعقول أن يهمل أمثال هذه الأخبار وأن يشترط في رواها العدالة والقدرة على الضبط والتحرى . أنه في موقف يدعو إلى الأخذ وإلا ظلت الشخصية غامضة أو مجهولة غير مصورة ونور باهت خير من ظلام دامس أو من جهالة عمياء . وإذا أردنا أن نصرب لذلك المثل أشرنا إلى هذه النصوص من كتاب الأغاني . يقول أبو الفرج بصدد حديثه عن محمد نعيجه : ولم أجد لهذا المغني خبراً ولا ذكراً في موضع من المواضع أذكره .^(١)

ويقول بصدد حديثه عن عبد قيس بن خفاف البرجمي «وأما عبد قيس
ابن خفاف البرجمي فاني لم أجد له خبراً أذكره إلا ما أخبرني به قدامة
ابن جعفر قال . . . » (١)

إن قلة أمثال هذه الأخبار هي التي دفعت الرواة إلى قبولها من غير
العدل الثقة من الكافر المشرك ومن الأمة ومن الغلام الصغير وبعبارة
أخرى دفعتهم إلى تقبل كل ما يقال حتى ولو كان هذا الذي يقال من
الشائعات وفي الأغاني صور لأمثال هذا عند ترجمته لكثير من الشعراء
كذي الرمة وتأبط شراً والصعاليك . بل نستطيع أن نعد تدوينه لأخبار
أيام العرب في الجاهلية ولأخبار بعض الجاهليين كان من قبيل تدوين
الشائعات ولقد نص أبو الفرج على ذلك عند ترجمته لعبد الله بن هارون
ابن السميدع (٢)

وإذا كان لا بد لنا من كلمة نقولها أيضاً في هذا الموقف فأنا نقول .
يجب أن نحذر الشائعات فلا نبني عليها أحكامنا التاريخية ويجب أن نقدر في
كل موقف نفقه قيمة كل خبر وأن نذكر دائماً الأصل القائل . الضرورات
تبيح المحظورات .

ثالثاً — والسبب الذي يجب أن نعتني به في هذا المقام هو أن الاسناد
في باب الحديث وما يترتب عليه من صحة في النقل يلزم أمراً ويصل
بالباحث إلى نتيجة هي الإيمان بالحقيقة الشرعية ووجوب العمل بها تدعو
إليه ومن هنا كان حرص الأقدمين من الفقهاء على الحذر في قبول المرويات
من الأحاديث . أما في باب الأخبار فلن يثبت تطبيق النظرية في أحكام

ودقة أكثر من صحة النقل ولا شيء وراء ذلك من وجوب العمل بمقتضى ما يدعو إليه الخبر أو المروى الأمر الذى نجده فى الأحاديث . ولعله من هنا كانت التفرقة بين المحدثين والاختباريين لأن الحقيقة الشرعية لا تقاس بالعقل عند أصحاب النقل من الفقهاء وليس ذلك إلا لأنها من الشارح الحكيم . أما الحقيقة الاختبارية فتخضع لحكم العقل والمنطق وتقاس بهما وليس ذلك إلا لأنها أولا وأخيرا خبر من الأخبار وهى شهادة من شخص تحوز عليه الغفلة ويجوز عليه الخطأ والنسيان مهما يقل فى شأنه من عدالة ومن قدره على الضبط . ولقد فطن بعض الاختباريين القدماء إلى هذه الفروق ووقف بعضهم عندها طويلا وإنا لنرى ابن قتيبة يقول (حدثني أبو الخطاب . . . عن ابن عباس قال خذوا الحكمة من سمعتموها منه فإنه قد يقول الحكمة غير الحكيم وتسكون الرمية من غير الرامى وهذا يكون فى مثل كتابنا لأنه فى آداب ومحاسن قوم ومقابح أقوام والحسن لا يلتبس بالقيح ولا يخفى على من سمعه من حيث كان فأما علم الدين والحلال والحرام فإنما هو استبعاد وتقليد ولا يجوز أن تأخذه إلا عن تراه لك حجة ولا تقدر فى صدرك منه الشكوك ^(١)) .

ونستطيع أن نحيلك فى هذه المسألة إلى مقدمة ابن خلدون فى الفصل الأول منها بيان واف عن هذه المسألة وأمثلة تقرر هذه الحقيقة وتطلعنا على كثير من الأخطاء التى وقع فيها كثير من المؤرخين الأقدمين .

هذه الأسباب مجتمعة ومضافا إليها ما سبق أن أشرنا إليه من تساهل المحدثين فيما هو من باب القصص والأخبار ومن تساهل الاختباريين فيما

(١) ع مقدمة عيون الأخبار . ط . دار الكتب .

هو من باب الامتناع والمؤانسة كل ذلك قد دفع بعض الاخباريين إلى التهاون في إقامة الاسناد والاعتداد على هذه النظرية في إيراد النصوص وفي قص الاخبار . يقول ابن عبد ربه (وحذفت الأسانيد من أكثر الاخبار طلباً للاستخفاف والإيجاز وهرباً من التثقيب والتطويل لأنها أخبار ممتعة وحكم ونوادير لا ينفعها الاسناد باتصاله ولا يضرها ما حذف منها وقد كان بعضهم يحذف أسانيد الحديث من سنة متبعة وشرعة مفروضة فكيف لا تحذفه من نادرة شريفة ومثل سائر وخبر مستطرف . (١) .

ويذكر ابن عبد ربه عن الأصمعي ما يفيد أنه كان لا يعتمد كثيراً على نظرية الاسناد هذه (وروى الأصمعي خبراً فسئل عن اسناده فقال هو من الآيات المحكمات التي لا تحتاج إلى دليل وحجة (٢)) .

وكان نفطويه يقول (ما رأيت أحفظ للأخبار بغير أسانيد من المبرد وأبي العباس ابن الفرات (٣)) .

ونستطيع أن نضم إلى ما تقدم مانعرفه عن ابن سلام والمرزباني صاحب معجم الأدباء فقد كان كل منهما يروى الاخبار الأدبية من غير اسناد .

كان من صنيع بعض الاخباريين إيراد المرويات بغير أسانيد للعوامل المتقدمة ذكرها . ولكن بعضهم الآخر ومنهم أبو الفرج كانوا حريصين على الاسناد . وحرص أبي الفرج عليه واضح في الأغاني والمقاتل لاسيما في بعض المواطن التي يشعر فيها أبو الفرج بأن في الاسناد نقصاً إذ نراه

(١) ١/٤ العقد الفريد . ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) ٥ المصدر السابق . (٣) ١٩/١١٢ معجم الأدباء . ط . رفاعي .

يقف ليدل على هذا النقص أو يشير إليه وذلك من مثل مواقفه في المواطن الآتية :

١ - أخبرنا أبو خليفة عن محمد بن سلام موقوفا عليه لم يتجاوزہ إلى غيره ^(١)

٢ - وحدثني به محمد بن عمران المؤدب بإسناد لست أحفظ الاتصال بينه وبين السكابي فيه ^(٢).

٣ - وما وجدت هذا الشعر في دواوين عمر بن ربيعة التي رواها المدنيون والمسكيون وإنما يوجد في الكتب المحدثه والاسنادات المنقطعة ^(٣)

٤ - وجدت في كتاب الشاهيني بغير اسناد ^(٤)

٥ - وأخبرني الصولي أيضا بغير اسناد ^(٥).

٦ - وجدت في بعض الكتب بغير اسناد ^(٦).

٧ - ووجدته أيضا في بعض الكتب بغير هذا الاسناد عن الأصمعي ^(٧).

٨ - نسخت من كتاب محمد بن العباس اليزيدي بخطه يآثره عن خالد ابن كلثوم بغير اسناد متصل بينهما أن رجلا . . . الخ ^(٨)

هذا الحرص من أبي الفرج على إيراد الأخبار والأقاصيص مسندة في سلاسل من الرواة لا يمكن أن يعلل بأن أبا الفرج كان يرى في الإسناد

- | | |
|-------------------------|-------------------------|
| (١) ٩/١٠ أغاني . سامي | (٢) ١٦/٧٢ المصدر السابق |
| (٣) ١٩/٥٢ المصدر السابق | (٤) ٨/٢١ المصدر السابق |
| (٥) ٩/٩٧ المصدر السابق | (٦) ١١/٣٥ المصدر السابق |
| (٧) ١٥/٥٧ المصدر السابق | (٨) ١١/٨٧ المصدر السابق |

دليلاً على صدق الخبر في ذاته لأن أبا الفرج نفسه يروى قصصاً فنية وأخباراً مصنوعة وبديل هو على مكان الصنعة فيها بالسند المتصل في بعض الحالات ثم لأنه كان يورد الأخبار أحياناً لا لقوة السند بل لتمام الأخبار ومن هنا كان يعرض أو يتهاون في شأن الاسانيد فلا يتعب نفسه بالبحث عنها كما هو الواضح من الخبر الذي حدثه به محمد بن عمران المؤدب السابق ذكره ومن الخبر التالي ، وقد سمعت خبره من جهات عدة إلا أنه لم يحضرني وقت كتبت هذا الخبر غيره ، وهو وإن لم يكن من أقواها على مذهب أهل الحديث إسناداً فهو من أتمها ^(١) .

شأن أبي الفرج إذا في إيراد الاسناد أنه كان من رواة الحديث وكان من رواة الأخبار الدينية . ولقد قلنا أن هؤلاء بعد أن فرغوا من عملية الجمع والتدوين أبقوا على الاسناد لا لأنه يؤدي مهمة علمية أو غرضاً نقدياً وإنما حرصاً على هذه الخصيصة الشريفة التي خصت بها الأمة الإسلامية وهذا هو الواضح من صنيعة في كتيبه .

وإذا كان لا بد لنا من كلمة نقولها في هذا الموقف فهي أنه يجب ألا يخذعنا إيراد الأخبار مسندة في كتاب الأغاني ، وإنما يجب علينا أن نقف عند كل خبر لنسبر غوره ونقيسه بمقياس الحقائق التاريخية ذلك المقياس الذي أشار إليه ابن خلدون في المقدمة والذي فصله كل من الأستاذ أسد رستم والدكتور حسن عثمان الأول في كتابه مصطلح التاريخ والثاني في كتابه منهج البحث التاريخي .

رابعا — أما الرابعة فتلك التي تخص حالات الحمل ومراتبه .

والحديث عن هذه الحالات وهذه المراتب ليس إلا الحديث عن الصلات التي تكون بين الشيوخ وبين الطلاب حين يتعاونون على إيراد المرويات وتبليغها للناس . وهو حديث لا يكون من حيث ما يشترط في الشيوخ من عدالة ولا من حيث ما يشترط في الطلاب من قدرة على الضبط والتحرى وإنما يكون من حيث القصد في التروية أى القصد في أن يأخذ الطلاب عن الشيوخ وأن يرووا عنهم .

والحديث عن هذا القصد يجرى في كتب أصحاب الحديث من حيث ما يأتي :

١ - يجرى أولاً من حيث الحالات التي كان عليها التحمل فيجرى حول التحديث والإمام والقراءة على الشيخ . ويجرى حول المكاتب والإجازة والمناولة . ويجرى حول الأعلام والوصية بالسكتب والوجادة . يجرى حول هذه الحالات لبيان مدى ما تفصح به كل واحدة منها عن القصد في التروية .

٢ - ويجرى ثانياً من حيث المصطلحات اللغوية التي يعبر بها عن كل حالة من هذه الحالات فيبحثون عن مسدولات أخبرنا وحدثنا وسمعت وقال وذكر الخ .

٣ - ويجرى ثالثاً حول المرتبة التي تحتلها كل حالة من هذه الحالات السابقة من حيث القصد فكل حالة يكون القصد فيها أوضح وأبين تكون أقوى وأشد ويكون الإيمان بالمرويات أوجب والعمل بمقتضاها ألزم ومن هنا نراهم يجعلون التحديث أقوى من الإجازة والمكاتب أقوى من الوجادة وهكذا .

ونحن لا نريد في هذا الموقف أن نتحدث عن هذه المسائل جميعها .
لا نريد أن نقف عند كل واحدة منها لنبحثها وندرس الآراء التي تدور
حولها ونردها إلى المدارس التي فيها نشأت والمذاهب التي عنها صدرت ثم
ننتهي من كل ذلك إلى ما يبين وجهة نظرنا في هذه المراتب من حيث هي
حالات في النقل وفي الرواية . حالات تدفع إلى الثقة بالمرويات وتدعو إلى
الإيمان بقضاياها . لا نريد أن نفعل شيئا من ذلك لعدة أسباب :

أولها - أنا ونحن جميعا نعلم أن المذاهب الفسكزية لا تنشأ في يوم وليلة
وأن المصطلحات العلمية لا تستقر في لحظة وساعة لا نستطيع الانتهاء من
من هذه المسائل إلى نتائج علمية محققة ولها خطرهما في ميدان البحث العلمي
إلا بعد درس هذه المسائل جميعها من جديد وإلا بعد إقامة هذا الدرس على
أساس من البحث التاريخي . لا بد لنا أولا من درس الرواية والرواة . درس
كيف نشأت الرواية وكيف عسد الرواة الأولون طريقها ويسروا سبلها
ووضعوا الأسس التي قامت عليها الغالبية العظمى مما نرى في كتب أصحاب
علوم الحديث من قواعد وتقاليد .

لا بد لنا من درس الآراء الكثيرة فردية وجماعية ولا بد من درس
المذاهب والمدارس في البيئات المختلفة كيف نشأت ؟ وكيف نمت وترعرعت
وكيف تسلطت فدفعت بالباحثين إلى لون معين من التفكير وإلى لون بذاته
من القيم تقاس به المرويات وتوزن ؟

لا بد لنا من هذا الدرس وإلا عجزنا عن تفسير كثير من الظواهر
وقعدنا حيارى أمام كثير من المسائل وأنى لنا أن نفسر ذهابهم إلى أن
المسموعات أقوى من المكتوبات وأن التحديث أفضل من المسكاتبة بل
أفضل من القراءة على الشيخ دون أن نفهم النشأة الأولى للرواية وكيف

كانت وسيلتها السماع وأداة ضبطها هي الحفظ . لقد كانت الأمانة أمية ولم يكن لها من وسيلة غير ما تقدم . وظل الحال على هذا سنين متطاولة حتى انتصرت الكتابة وحتى أصبحت وسيلة الضبط في الرواية يجرى القوم عليها كما يجرون على السماع والحفظ . لكن بقي لهذين السلطان وظل القوم يفضلون السماع أو يفضلون التحديث على الكتابة وليس لهذا التفضيل من تعليل أو تفسير إلا بفهم هذه النشأة وبالوقوف على هذه التقاليد .

إن التقاليد وحدها هي التي تفسر لنا هذه المسائل ولا نستطيع فهم هذه التقاليد إلا بعد درس الرواية والرواة على أساس من البحث التاريخي الأمر الذي يحتاج إلى بحوث وإلى تضافر جهود ولا تنفع فيه الفقر أو الفقرات ومن هنا كان إعراضنا عن هذه البحوث في هذا المقام .

ثانياً - أنا مع تسليمنا ولو على سبيل الفرض الجدلي بصحة ما يذهب إليه الأقدمون من أصحاب علوم الحديث من تصوير للرواية والرواة وللدارس والمذاهب وللبيئات الحجازية والكوفية والشامية . إلخ . . . لا نستطيع أن نعتمد على بحوثهم في هذا المقام لأنها بحوث نشأت عند المحدثين ولم تنشأ عند الإخباريين وتقاليد أولئك غير تقاليد هؤلاء ومن هنا لا تكون هذه الدراسات أو الاعتماد عليها منتجة في هذا المقام .

نعم نحن لا ننكر أنها الدراسات التي قامت حول النقل وصحته وأن هذه الدراسات لا غنى عنها في ميدان الأخبار من حيث هي وسائل للنقل ولكننا نعلم أن هذه الوسائل حين تكون الحالات والمراتب تكون قليلة النفع عديمة الجدوى في ميداننا هذا .

أن الإيمان بالمرويات ووجوب العمل بمقتضاياتها في ميدان الحديث إنما يجيء من صدورهما عن الشارع الحكيم عن الذي لا ينطق عن الهوى

وعمن قوله لا يجيئه الباطل من بين يديه ولا من خلفه حتى ولو لم يخضع هذا المروى لحكم العقل وقواعد المنطق عند أصحاب الرواية من الفقهاء والمشرعين. ومن هنا تكون صحة النقل ضرورة من الضرورات. ومن هنا تكون المفاضلة بين المرويات. ومن هنا تجيء المراتب ويكون لكل مرتبة حكمها. وتجرى الأمور في هذا الميدان على أساس أنه كلما تأكدت صحة النقل زادت الثقة بالمروى ووجب الإيمان به والعمل بمقتضاه. أما في ميدان الأخبار فلا شيء من ذلك لأن الأخبار إنما تصدر عن غير الشارع الحكيم تصدر عن الذى قد ينطق عن الهوى وقد يجيء حديثه الباطل من بين يديه أو من خلفه ومن هنا لم يجب الإيمان بالمروى حتى تثبت صحة النقل ومن هنا كانت للإخباريين مقاييس أخرى التفت ابن خلدون إلى بعضها ودرس كل من أسد رستم والدكتور حسن عثمان كثيراً منها كما سبق أن أشرنا ومن هنا لا تجد الحديث عن المراتب والحالات في هذا المقام جليل النفع عظيم الخطر.

ثالثاً — إننا لم نعقد هذه الفقرة إلا لبيان الخصائص والتقاليد التى كان يجرى عليها أبو الفرج في مروياته من حيث هذه الحالات والمراتب. ومن هنا يجب أن نقف عندها وأن نعنى بها فإن خرجنا فإلى ما يفسر ظاهرة أو يوضح قاعدة ما دام أبو الفرج قد جرى على أساليب المحدثين في إيراد الأخبار. أما أن نمضى بعد ذلك فنحكم على هذه المرويات بالصدق وتلك بالكذب والوضع لأن هذه وسيلتها التحديث وآلة ضبطها هى الحفظ وتلك وسيلتها المسكوبة وآلة ضبطها هى الكتابة أو لأن هذه فى المرتبة الأولى وتلك فى الثالثة فأمر خارج عن عملنا.

أبو الفرج من الإخباريين الذين يذهبون مذهب المحدثين فى الرواية

وأوضح خصائص هذا المذهب إنما تظهر عند أبي الفرج من دقته في تصويره للحالات التي قامت عليها رواية الأخبار ومن حرصه في بيان القصد في الرواية . وتلك الدقة وهذا الحرص إنما يظهران بوضوح من النصوص التالية .

١ — حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد على سبيل المذاكرة لحفظته عنه لم أكتبه من لفظه والحديث يزيد وينقص والمعنى واحد . . . (٤٠٨ مقال)
٢ — حدثني على بن إبراهيم العلوي عن نفسه أو رواه عن غيره أنا أشك قال . . . (٤٥٩ مقال)

٣ — حدثنا محمد بن العباس اليزيدي على سبيل المذاكرة قال . . . (٣٣٨ مقال)

٤ — وحدثني بعض أصدقائنا عن أبي بكر بن دريد ولم أسمع منه قال . . . (١٥/١٥٠ أغاني ساسي)

٥ — أخبرني عبد الله بن الربيع أبو بكر الربيعي صديقنا رحمه الله قال حدثني وسواسه بن الموصلى وقد لقيت وسواسه هذا وهو أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم وكان معلماً ولم أسمع هذا منه فسكت به وأشياء أخرى عن أبي بكر رحمه الله . . . (٦/١٥ أغاني ساسي)

٦ — أخبرني عمي والحسن بن علي ومحمد بن يحيى وجماعة من أصحابنا وأظن أيضاً جمحظه حدثنا به قالوا . . . (١٥/٩٨)

٧ — حدثنا محمد بن جرير . قرأه عليه . قال . . . (٦/٩٧)

٨ — وأخبرني أبو خليفة فيما كتب به إلى عن محمد بن سلام . . . (١١/٧٥)

٩ — أخبرني جعفر بن محمد بن عبيد بن عتبة في كتابه إلى قال . . . (١٥/١٢١)

- ١٠ - كتب إلى علي بن العباس المقانعي قال ... (٤٨٤ . مقاتل)
- ١١ - أخبرني أبو جعفر أحمد بن محمد بن نصر الضبعي اجازة قال ..
(١١ / ٢٩) أغاني . ساسي) .
- ١٢ - أخبرني محمد بن يزيد اجازة عن حماد بن اسحاق ... (١ / ١٤٨)
- ١٣ - قال الزبير بن بكار فيما أجاز لنا الحرمي بن أبي العلاء والطوسي روايته عنهما مما حدثا به عنه (١١ / ٥٢) .
- ١٤ - نسخت من كتاب أبي عبد الله اليزيدي ولم أقرأه عليه قال ...
(١١ / ٩٤) .
- ١٥ - ونسخت من كتاب أحمد بن الحرث الخراز ذلك ولم أسمعه إلا أن عيسى بن الحسين دفع الكتاب الذي نسخت هذا منه إلى وقال لي هذا كتاب أحمد بن الحرث ... (٣٩٠ ، ٣٩١ مقاتل) .
- ١٦ - نسخت من كتاب لمحمد بن داوود الجراح خبره ذكر أن عبد الله بن سليمان السجستاني دفعه إليه وأخبره أنه سمعه من عمر بن شبة وأجاز له روايته ... (٢٠ / ١٥٩) .
- ١٧ - نسخت من كتاب أحمد بن الحرث مما أجاز لي أبو أحمد الحريري روايته عنه ... (٤ / ٨٠) .
- ١٨ - نسخت خبره في ذلك من كتاب محمد بن الحسن بن دريد ولم أسمعه منه قال ... (١٧ / ١٠٧) .
- ١٩ - فن ذلك نسخت من كتاب أعطانيه أبو الفضل العباس بن أحمد ابن ثوابه رحمه الله بخط اسحاق في قرطاس وأنا أعرف خطه وجواب لابراهيم بن المهدي ... (٩ / ٦٩) .

٣٠ - ونسخت من كتاب لاسحاق بن ابراهيم الموصلى فيه اصلاحات بخطه والكتاب بخط النضر بن حديد من أخبار عبد الله بن الزبير وشعره . . (١٣ / ٤٢) .

٢١ - أخبرنى بخبرها محمد بن ابراهيم قريش أن ابن المعز دفع إليه كتابه الذى ألفه فى أخبارها وقال له أن يرويه عنه فنسخت منه ما كان يصلح لهذا الكتاب على شرطى . . . (١٤ / ١٠٥) .

٢٢ - نسخت من كتاب جدى لأمى يحيى بن محمد بن ثوابه بخطه ... (١٣ / ٣٢٠٨) .

٢٣ - نسخت من كتاب لآبى العباس بن ثوابه بخطه . . . (١٧ / ١٣٧) .

٢٤ - ونسخت من كتاب للشاهينى بخطه . . . (٢٠ / ١٦٢) .

٢٥ - وجدت فى كتاب على بن محمد بن نصر عن جده حمدون ابن اسماعيل ولم أسمع من أحد أن ابراهيم بن المهدي . . . (٦ / ١٤) .

٢٦ - ووجدته فى بعض نسخ الكوفيين عن سليمان بن الربيع . . . (١٦ / ٩٣) .

٢٧ - ووجدت فى كتاب مؤلف فى النغم غير مسمى الصانع . . . (٨ / ٤٤) .

٢٨ - وجدت ذلك فى كتاب محمد بن عبد الله الحزنبلى . . . (٢٠ / ١٧٤) .

٢٩ - ونسخت هذا الخبر أيضا من بعض الكتب . . . (١٦ / ١٦٣) .

٣٠ - ونسخت بعضه من كتاب منسوب إلى الهيثم بن عدى . . . (١ / ١١) .

ولو مضينا فى سرد المرويات التى يحرص أبو الفرج فى روايتها على

بيان الحالات والمراتب والتي يكثر فيها من القيود ليسكون البيان واضحا والوصف دقيقا لما انتهينا إلا بعد المئات من الصفحات ولعل في الأمثلة السابقة ما يرينا مدى عناية أبي الفرج بهذه الحالات والمراتب وبتطبيقه لأسلوب المحدثين في الرواية وإذا كان هناك من كلمة ننصح بها القارىء فهي أنه يجب أن يضع نصب عينيه دائما أن تطبيق أبي الفرج لأساليب المحدثين في روايته للأخبار لا يعنى دائما أن أبا الفرج كان يصنع ذلك ليضع بين يدي القارىء لكتبه أنواعا من السلاسل وألوانا من الأسانيد يستطيع أن يفاضل بينها حتى يصل إلى الحقيقة فأبو الفرج إنما يفعل ذلك لأن هذه كانت التقاليد التي يجرى عليها بعض الرواة وهي التقاليد التي جاءت من اشتغاله أول عهده بالحياة برواية الحديث ويقف أبو الفرج من كل هذا عند هذا الحد وليس أدل على ذلك من أنه يروى النوادر المصنوعة على طرق المحدثين مع إيمانه بأنها نادرة مصنوعة يقصد منها إلى الاضحاك وإلى الامتاع والمؤانسة وذلك هو الذى كان من جمحظه مع ابن القصار فانا نرى أبا الفرج يقول : « ومن طيب ما ثلث به جمحظه وتنادر عليه به . وأراها مصنوعة أنه . . . »^(١) وغيرها كثير .

والألفاظ الاصطلاحية التي يعبر بها أبو الفرج عن الحالات والمراتب كثيرة وهي واضحة بينه وليس منها ما يحتاج إلى مزيد من البيان غير أخبر فانها التي كانت تستعمل في ذلك الوقت استعمالا غير التي جرى بها العرف العام عند المحدثين فيما بعد ونستطيع أن نعرض الآن بعض هذه الألفاظ . ونبدأ من ذلك بما يجعلونه من المرتبة الأولى وهي حالات التحديد والاملاء وأبو الفرج يستعمل في ذلك حدث مضافة إلى ضمير المفرد أو ضمير

الجمع ولا تدل حدث في كل مرة على القصد في الترويه فقد تكون في بعض الحالات معبرة عن السماع فقط وذلك هو الواضح من تحديث أبي الفرج عن غير الشيوخ من الرواه من أمثال العباس بن أحمد بن ثوابه^(١) وحكيم ابن يحيى^(٢) أولئك الذين كان يروى عنهم أخبار الأحداث التي شاهدوها بأنفسهم . كما قد تكون معبرة عن التلقى ويكون إلى جانبها صيغة أخرى تدل على الحالات والمراتب من مثل قوله حدثنا محمد بن جرير الطبري قرأته عليه قال^(٣) ..

وقد يعبر عن التحديث بصيغة سمع كما هو الحال في قوله . فسمعت بعض مشايخنا من السكوفيين يذكر وهو محمد بن الحسين^(٤) ..

أما أخبر مضافة إلى المفرد والمجموع فيعبر بها أبو الفرج عن حالات القراءة على الشيخ وعن المكاتبات والإجازات . وقد كان أبو الفرج يعتمد في بعض الأحيان على القيود اللفظية لبيان الحالات إجازات ومكاتبات وإن كنا لا نستطيع أن نقول إن تلك كانت عاداته في كل خبر يرويه فلم يكن من دأبه أن يقول أخبرنا فلان فيما أجاز لنا أن يرويه عنه . أو أخبرنا فلان أجازة . أو أخبرني فلان فيما كتب به إلى .. الخ ولعله كان يترك ذلك اعتماداً منه على فهم القارىء للصلة بينه وبين الشيخ الذي يروى عنه وذلك هو الواضح من تلك المرويات التي يرويها عن أبي الفياض سوار بن أبي شراعه فقد كانت الوسيلة إليها المكاتبات بين أبي الفرج وهو ببغداد وأبي الفياض وهو بالبصرة . وقد دل أبو الفرج على هذا حين ترجم لأبي شراعه^(٥)

(٢) ٦٩٨ مقال . مصر

(٤) ٦٤٥ مقال . مصر

(١) ١٨/١٧٠ المصدر السابق .

(٣) ٦/٩٧ أغاني . ساسي .

(٥) ٢٠/٣٥ أغاني . ساسي .

واكتفى بذلك وأخذ يذكر في مروياته عن أبي الفياض هذا أخبرنا أبو الفياض
من غير هذه القيود اللفظية (١).

واستعمال أخبر في الاجازات من غير قيد يدل على هذا كان معروفا
في ذلك الوقت وكان يجري عليه بعض الشيوخ من الرواة . جاء في مقدمة
ابن الصلاح (وكان الحافظ أبو نعيم الأصبهاني صاحب التصانيف الكثيرة
في علم الحديث يطلق أخبرنا فيما يرويه بالاجازة . رويانا عنه أنه قال أنا إذا
قلت حدثنا فهو سماعي وإذا قلت أخبرنا على الاطلاق فهو إجازة من غير
أن أذكر فيه إجازة أو كتابة أو كتب إلى أو أذن لي في الرواية عنه .

وكان أبو عبد الله المرزباني الاخباري صاحب التصانيف في علم الخبر
يروى أكثر ما في كتبه إجازة من غير سماع ويقول في الاجازة أخبرنا
ولا يبينها (٢).

أما استعمال أخبرنا في القراءة على الشيخ فهو الشائع المشهور عند الرواة
حتى لقد قيل بأن أخبرنا قد خصصت بهذه الحالة من حالات التحمل . جاء
في مقدمة ابن الصلاح ، قلت وكان هذا كله قبل أن يشيع تخصيص أخبرنا
بما قرئ على الشيخ (٣) . وجاء ، وذكر صاحب كتاب الانصاف محمد
ابن الحسن التيمي الجوهري المصري أن هذا مذهب الأكثر من أصحاب
علوم الحديث الذين لا يحصيهم أحد وأنهم جعلوا أخبرنا علما يقوم مقام
قائله أنا قرأته عليه لا أنه لفظ به لي (٤) .

أما ذكر وقال فلا تدل على لقاء ما بين الشيخ والطالب ولا على قصد في

(٢) ١٦٣ ابن الصلاح

(٤) ١٤٣ المصدر السابق

(١) ١٨/١٤٣ ، ١٩/١٢٤ المصدر السابق

(٣) ١٤١ المصدر السابق

الترويه وتستطيع أن ترجع إلى كتاب الأغاني فتري ذلك واضحاً بالنسبة إلى كل منهما^(١).

أما غير ذلك من المصطلحات من أمثال كتب إلى وقرأت عليه وأنشدني ومن أمثال حديثه عن السكتب حين يكون الأخذ منها فن الوضوح والبيان بحيث لا تحتاج منا إلى وقفة نبين فيها دلالتها على تلك الصلات التي تكون بين الشيوخ والطلاب من حيث الدلالة على القصد في الترويه وليبان المراتب والحالات.

خامساً - أما المسألة الخامسة والأخيرة من مسائل التحمل فتلك التي تخص التصحيح ونقصد به في هذا الموطن تصحيح السماع أو تصحيح النقل وهو أن تجيء المرويات صورة طبق الأصل مما صدر عن الشيخ في حالة السماع وما هو في السكتاب في حالات المكاتبة والوجادة... الخ. أما تصحيح الأخطاء لغوية أو فكرية فله محله من البحث عند حديثنا عن مرحلة الأداء.

والتصحيح بالمعنى الذي نريده في هذا الموطن إنما يكون بعد التحمل مباشرة هذا هو الذي ينص عليه أصحاب علوم الحديث. جاء في مقدمة ابن الصلاح « وإذا نجز الاملاء فلا غناء عن مقابلته وإتقانه واصلاح ما فسد منه بزيغ القلم وطغيانه^(٢) ». كما أنه الذي يفهم من هذا النص من نصوص الأغاني. وحدثني أحمد بن عبيد الله بن عمار قال كتبنا نختلف إلى أبي العباس المبرد ونحن أحداث نكتب عن الرواة ما يروونه من الآداب والأخبار وكان يصحبنا فتى من أحسن الناس وجهاً وأنظفهم ثوباً وأجملهم زياً ولا نعرف باطن أمره فانصرفنا يوماً من مجلس أبي العباس المبرد وجلسنا في مجلس

(١) راجع ١١٥/١١٠، ١٤٣/١١، ١٧/٦، وراجع ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٠/١٣٤

(٢) ٢٠٩ ابن الصلاح

أغاني. سامي

تتقابل بما كتبناه ونصحح المجلس الذي شهدناه فاذا بجاريه ... الخ (١) .

وتصحیح أبي الفرج لمروياته غير منصوص عليه وأن يكن الأمر الثابت الذي لا يقبل جدلاً وسنجد في الفقرة التالية أن مرويات أبي الفرج عن كل من ابن جرير . وأبي خليفة عن ابن سلام . والآنخفش واليزيدي عن المفضليات ليست إلا صورة طبق الأصل لما ورد في تاريخ ابن جرير وفي طبقات الشعراء وفي المفضليات من مرويات .

ونترك التحمل بمسائله إلى أمر آخر له خطره في الرواية وهو الضبط .

الفصل الثالث

الضبط

والقدرة على الضبط شرط أساسي في الرواية وإلا ردت مروياته^(١) وأصبح غير أهل الأخذ عنه وأصبحت مروياته غير أهل للاعتماد عليها في ميادين التشريع والأخبار والآداب .

والضبط هو ضبط المتلقى أو المروى وذلك بالمشاهدة الحافظة أو بالكتابة المقيدة والوسيلة الأولى وهي الحفظ أقدم الوسيلتين لأنها بنت البيئة وتنتج الحياة ولن يكون غير الحفظ وسيلة في البيئات الامية التي لم تنل من العلم حظا ومن المعرفة نصيبا .

والحفظ أكبر الوسيلتين حظا من حيث العناية والرعاية التي ينالها من الرواة ومن أصحاب علم الرواية حتى لنرى منهم من يرى أن الرواية لا تكون إلا عن محفوظ^(٢) . ومن يرى أنه إذا وجد الحافظ في كتابه خلاف ما يحفظه اعتمد في الاملاء على حفظه دون الكتاب ما دام قد حفظ من فم المحدث^(٣) . ولعله من هنا عاب بعضهم أبا الفرج بأنه ينسخ من الكتب ويأخذ عن الوراقين^(٤) .

واعتماد الأقدمين للحفظ في عملية الضبط جعلهم يبحثون الحياة العقلية

(١) ١٥٨ الكفاية في علم الرواية للخطيب .

(٢) ١٦٩ مقدمة ابن الصلاح . (٣) ١٨٨ المصدر السابق .

(٤) ٣٩٩ / ١١ تاريخ بغداد . للخطيب

للاوى وإلى أى حد يتأثر بها حفظه ورتبوا على ذلك أحكاما فردوا حديث أهل الغفلة^(١) وقالوا بأن السوء الحفظ لا يعتد من حديثه إلا بما رواه عن أصل كتابه^(٢) وتركوا الاحتجاج بمن كثر غلطه وكان الوهم غالباً على روايته^(٣). وتجادلوا فى سماع من كان يفسخ وقت القراءة^(٤) وليس يخفى حال من به خرف أو أصابه مس من الجنون.

وكبر السن له حكمه كما للصغر حكمه أيضاً وإذا كنا قد تحدثنا عن الصغر فى أول الفصل السابق فإننا نثبت هنا حال الكبر كما هو مصور عند الباحثين فى أمر الرواة من اللغويين إذ نراهم يقولون ومن آداب اللغوى أن يمسك عن الرواية إذا كبر ونسى وخاف التخليط^(٥).

والقدرة على الضبط لم تصبح شرطاً أساسياً فى الرواية إلا بعد أن أصبحت الرواية علماً له أصوله ورسومه أى إلا بعد العصر الأموى تقريباً ومركزها من هذه الناحية يشبه مركز العدالة تماماً فهى أيضاً لم تكن من الصفات التى تشترط فى الرواية حتى أصبحت الرواية علماً تناقش مسائله وت نقد قواعده وتدور المجادلات فيه على ما يجوز وما لا يجوز. وإذا كان حماد فيما يذكر ابن سلام أول من جمع أشعار العرب وأحاديثها^(٦). فإن الأمر الذى يترتب على هذا هو أن مرويات العصر الجاهلى وعصر صدر الإسلام وعصر بنى أمية إلا قليلاً قد رويت قبل أن تصبح العدالة ويصبح الضبط من الشروط الأساسية التى يجب توافرها فى الراوى حتى يوثق به ويطمئن إلى مروياته. ولعله من هنا كثرت الخلط والاضطراب فى مرويات هذه العصور.

(١) ١٤٧ السكافيه فى علم الرواية (٢) ٢٢٣ المصدر السابق
(٣) ١٤٣ المصدر السابق (٤) ٦٦ المصدر السابق
(٥) ٢/٣٣٥ الزهر للسبوطى . الاخير
(٦) ١٤ طبقات الشعراء . ط . ليدن

واختلاف الروايات فيما يتعلق بأيام العرب يعطينا صورة من هذا الخلط^(١) الشنيع ولقد عرض نولدكه لبعض الألوان من هذا الاضطراب في كتابه أمراء غسان ووقف من ذلك عند صور كثيرة وردت في كتاب الأغاني^(٢)

والأمر الذي يحسن بنا أن نلتفت إليه في هذا الموقف هو أن نفرق بين أمرين من مرويات أبي الفرج . الأمر الأول أمر أخذه عن الشيوخ . فهل كان يتحرى فيهم الشروط الأساسية ومنها القدرة على الضبط أولا ؟ وكذلك الحال فيما يختص بالكتب التي ينسخ منها وفي أصحابها .

الأمر الثاني أمره هو نفسه وإلى أى حد كان يعتبر من الضابطین .

أما مسألة الشيوخ فيظهر لنا أن أبا الفرج كان يأخذ عنهم دون أن يشترط في ذلك شروطا معينة وبخاصة عند ما ينفردون بلون من الأقاليم والآخبار وليس ذلك إلا لأنه كان يقصد إلى الجمع جمع كل ما قيل ولو كان من المصنوعات والآكاذيب . يقصد إليه لا لأنه راوية والعمل الأول للرواة هو الجمع بل لأنه كان يقصد في بعض كتبه أو في بعض مروياته إلى الإمتاع والمؤانسة وقد يكون في الآكاذيب ما يمتع وفي المصنوعات ما يؤنس ويدخل السرور إلى القلوب ومن هنا كان يأخذ أبو الفرج عن الكذب الوضاعين وعن غير الضاطنين . يأخذ عن محمد بن يزيد بن أبي الأزهر وقد كان كذابا قبيح الكذب ظاهره^(٣) ويأخذ عن الباعندي وقد كان مدلسا^(٤) . ويأخذ عن محمد بن خالف بن وكيع القاضي وقد كان فيه لين^(٥) ويأخذ عن الطوسي وقد تكلموا في روايته كتاب النسب عن الزبير بن بكار^(٦) . ويأخذ عن

(١) راجع يوم ذى قار ٢٠/١٣٢ أغاني ، ٢/٦٣٨ نقائض

(٢) راجع ٢٠ ، ٢٢ — ٢٤ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ من الترجمة العربية لكتاب

أمراء غسان

(٣) ٢٨٨ — ٣/٢٩١ تاريخ بغداد (٤) ٢١٣ المصدر السابق

(٥) ٢/٢٤٩ شذرات الذهب (٦) ٢٦٤ المصدر السابق

أحمد بن محمد بن سعيد وقد ضعفوه واتهمه بعضهم بالكذب^(١). ويأخذ عن أحمد بن جعفر جحظة وقد اتهمه هو نفسه بوضع النوادر^(٢) ويأخذ عن الصولى وقد كان ينقل الكتب وينتقلها^(٣). يأخذ عن كل هؤلاء ويكثر من الأخذ عن بعضهم وهم فيما نرى من غير العدول.

ثم هو يأخذ عن كتب ابن خردادبه^(٤). وهو نفسه يتهم ابن خردادبه بأنه قليل التصحيح لما يرويه. ويأخذ عن ابن دريد وقد كان إخوانه ينصرفون عنه لسكثرة تخليطه من شدة السكر^(٥). ولا يزيد أن ندلل على أخذه من الذين ينقلون أقوال من يخلط من أمثال المجنون ومان الموسوس ويحبى المسكى وأبى العبر الهاشمي فلقد ترجم لهم أبو الفرج جميعا وذكر فى ترجمته لهم من الصفات العقلية ما يدل على أنهم من المخلطين أو من غير الضابطين.

وأبو الفرج ينقل عن كتاب حبشى وهو الذى يقول عنه فى بعض المواطن أنه رجل لا يحصل ما يقوله ويرويه^(٦). ثم هو الذى يقول بعد إirاده لأخبار عدى بن زيد، قال مؤلف هذا الكتاب إنما ذكرت الخبر الذى رواه الزيادة على ما فيه من التخليط لأنى إذا أتيت بالقصة ذكرت ما يروى فى معناها وهو خبر مختلط لأن عدى بن زيد إنما كان صاحب النعمان بن المنذر... إلخ^(٧). وهو قول يدل على ما كان يذهب إليه أبو الفرج فى إirاده للبرويات من إيراد المختلطات والمصنوعات والآكاذيب.

(٢) ١٢/١٦٠ أغاني . سامى

(١) ٣٣٢ المصدر السابق

(٣) ٢١٥ الفهرست لابن النديم .

(٤) ٥/٣ ، ١٠/١١٥ ، ١١/١٢ أغاني . سامى .

(٦) ٣/١٩ أغاني . سامى

(٥) ١٧/١٣١ معجم الأهباء

(٧) ٢/٣٣ المصدر السابق

أبو الفرج راوية يهمة كما قلنا الجمع . الجمع أولا وقبل كل شيء فإن عمد إلى التعقيبات والتصحيحات فهو الأمر الذي يقصد إليه في بعض المواطن ليدل على أنه ليس راوية فحسب في كل المواطن وإنما هو من الرواة الذين يقفون في بعض المواطن للإجتهد والتصحيح .

هذه حال أبي الفرج مع الشيوخ الذين يأخذ عنهم ومع الكتب التي ينسخ منها أو ينقل عنها أما حاله في نفسه فقد كان القدماء يوثقونه^(١) . ولا يذكرون له من عيب إلا أنه قد خلط قبل أن يموت^(٢) .

ووسائل الضبط عند أبي الفرج الحفظ^(٣) . والكتابة^(٤) وكانت الكتابة أبرز وأشهر وليس يخفى أنه كان من الكاتبين في ديوان الوزير المهلبى .

وأبو الفرج حين يحفظ كان يؤدي المعاني في بعض الأحيان وقد كان ينص على ذلك وهذا هو أحد هذه النصوص : حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد على سبيل المذاكرة فحفظته عنه لم أكتبه من لفظه والحديث يزيد وينقص والمعنى واحد^(٥) .

وإذا كان من حقنا أن نذكر رأينا في قدرة أبي الفرج على الضبط فأنا نستطيع أن نقول - بعد مقابلتنا بين مروياته في كتبه وبين مروياته من أخذ عنهم من الشيوخ من الذين وصلت إلينا مروياتهم - أنه كان من الضابطيين . وضع لنا ذلك من مقابلتنا بين ما أخذه عن أبي خليفة عن ابن سلام وما جاء في كتاب الطبقات لابن سلام . ونستطيع أن نذكر في هذه المقابلات .

(٢) المصدر السابق

(٤) ٢٩٠-٢٩٥ مقاتل . بغداد

(١) ١١/٤٥٠ تاريخ بغداد

(٣) ٢١/١٠٦ أغاني . ساسى

(٥) ٢٧٢ المصدر السابق

١ — قول يونس بن حبيب في كل من الفرزدق وجريز ٧/٣٦ أغاني ، وفي ٧٥ طبقات ليدن .

٢ — قول الأسيدى في ٣٦ ، ٣٧ / ٧ أغاني ، وفي ٨٧ طبقات

٣ — قول بشار المرعش في ٣٨ / ٧ أغاني ، وفي ٨٦ طبقات

٤ — قول العلام بن جريز ٦٠ / ٧ أغاني ، وفي ٨٦ طبقات .

ولعل النص الكبير الواضح في هذه المقابلات هو ذلك النص الأدبي الذي يصف فيه أبو زيد الطائي الأسد عند عثمان ذلك النص الذي ورد في ٢٣ ، ٢٤ / ١١ أغاني . وفي ١٣٢ — ١٣٤ طبقات إذ فيه نرى قدرة أبي الفرج على الضبط .

ووضح لنا ذلك أيضا من المرويات التي أوردها في كتبه عن ابن جريز الطبري لا سيما تلك التي تخص الغزوات فإنها صورة مطابقة لما في الطبري من أخبار حول هذه الغزوات ^(١) .

ووضح لنا ذلك أخيراً من المرويات التي تخص أيام العرب وكان روايتها هم في كل من الأغاني وكتاب النقائص من أمثال تلك التي جاءت عن يوم شعب جبلة ^(٢) .

أبو الفرج من الضابطین وإن تسكن مروياته في كتبه لم تؤخذ جميعها عن الضابطین .

(١) راجع ١٧٠ / ٤ وما بعدها أغاني دار الكتب ، ١٢٩٥ وما بعدها من القسم الأول طبري ثم راجع ٢٢٤ — ٢٣٠ / ٤ أغاني دار الكتب ، ١٤٣٢ وما بعدها طبري (٢) ١٠ / ٣٣ أغاني . ساسي ، ٦٥٤ / ٢ نقائص

الفصل الرابع

مرحلة الأداء

سبق أن أشرنا إلى بعض المسائل التي نستطيع أن نعد الحديث عنها من مسائل مرحلة الأداء وذلك من مثل حرص أبي الفرج على الاسناد وبخاصة إذا كانت هناك بعض العيوب كأن يكون السند موقوفا على شيخ بعينه لا يتجاوزه إلى غيره ومن مثل حرص أبي الفرج على الإفصاح عن حالات التحمل ومراتبه وبخاصة إذا كان هناك ضعف أو وهن كأن يكون المخبر أو المحدث قد أخبره أو حدثه من حفظه في حالة المذاكرة وهي مسائل مشروحة في الفصول الأولى من هذا الباب . والآن نريد أن نقف عند بعض المسائل التي توضح لنا التقاليد التي كان يجري عليها أبو الفرج في الأداء .

وقبل أن نبدأ الحديث عن هذه المسائل نحب أن نسير إلى مسألة قد تكون من مسائل السند وليكنها المسألة التي تتصل اتصالا كلياً بالأداء وتلك هي رواية النسخة المشهورة المشتعلة على أخبار باسناد واحد فان رواية أمثال هذه النسخ قد يجري على تقليد يحيزه أصحاب علوم الحديث وهو تقليد قد يدفع بالقارىء الذي لم يعرف من اجازة المحدثين شيئا إلى الظن بالرواة واتهامهم بالتدليس .

يذهب أصحاب علوم الحديث إلى أنه يجوز لراوى النسخة المشهورة المشتعلة على أخبار باسناد واحد أن يسلك أحد سبيلين . الأول أن يكتفى بذكر الاسناد في أول النسخة وعند أول حديث أو خبر منها . والثانية

تفريق الأحاديث والأخبار ورواية كل حديث منها بالاسناد المذكور في أولها (١).

كان أبو الفرج من الذين يروون في بعض المواطن أخباراً تعتبر من قبيل رواية النسخة الواحدة وكان أبو الفرج يذكر الاسناد في أول خبر ثم يورد المرويات كما أملاها أو قيدها صاحب النسخة وبالحالات التي كان يأخذها بها أو يتحملها عليها ومن ذلك إيراد أخبار جميلة فإن أبا الفرج إنما يروي من أخبارها ما جمعه اسحاق وغيره ولكنه حين يروي ما جمعه اسحاق عن الحسين بن يحيى فحماد بن اسحاق فاسحاق يصور الحالات كما أثبتنا اسحاق فيقول حدثني بعض أهلنا (٢). حدثني عمي (٣). حدثني أبو أيوب (٤). وهكذا.

هذا التصوير أو هذا التقليد لم يفظن إليه بعض الناشرين ومن هنا رأيناهم يضعون حدث بين الأقواس التي يوضع بينها من هذه الألفاظ ما يدل على أن أبا الفرج هو القائل لهذه الألفاظ وفي ذلك من اتهام أبي الفرج بالتدليس أو الإيهام باتهامه بالتدليس ما فيه ذلك لأن قارئ الكتاب قد يعتقد أن أبا الفرج قد حدث عن رجال لم يلقهم ولم يأخذ عنهم وهو أمر لا نعتقد أن أبا الفرج قد وقع فيه.

(١) ننتقل الآن إلى بعض المسائل التي نريد الحديث عنها في هذا الفصل وأولى المسائل التي يحسن بنا أن نقف عندها هي مسألة تصنيف المرويات وهي مسألة لها أهميتها الخاصة لأنها سبيلنا إلى توضيح البواعث

(١) ١٩٧ مقدمة ابن الصلاح .

(٢) ٧/١٣٣ المصدر السابق

(٣) ٧/١٣٩ أغاني . سامي

(٤) ١١٨ ، ٧/١٤٠ المصدر السابق .

التي دفعت بأبي الفرج إلى أن يكون راوية أكثر منه مؤرخا . كما أنها سبيلنا إلى إيضاح ما سبق أن أشرنا إليه في المقدمة من تلك العيوب التي تلحق البحوث العلمية حين يعتمد المؤلفون إلى التقسيم والتبويب قبل جمع المواد والكشف عن الحقائق .

وأبو الفرج يجرى في تصنيف المرويات على أساس الموضوعات لاعلى أساس المسانيد وهي موضوعات يحددها في مقدمات كتبه كما هو الحال في كتاب الأغاني وكتاب مقاتل الطالبين .

وموضوعات أبي الفرج التي تدور حولها المرويات هي الأشخاص أشخاص المقتولين من آل أبي طالب في كتاب المقاتل وأشخاص الشعراء والمغنين في كتاب الأغاني وبخاصة أصحاب الأصوات المائة والخلفاء وأولادهم أو من له شعر غني فيه

وطريق أبي الفرج في كتاب المقاتل سهلة لينة ذلك لأنه اختار الترتيب الزمني أساسه الأول في ترتيب الأشخاص في الكتاب فبدأ بأول قتيل في الاسلام وانتهى إلى آخر قتيل قتل في الوقت الذي أخرج فيه هذا الكتاب للناس . وكان يختار من أخبار المقتولين ما يصور الاحداث التي انتهت بهم إلى القتل والتي صورها هو حين قال (ونحن ذاكرون في كتابنا هذا إن شاء الله وأيد منه بعون وإرشاد جملا من أخبار من قتل من ولد أبي طالب منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الوقت الذي ابتدأنا فيه هذا الكتاب . وهو جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة للهجرة . ومن احتيل في قتله منهم بسم سعيه وكان سبب وفاته ومن خاف السلطان وهرب منه فمات في تواريه ومن ظفر به فحبس حتى هلك في محبسه على السياقة لتواريخ مقاتل من قتل منهم ووفاة من توفي بهذه الاحوال لا على

قدر مراتبهم في الفضل والتقدم . ومقتصرون في ذكر أخبارهم على من كان محمود الطريقة شديد المذهب لا من كان بخلاف ذلك أو عدل عن سبيل أهله ومذاهب أسلافه أو كان خروجه على سبيل عيث وافساد^(١) .

أما طريق أبي الفرج في كتاب الأغاني فصعبة ملتوية ومن هنا اخترنا الوقوف طويلا عندها لنبيين الصعاب ولنبيين البواعث التي بعثت أبا الفرج على أن يختار طريق الرواء .

أساس الترتيب عند أبي الفرج في كتاب الأغاني ليس الزمن وليست الأسماء مرتبة ترتيبا أبجديا أو مرتبة حسب القبائل أو البلدان . بل ليس أساسه الأشخاص على الإطلاق . أن ترتيب الكتاب إنما يقوم على الأصوات . الأصوات الثلاثة والأصوات المائة وأغاني الخلفاء وأولادهم ثم أغاني المشهورين من المغنين والمغنيات . وهذا هو الذي نص عليه أبو الفرج حين قال (ولعل من يتصفح ذلك ينكر تركنا تصنيفه أبوابا على طباق الغناء أو على طبقات المغنين في أزمانهم ومرتباتهم أو على ما غنى به من شعر شاعر . والمانع من ذلك والباعث على ما نخوناه علل منها إنا لما جعلنا ابتداء الأصوات المختارة كان شعراؤها من المهاجرين والأنصار وأولهم أبو قطيفة وليس من الشعراء المعدودين ولا الفحول ثم عمر بن أبي ربيعة ثم نصيب فلما جرى أول الكتاب هذا المجرى ولم يكن ترتيب الشعراء فيه الحق آخره بأوله وجعل على نسب ما حضر ذكره وكذلك سائر المائة صوت المختارة فانها جارية على غير ترتيب الشعراء والمغنين وليس المغزى في الكتاب ترتيب الطبقات وإنما المغزى فيه ما ضمنه من ذكر الأغاني بأخبارها وليس هذا مما يضربها . ومنها ... الخ^(٢) .

أساس التقسيم كما ترى ليس الأشخاص وإنما هو الأصوات وهو أساس ليس من صنع أبي الفرج وإنما قام به غيره وبخاصة في الأجزاء الأولى من الكتاب تلك التي تخبر عن الأصوات الثلاثة المختارة والأصوات المائة المختارة والأصوات التي تجمع النغم العشرة المشتملة على سائر نغم الأغاني والملاهي والأرمال الثلاثة المختارة . ومدن معبدو هي سبعة أصوات والسبعة التي جعلت بأزائها من صنعة ابن سريج وأغاني الخلفاء وأولادهم وما اعتبر من صدور الغناء وأوائله مما يعتقد أبو الفرج أنه لا يحسن تقديم غيره أمامه .

وكان على أبي الفرج أن يجري في إيراد المرويات على طريقة ليست من صنعه أيضاً فكان عليه أن يجري على تلك الطريقة التي رسمها إسحاق الموصلي في كتابه الذي بعث به إلى علي بن هشام والذي أورد صاحب الأغاني صورته عند ترجمته لإسحاق^(١) . والذي جعلناه من العلامات الدالة على تأثر أبي الفرج بإسحاق عند حديثنا عن الجو المدرسي في الباب الأول .

كان على أبي الفرج أن يورد أولاً الصوت الذي غنى فيه المغنون ويذكر شيئاً من أخباره ثم يتبع ذلك أخبار الشاعر الذي قال الشعر والمغنى الذي غنى اللحن المختار . وكان على أبي الفرج أن يعمل ذلك في الأغاني المختارة والتي شهد لها بالامتياز صوتاً وفي هذا الصنيع ما يشعروننا سلفاً بما سيزج فيه أبو الفرج نفسه من متاعب وبما سيلحق كتابه من عيوب . تلك المتاعب وهذه العيوب التي نستطيع أن نعرض عليك أهمها في هذا المقام .

١ - كان العيب الأول توزيع المرويات وتجزئة حياة الأشخاص وذلك لأن الشاعر قد يؤخذ من شعر أكثر من قطعة للغناء والمغنى قد يغنى

أكثر من صوت . وإذا كانت الأصوات هي الأساس في التقسيم والتبويب كان معنى ذلك أن يذكر أبو الفرج مع كل صوت ما يلائمه من الأخبار ومن هنا ترجم لبعض الشعراء في أكثر من موطن وقص أخبار بعض المغنين والمغنيات في أكثر من مكان (١) .

٢ - وكان العيب الثاني هو التكرار وذلك لأن أخبار الصوت الواحد قد تتصل بحياة الكثيرين من الشعراء والمغنين والخلفاء والأمراء والجواري والغلمان ومن إلهيهم من كل من اتصلت به الأخبار وترجم له أبو الفرج فقد كان أبو الفرج يورد هذه الأخبار مع كل شخص ترجم له بمن كانت هذه الأخبار متصلة بحياته (٢) .

٣ - وكان العيب الثالث وهو العيب الذي يعتبر من العيوب الرئيسية في نظر المؤرخين تهاون أبي الفرج بالنقد التاريخي وجمعه الأخبار جمع حاطب الليل ثم مجلته تلك العجالة التي دفعت به إلى أن يأذن للناسخين وللقارئ بتصحیح أخبار الكتاب وبالزيادة في عدد مروياته وذلك لأن أبا الفرج يريد أن يملأ فراغات وأن يسد خانات وهي فراغات وهي خانات تتطلب مجهودات العصبية أولى القوة لضخامة المشروع ولعظم البناء .

كان على أبا الفرج أن يملأ كل خانة وعدد الخانات كثير وإذا فلا ريب ولا مهمل ولا بأس عليه من أن يكون من الرواة وألا يكون من المؤرخين . لا بأس عليه من أن يذكر الصحيح وغيره وأن يذكر المصنوعات والأكاذيب وأن يذكر كل ما عرفه الناس وتداولوه الأمر الذي أثبتناه في الفصل الأول من هذا الباب .

(١) ٤٣ / ٥ المصدر السابق

(٢) راجع تراجم جرير والأخطل والفرزدق

وكان على أبي الفرج أن يملأ كل خانة ولكن أبا الفرج كان لا يجد في بعض المواقف ما يملأ به بعض الخانات أو كان يجد ولكن ما يحده ليس إلا المصنوعات وليس إلا الأكاذيب . وهنا نجد أبا الفرج يعلن عجزه ويأذن لغيره بملء الفراغات وسد الخانات إن وقع الكتاب في يده ^(١) .
وبتصحيح بعض الأخبار أن عرف لها وجهها من وجوه التصحيح ^(٢) . كما يعلن براءته من العهدة في رواية الأخبار ^(٣) .

أعتقد أنه من هنا كانت هذه الزيادات التي وجدت في السامى ولم توجد في نسخة بولاق والتي كانت سببا في قيام بعض الكتب ^(٤) وبعض الأبحاث بل التي قد توجد في النادرة الواحدة إذا كررت روايتها ^(٥) .

ولست أريد أن أبين صلة هذا القول بما ذكرناه في المقدمة من عيوب التقسيم والتبويب ورسم صورة للموضوع قبل كشف الحقائق وجمع المواد فالصلة أقوى من أن بوقف عندها أو يفصل أمرها بالبيان .

• • •

(ب) والمسألة الثانية من المسائل التي نريد الحديث عنها في هذا الفصل هي مسألة اللفظ والمعنى أو مسألة العبارة التي كان يعبر بها أبو الفرج عن المرويات فهل كان يؤدي المرويات بالفاظها ومعانيها أو كان يحرص على المعنى ويؤدي بعبارات من عنده .

(١) ١٤٤ / ٨ أغاني . سامى .

(٢) ١٣٥ / ٥ المصدر السابق (٣) ١٦٤ / ١ المصدر السابق

(٤) راجع تصحيح كتاب الأغاني للشنقيطى ؛ ط الجمالية سنة ١٩١٦ م

(٥) راجع (أ) ١٦ / ٩٤ ، ١٧ / ٩٦ ، ١٧ / ٩٧ (ب) ٨٧ / ١٧ ، ٩٧ / ١٧

(ج) ١٧ / ٩٦ ، ١٧ / ١٠٣

والإجابة عن هذا السؤال تتطلب منا الوقوف أولاً وقبل كل شيء على الألوان المختلفة لما جاء به أبو الفرج في كتبه من مرويات وليس ذلك إلا لأن لأبي الفرج في بعض هذه الألوان من الأخبار طرقاً خاصة في الأداء .

يرى أبو الفرج في كتبه أخبار الغناء من حيث هو الحان لها طرقها وأجناسها أو مذاهبها . ومن حيث هو أشعار غنى فيها .

ويرى أبو الفرج نصوصاً أدبية أكثرها شعر . ويرى أخباراً منها الأدبي ومنها السياسي ومنها الديني ومنها الاجتماعي .

وأبو الفرج في روايته للغناء لا يؤدبه كما وصله إلا إذا كان على مذهب إسحق فإن كان على مذهب غيره فإن أبا الفرج يغيره إليه . وهذا هو نص عبارته في هذا المقام (وكل ما ذكرنا فيه من نسب الأغاني إلى أجناسها فعلى مذهب إسحق بن إبراهيم الموصلي وإن كانت رواية النسبة عن غيره إذ كان مذهبه هو المأخوذ به اليوم دون من خالفه مثل إبراهيم بن المهدي ومخارق وعلويه وعمر بن بانه ومحمد بن الحرث بن شخير ومن وافقهم فانهم يسمون الثقيل الأول وخفيفه الثقيل الثاني وخفيفه ويسمون الثقيل الثاني وخفيفه الثقيل الأول وخفيفه وقد اطرَح ما قالوه الآن وترك وأخذ الناس بقول إسحق) .

وهو في روايته للأصوات من حيث هي شعر يؤدبها كما غنيت لا كما قالها الشاعر وذلك لأن من المغنين من كان يغير في ألفاظ الشعر ويستبدلها بألفاظ تناسب المقام . جاء في الأغاني (أخبرني إسماعيل بن يونس الشيعي

قال حدثني عمر بن شبة عن ابن البواب قال . جلس المعتصم يوماً للشرب فغناه بعض المغنين قوله :

وبنو العباس لا يأتون . لا وعلى ألسنتهم خفت نعم . . . إلخ

فقال لا أعرف هذا الشعر فلن هو ؟ قيل للبيد . فقال وما للبيد وبني العباس ؟ قال المعنى إنما قال . وبني الريان لا يأتون لا فجعلته وبني العباس فاستحسن فعله ووصله ^(١) .

وأبو الفرج في روايته للنصوص الأدبية يرويها بألفاظها وبخاصة إذا كانت من الشعر إذ ليس من حقه أن يروي شيئاً من النصوص الأدبية بالمعنى . على هذا جرى العرف ومضى الرواة .

أما أبو الفرج في رواية الأخبار فقد كان يحرص على الألفاظ والمعاني حين ينسخ من الكتب أو حين يقرأ على الشيوخ وذلك هو الذي رأيناه من مقابلتنا بين ما جاء في كتبه مما رواه عن ابن جرير الطبري أو على بن سليمان الأخفش واليزيدي عن ابن حبيب وما جاء في تاريخ الطبري وفي النقائض الأمر الذي أشرنا إليه عند حديثنا عن الضبط في الفصل الثالث من هذا الباب . وقد كان يحرص على الألفاظ أيضاً في الأخبار المفردة فيما نعتقد والذي يدفعنا إلى ذلك أنه كان حين يروي بألفاظ من عنده كان ينص على ذلك في صراحة . الأمر الذي لم نره إلا قليلاً ^(٢) .

ولعل مما يؤكد هذه المسألة أن أبا الفرج كان حين يروي الخبر الواحد عن الشيوخ الكثيرين ويريد أن يؤديه كان يختار لفظ أحدهم وينص على

(١) ١٤/٩٥ أغاني . ساسي

(٢) ١١/١٠١ المصدر السابق ، ٤٠٨ مقاتل مصر

ذلك في صراحة تامة فن ذلك قوله ، وخبر السكرى أتم واللفظ له ^(١) ،
وقوله ، إلا أن رواية ابن النطاح أتم واللفظ له ^(٢) ،

وقد كان أبو الفرج يفعل ذلك في بعض الأحيان حين يختلف الرواة
فقد كان يجمع بينهم فيما اتفقت روايتهم فيه ويفرد كل واحد منهم بخبره فيما
اختلفوا فيه . جاء في الأغاني (أخبرني بخبره جماعة من مشايخنا منهم أحمد
بن عبد العزيز الجوهري عن عمر بن شبه ومحمد بن خلف بن المربان عن
جماعة من أصحابه وأحمد بن عبد العزيز الجوهري عن علي بن محمد النوفلي
عن أبيه . فما اتفقت رواياتهم من خبره جمعتهما في ذكره وما اختلفت
أفردت كل فرد منهم بروايته ^(٣)) .

ولكن ليس معنى ما نريد قوله أنه كان يحرص دائما على هذه المسألة
فيروى الأخبار بالفاظها فانا نراه في بعض الأحيان يذكر الأخبار مختصرة
وبالفاظ من عنده وإن نص على كمال المعنى . ومن ذلك قوله بعد روايته
لبعض الأسانيد ، فجمعت من روايتهم ما احتيج إلى ذكره مختصر اللفظ
كامل المعنى ^(٤) ، وعلى العموم فحرص أبو الفرج على ألفاظ المرويات أكثر
من حرصه على روايتها بالمعنى وهو حرص قد يفيد أولئك الذين يهتمون
بالدراسات اللغوية والأدبية إن أرادوا درس الألفاظ واستعمالاتها
في بعض العصور وفي بعض البيئات أو أرادوا درس القصة الأدبية
وتطورها .

وقد يحسن بنا في هذا المقام أن نذكر أن من العلماء الأقدمين من لم
يعتمد الرواية بالمعنى في الميدان العلمي وذلك كالنحاة الذين لم يستنبطوا

(٢) ١٥/٣ المصدر السابق
(٤) ٤/١٣٩ أغاني . ساسي

(١) ١٢/١٠٥ أغاني . بولاق
(٣) ١٧/٥٢ أغاني . ساسي

النحو من أحاديث الرسول عليه السلام لأنها قد رويت بالمعنى^(١). وأن
نذكر أيضا أن المؤرخين المحدثين يعتمدون على الألفاظ ودلالاتها في نقد
الأخبار وبخاصة إذا روى المؤرخ وثيقة أو خبراً وكانت ألفاظه غير ألفاظ
العصر الذى ادعى أن الوثيقة قد كتبت فيه^(٢). ومن هذين نستطيع أن
نفهم إلى أى حد يقدم الرواة الذين يحرصون على الرواية باللفظ خدمات
علمية للباحثين فى العلوم اللغوية والأدبية وللمؤرخين.

• • •

(ج) أما المسألة الثالثة ولعلها أن تكون الأخيرة فى هذا الفصل فهى
مسألة التصحيحات. والمقصود بها هنا التصحيحات الفسكية لا تصحيحات
النقل والسماع. وأبو الفرج يقف فى مواطن قليلة لأمثال هذه التصحيحات
ويجىء بها بعد إيرادها للأخبار بحالتها التى أخذها بها عن الشيوخ.

وتصحيحات أبى الفرج قليلة ولكنها على قلتها تشعرنا بقدرة
أبى الفرج على النقد التاريخى واستعداده حين يميل ويتريث لأن يكون
من المؤرخين.

والأسس التى يستند إليها أبو الفرج فى نقده للمرويات وفى تصحيحه
لها كثيرة نستطيع أن نذكر منها على سبيل المثال ما يلى.

١ - معرفته بالتاريخ وذلك من مثل قوله تعقينا على بعض الأخبار
(قال مؤلف هذا الكتاب هكذا أخبرنا ابن المرزبان بهذا الخبر وأظنه
غلطاً لأن دحمان لم يدرك خلافة الرشيد وإنما أدركها أبناء زبير وعبد الله

(١) ص ٥ وما بعدها ج ١ خزائن الأدب

(٢) ٨٣ وما بعدها منهج البحث التاريخى

فإذا أن يكون الخبر لأحدهما أو يكون لدحمان مع غير الفضل بن يحيى^(١) ومن مثل موقفه من ابن السكبي ذلك الموقف الذي يعلن فيه خطأ هذا المؤرخ في حديثه عن مليكة^(٢).

٢ — البحث ومحاولة الاستقصاء وذلك من مثل قوله تعقياً على إحدى الروايات ، وذكر يحيى بن علي بن يحيى عن إسحاق أن الشعر للأعشى وذلك غلط وقد التمسناه في شعر كل أعشى ذكر في شعراء العرب فلم نجده ولا رواه أحد من الرواة لأحد منهم ووجدناه في شعر ابن المولى من قصيدة له طويلة جيدة وقد أثبتناه بعقب أخباره لبوقف على صحة ما ذكرناه^(٣) . ومن مثل قوله ، وقد كنا وجدنا هذا الشعر في رواية علي بن يحيى عن إسحاق منسوباً إلى المرقش وطلبناه في أشعار المرقشين جميعاً فلم نجده وكنا نظنه من شاذ الروايات حتى وقع إلينا في شعر داود بن سلم وفي خبر أنا ذاكره في أخبار داود^(٤) .

٣ — عدم مشاكلة الخبر للعصر والبيئة وذلك من مثل قوله في حق جحظة عند ترجمته للنصبي ، وذكر جحظة في كتاب الطنبوريين فأتى من ذكره بشيء ليس من جنس أخباره ولا زمانه^(٥) . وقوله في حق ابن السكبي عند روايته لأخبار دريد ، هذه الأخبار التي ذكرتها عن ابن السكبي موضوعه كلها والتوليديين فيها وفي أشعاره وما رأيت شيئاً منها في ديوان دريد بن الصمة على سائر الروايات . وأعجب من ذلك هذا الخبر الأخير فإنه ذكر فيه ما لحق دريداً من الهجنة والفضيحة في أصحابه وقتل من قتل

(١) ١٤٦ / ٥ أغاني . بولاق . (٢) ١١ / ٥٣ أغاني ساسي

(٣) ٣ / ٨٨ أغاني بولاق (٤) ١٣٥ / المصدر السابق

(٥) ١٦١ ، ١٦٢ / المصدر السابق

معه وانصرافه منفرداً وشعر دريد هذا يفخر فيه بأنه ظفر يبنى الحرث وقتل أمثالهم^(١) .

٤ - المذهب الفنى وذلك من مثل قوله تعقيباً على رواية لآبى الزعراء ، ما أظن أبا الزعراء صدق فيما حكاه لأن العلماء من رواة الشعر رووها ليزيد بن الحسك . وليس كذلك لسكونه معلوماً أنه ليس لطرفة ولا موجوداً فى شعره على سائر الروايات ولا هو أيضاً مشبهاً لمذهب طرفة .^(٢) ، ومن مثل قوله عند ترجمته للسيد الحميرى ، وما وجدنا ذلك فى رواية محصل ولا شعره أيضاً من هذا الجنس ولا فى هذا المذهب لأن هذا شعر ضعيف يبين التوليد فيه وشعره فى قصائده السكيسانية مبين لهذا جزالة ومثانة وله رونق ومعنى ليس لما يذكر عنه فى غيره^(٣) . ومن مثل قوله ، ونسخت من كتاب أحمد بن سعيد الدمشقى خبر الأخوص مع سلامة التى ذكرها فى هذا الشعر وهو موضوع لا أشك فيه لأن شعره المنسوب إلى الأخوص شعر ساقط سخيف لا يشبه نمط الأخوص والتوليد بين فيه يشهد على أنه مجذث والقصة أيضاً باطلة لا أصل لها ولكنى ذكرته فى موضعه على ما فيه من سوء العهدة ...^(٤) ،

٥ - الثقة بالرواة أو عدم الثقة بهم وذلك من مثل موقفه من مرويات نصر بن مزاحم ومرويات على بن محمد بن سليمان النوفلى عند حديثه عن السبب فى خروج أبى السرايا فإنا نراه يقول عن مرويات على (فربما ذكرت الشيء اليسير منها والمعنى الذى يحتاج إليه لأن على بن محمد كان يقول بالأمامة فيحمله التعصب لمذهبه على الحيف فيم يرويه ونسبة من

(٢) ١١/١٠٠ أغانى . ساسى

(٤) ٨/٨٩ المصدر السابق

(١) ٩/١٩ المصدر السابق

(٣) ٧/٥ المصدر السابق

روى خبره من أهل هذا المذهب إلى قببح الأفعال وأكثر حكاياته في ذلك بل سائرهما عن أبيه موقوفا عليه لا يتجاوزهما وأبوه حينئذ مقيم بالبصرة لا يعلم بشيء من أخبار القوم إلا ما يسمعه من السنة العامة على سبيل الأراجيف والأباطيل فيسطره في كتابه عن غير علم طلبا منه لما شأن القوم وقدح فيهم .

فاعتمدت على رواية من كان بعيدا عن فعله في هذا وهي رواية نصر ابن مزاحم إذ كان ثبتا في الحديث والنقل ويظهر أنه ممن سمع خبر أبي السرايا عنه . قالوا . . . (١) الخ) ومن مثل موقفه مع محمد بن علي بن حمزة عند حديثه عن مقتل عبيد الله بن الحسين حيث نراه يقول (ذكر محمد بن علي بن حمزة أن أبا مسلم دس إليه سبقات منه ولم يذكر ذلك يحيى بن حسن العلوى ووصف أن عبد الله مات في حياة أبيه . وقد كان يحيى حسن العناية بأخبار أهله . ولعل هذا وهم من محمد بن علي بن حمزة (٢) .

٦ - وقد يعتمد أبو الفرج في ترجيحاته للروايات على أمور أخرى كالفلك وذلك من مثل موقفه من الروايات الواردة في إسم اليوم الذي قتل فيه الحسين بن علي رضي الله عنه فإننا نراه يقول . (فأما ما تقوله العامة أنه قتل يوم الاثنين فباطل وهو شيء قالوه بلا رواية . وكان أول المحرم الذي قتل فيه يوم الأربعاء أخرجنا ذلك بالحساب الهندي من سائر الزيجات وإذا وإذا كان ذلك كذلك فليس يجوز أن يكون اليوم العاشر يوم الإثنين (٣) هذه هي الأسس التي يقيم عليها أبو الفرج التصحيحات والترجيحات وهي تشعرنا بأن أبا الفرج كان يملك عدة المؤرج وأنه لو حاول أن يكونه

(٥) ١٨٠ مقال الطالبيين . مصر

(٢) ١٨٠ المصدر السابق

(٣) ٧٨ مقال الطالبيين . مصر

فقط! مكانه ولكنه أراد أن يكون الراوية الذي لا يفوته من المرويات ما يعرفه الناس وما يتداولونه ومن هنا كان همه الأول الجمع ولم يقف للنقد إلا في المواطن القليلة .

وإذا كان هناك من كلمة نقولها في هذا الموطن فهي أن أبا الفرج في كتاب الأغاني راوية وأنه في كتاب المقاتل ينزع إلى أن يكون من المؤرخين ولعل السر في ذلك أنه في الكتاب الأول يسرد من الأخبار ما يمتنع ويؤنس لأنه كتاب يجمع من الأخبار ما كان في الغالب من الأسفار والنوادر وقد كان القصد منه أيضاً إلى السمر وإلى الامتاع والمؤانسة ومن هنا جمع أبو الفرج كل ما يؤنس ويمتنع وجعل ذلك شرط الاختيار في مقدمة الكتاب . أما في المقاتل فقد كان يروى أخباراً سياسية وقد كانت هذه الأخبار هي المواد الأولى لكل من يريد أن يكون من المؤرخين وقد كانت قديماً اللبئات الأولى التي يبني منها التاريخ .

ولعل مما ساعد على هذا قصر المدة الزمنية في كتاب المقاتل ووضوح الأحداث وضوحاً حال بينها وبين أن تكون محل عبث كبير من الرواة والمؤرخين . ثم هي إلى جانب ذلك من الأخبار الدينية المذهبية التي تهتم بها الجماعات الدينية وتحرض عليها وتعتبرها عنصراً فعالاً في مقوماتها وفي مقاومتها لمن يخالفها في المذهب من رجال السياسة ورجال الدين .

الخاتمة

هذا هو بحث أبي الفرج الراوية قصدت منه إلى أمرين . الأول
الكشف عن هذه الشخصية التي يعتبرها بعض الباحثين من أعظم الشخصيات
في القرن الرابع الهجري والتي وقف أمامها الباحثون حيارى لغموضها
ولقلة ما يدور حولها من أخبار حتى لقد أعلن المجمع اللغوي عن جائزة
مقدارها مائتان من الجنيهات لمن يقدم بحثاً عن هذه الشخصية . ولعله أن
يكون من العجب أن لم يقدم أو لم ينل الجائزة إنسان .

هذه الشخصية الاخبارية تكاد تكون أعظم شخصية اخبارية في القرن
الرابع الهجري وحسبك أن يقول عنها ابن خلدون في مقدمته (وقد ألف
أبو الفرج الأصبهاني وهو ما هو كتابه في الأغاني جمع فيه أخبار العرب
وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم وجعل مبناه على الغناء في مائة الصوت
التي اختارها المغنون للرشد فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه
ولعمري أنه ديوان العرب وجامع أشات المحاسن التي سلفت لهم من كل
فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال ولا يعدل به كتاب في
ذلك فيما نعلسه . وهو الغاية التي يسمو إليها الأديب ويقف عندها وأنى
له بها ^(١)) .

هذه الشخصية ظلت مجهولة أو كالمجهولة حتى الآن ومن هنا كان لابد
من الكشف عنها والوقوف على شيء من أحوالها وظروفها وما وصلت

إليه من علم ومعرفة وما كانت عليه من خلق ومزاج وما جرت عليه من تقاليد وعادات فكرية في تأليف الكتب وفي تصنيف المرويات . ولقد فعلت الكثير من هذا حتى ليخيل إلى أنى قد أضفت جديداً إلى العلم وحتى لأعتقد أنى قد أتيت بما يفيد .

الامر الثاني : أمر منهجى فلقد حرصت في هذا البحث على أن أسلك سبيل المؤرخين الذين يحرصون الحرص كله على تطبيق المناهج التاريخية تطبيقاً يحول بين الانسان وبين الزلل ويعصمه من الخطأ وينتهى به إلى نتائج محققة بالقدر الذى تسمح به ما بين يديه من أخبار . ومن هنا كانت أولى الخطوات الأعراض عن ذلك التخطيط الذى يفرضه التقليد أو يفرضه المنطق النظرى على الباحثين وهو تخطيط يضرب أكثر مما يفيد كما ذكرنا عند حديثنا عن التأليف والتصنيف .

ثم كانت الخطوة الثانية جمع المواد ونقدها لفصل الزائف عن الصحيح والانتهاه من ذلك إلى الصورة التى رسمها لهذه الشخصية التاريخ .

وإذا كان لابد من الحديث عن بعض الملامح والقسيمات التى كشفنا عنها أو أزلنا ما كان يعلوها من غموض وإبهام والتى نستطيع أن نعتبرها من حسنات ذلك المنهج التاريخى فهى التالية :

١ - التحقيق التاريخى وبخاصة ذلك الذى يكشف عن مسنة الوفاة وذلك الذى يدور حول أصبهان أو المولد والذى يدور حول علاقة أبى الفرج بسيف الدولة ومسألة إهداء الكتاب .

٢ - الكشف عن أسرة الأم وعن حياة أسرة الأب وبيان ما خلفته كل منهما فى أبى الفرج من ميول ومن آراء ومعتقدات .

٣ - الكشف عن الاساتذة الذين طبعوا أبا الفرج بطابعهم ووجوهوا

حياته وجهات معينة وتوضيح ما لكل منهم من أثر حتى ذلك الذى يكون فى الخلق والمزاج .

٤ - الحديث عن الحياتين العقلية والفنية وهو حديث يكشف لنا عن أبى الفرج المثقف وأبى الفرج الفنان .

٥ - بيان واف لموقف أبى الفرج من تقاليد الرواة وبخاصة فيما يتعلق بالعدالة بالضبط والسند . وتوضيح للعوامل المختلفة التى جعلت أبا الفرج ينجح فى روايته للأخبار إلى سبيل الرواة .

والآن أضع هذا البحث بين يدى القارئ وأضع صورة أبى الفرج كما استطعت الوقوف عليها وهى شخصية الرجل الذى أراد أن يكون راوية فكان . ومن هنا يحسن بنا أن نعتقد دائما أن مرويات أبى الفرج مصدر من مصادر التاريخ وليست هى التاريخ .

ولقد وقفنا على ما لأبى الفرج من ميول وأهواء فيجب أن نحذر هذه الميول وهذه الأهواء كلها حاولنا الاعتماد على ما خلف الرجل من مرويات فقد يكون الرجل مضللا وقد يكون صاحب غرض وهوى وليس يخفى أن للأهواء حكمها فى التاريخ وهو حكم قد يملى رغبته لافى ذكر الأخبار فحسب وإنما أيضا فى السكتان .

المراجع

٢٦١ أما المرجعان الأول والثاني فهما من كتب أبي الفرج وأولها الأغاني وثانيهما مقاتل الطالبين وقد قرأت كل واحد منهما أكثر من مرة وقرأته في أكثر من طبعة قرأت الأول في طبعته الأولى بمطبعة بولاق وفي طبعته الثانية على نفقة الساسي ورجعت في بعض الأحيان إلى الطبعة الأخيرة طبعة دار السكتب لأحقق بعض النصوص وأقابلها عليها كما كنت أرجع أيضا في بعض الأحيان إلى بعض النسخ المصورة وبخاصة فيما يتعلق بمسألة محمد بن الحسين الكندي وكونه مؤدب أبي الفرج الأصمفاني .

وقرأت الثاني في طبعته الثانية ببغداد وفي طبعته الثالثة بالقاهرة . وإذا كنت قد أثبتت نصوص البحث في الغالب عن أغاني الساسي وعن مقاتل الطالبين طبعة مصر فليس ذلك إلا لأن هذه هي الطبعات التي أملكها والتي كنت أراجع الفيشات أو الجزازات عليها حين إثبات النص في البحث .

وقد يكون من المفيد أن أثبت هنا أني أعتقد أن كتاب الأغاني الموجود بين أيدينا الآن ليس بحالته التي تركه عليها أبو الفرج وأنه قد أصابه بعض الخلل والاضطراب وإذا كان الحديث عن السكتاب وتأريخه ليس من موضوع البحث إلا أني أضع بين يدي القارئ بعض الملحوظات .

أولا - ذلك الاختلاف الذي نجده بين النسخ الموجودة وهو اختلاف لا يرجع فقط إلى زيادة بعض الأخبار أو نقصانها في ترجمة بعض الأشخاص وإنما يرجع أيضا إلى ترجمات بتمامها لبعض الأشخاص فمن النسخ من يقف عند الجزء العشرين ومنها من تظم إليه جزءا آخر ومنها

من يحمل بعض أجزائها رقم الجزء الرابع والعشرين ونظرة واحدة إلى نسخة مكتبة فيض الله وهي مصورة في مكتبة معهد المخطوطات بالجامعة العربية ترينا مدى هذا التفاوت وإلى أى حد يكون هذا الاختلاف .

ويظهر أن هذا الاختلاف قديم فقد تحدث ياقوت عند ترجمته لأبي الفرج وعند حديثه عن الكتاب وكتابته نسخة منه واعتماده عليه في تأليفه كتابه المرسوم بأخبار الشعراء عن هذا الخلل الذى أصاب الكتاب وانتهى منه بقوله : وما أظن إلا أن الكتاب قد سقط منه شيء أو يكون النسيان قد غلب عليه والله أعلم .

بل يظهر لنا أن هذا الاختلاف أقدم من ذلك الأمر الذى يوحى به هذا النص المروى على أنه من أحاديث المهلبى عن كتاب الأغاني وهو : سألت أبا الفرج فى كم جمعت هذا الكتاب فقال فى خمسين سنة ثم تعقبة الناقل لهذا الخبر والمثبت له فى مقدمة ما انتخبه من الكتاب إلى سيف الدولة . قال : وإنه كتبه مرة واحدة فى عمره وهى النسخة التى أهداها إلى سيف الدولة . فان هذا القول يصل بنا مع أشياء أخرى إلى أن الخلل الذى أصاب الكتاب إنما يرجع إلى عهد سيف الدولة بن صدقة وإليك البيان :

لقد رأيت فى الفصل الأخير من الباب الأول حديثى عن ابن الخازن وسيف الدولة صدقة وكيف فسر المؤرخون الحسين بن على بن الحسين بالوزير المغربى وسيف الدولة هذا بسيف الدولة الحمدانى . ورأيت أنا حاولنا أن ننقئ ما شاع من أن أبا الفرج قد أهدى كتابه إلى سيف الدولة الحمدانى وأن النسخة التى دفعت إلى هذا الرأى الأخير ليست إلا نسخة سيف الدولة صدقة التى كتبها له ابن الخازن .

ولقد رأيت أيضا أن ناسخ هذه النسخة قد كتب فى مقدمتها ذلك

الكلام الذى يشعرنا بأن الكاتب أو الناسخ كان يعتقد أن أبا الفرج لم يترك من كتاب الأغاني إلا نسخة واحدة .

أعتقد أنه من السهل أن نمضى سويا فى تفسير المسألة على هذا الأساس .

كتب ابن الخازن النسخة لسيف الدولة صدقة وقد كانت النسخة الوحيدة فى البيئة العراقية فى ذلك الوقت .

حدث أن نهبت خزانة سيف الدولة وأحرقت كما سبق أن أشرنا فى الفصل الأخير من الباب الأول نقلا عن ابن الأثير وكان مما وجد من كتبها بعد النهب والحريق نسخة ناقصة مشوهة من كتاب الأغاني ومن هنا أصاب الخلل والاضطراب هذا الكتاب .

على أنك قد تسأل وإذا فكيف جاء الكتاب بهذا الحجم الذى يقرب مما وصفه به المؤرخ المعاصر لأبى الفرج وهو ابن النديم ؟

هنا أستطيع أن أقول أنى أرى أن الناسخين قد ضمو كثيرا من مرويات أبى الفرج فى كتبه الأخرى إلى مروياته التى بقيت من كتاب الأغاني وأن هذه المرويات جميعها هى التى كانت منها هذا الأغاني الذى بين أيدينا الآن .

وقد تسألنى وما الدليل ؟ فأقول أن هناك بعض القرائن وهى أن فى كتاب الأغاني بعض الفصول التى لا نمنع من أن تكون من مرويات أبى الفرج ونمنع من أن تكون من كتاب الأغاني لأنها خارجة عن موضوع الكتاب وأستطيع أن أضرب لذلك مثلا بهذه الفصول .

١ - حديثه عن يوم رحرحان ذلك الحديث الذى يعنون له بقوله فى ١٠/٣٠ ساسى .

ونذكر هنا خبر رحرحان ويوم قتله إذ كان مقتل الحرث وخبره
خيرهما. فانه عنوان يشعر بأن هذا الحديث ليس من موضوعات الكتاب
وأنه قد قسر فيه قسرا ولعل ختام الحديث بقوله ١٠ / ٣٣ تم والحمد لله
رب العالمين مما يشعر بأن هذا الحديث منقول عن كتاب أبي الفرج أيام
العرب فليس من عادة أبي الفرج في كتاب الأغاني أن يختم أخباره بمثل
هذه الجملة .

وكذلك حديثه عن يوم شعب جبله من ١٠ / ٣٣ فانه ليس من موضوعات
هذا الكتاب التي تطلب لذاتها وقد ختم الحديث أيضاً بالجملة السابقة تم اليوم
والحمد لله

هذه فصول أردت بها ضرب المثل ولم أرد بها إلى البحث والاستقصاء
فان لذلك بحثا آخر عن كتاب الأغاني وتاريخه ليس هنا محله .

والآن نستطيع أن نترك هذين المصدرين من مصادر البحث إلى غيرهما
من المصادر وإن كنا نحب أن نلفت الذهن إلى أننا عثرنا على نصوص منقولة
عن كتاب لأبي الفرج في معجم الأدباء وذلك هو كتاب أدب الغرباء كما
عثرنا على نصوص له شعرية في عيون التواريخ لابن شاكر وفي الفخرى
في الآداب السلطانية وفي يتيمة الدهر للثعالبي إلى جانب شعره في معجم
الأدباء .

الكتب الادبية

أو كتب التاريخ الأدبي والآداب

- | | |
|-----------------|--------------|
| ١ - الثعالبي | يتيمة الدهر |
| ٢ - المرزباني | معجم الشعراء |
| ٣ - ابن عبد ربه | العقد الفريد |

- | | |
|--|----------------|
| طبقات الشعراء | ٤ - ابن سلام |
| النقائض | ٥ - أبو عبيدة |
| معجم الأدباء | ٦ - ياقوت |
| المؤتلف والمختلف | ٧ - الأمدى |
| خزانة الأدب | ٨ - البغدادى |
| أبو القاسم الأصفهاني إيضاح المشكل من شعر المتنبي | ٩ - |
| نصحيح كتاب الأغاني | ١٠ - الشنقيطى |
| عيون الأخبار | ١١ - ابن قتبية |
| نشوار المحاضرة | ١٢ - التنوخى |
| ديوان البحرى | ١٣ - البحرى |
| تزيين قلائد العقيان بفرائد البيان - شرح | ١٤ - ابن زاكور |
| قلائد العقيان | |
| المستجد من فعلات الأجواد | ١٥ - التنوخى |

٢ - كتب شروط الرواة والمؤرخين

- | | |
|------------------------|----------------|
| المقدمة | ١ - ابن خلدون |
| الاعلان بالتوبيخ | ٢ - السخاوى |
| الكفاية فى علم الرواية | ٣ - الخطيب |
| مقدمة ابن الصلاح | ٤ - ابن الصلاح |
| المزهر | ٥ - السيوطى |
| منهج البحث التاريخى | ٦ - حسن عثمان |
| مصطلح التاريخ | ٧ - أسد رستم |
| التقريب | ٨ - النووى |

٣ - الكتب التاريخية

- | | |
|-------------------|--|
| ١ - الطبرى | تاريخ الرسل والملوك |
| ٢ - عريب | صلة تاريخ الطبرى |
| ٣ - ابن مسكويه | تجارب الأمم |
| ٤ - اليعقوبى | تاريخ اليعقوبى |
| ٥ - المسعودى | مروج الذهب |
| ٦ - ابن الفرات | تاريخ الدول والملوك مصورة رقم ٣١٩٧ |
| | دار الكتب |
| ٧ - أبو الفداء | تاريخ أبى الفداء |
| ٨ - المقرئى | الخطط |
| ٩ - ابن خلدون | مقدمة ابن خلدون وكتابه فى التاريخ |
| ١٠ - المقرئ | نفح الطيب |
| ١١ - ابن طباطبا | الفخرى فى الآداب السلطانية |
| ١٢ - بروكلمان | تاريخ الشعوب الإسلامية ترجمة دار العلم للملايين |
| ١٣ - ابن الأثير | الكامل |
| ١٤ - مينخايل عواد | أقسام ضائعة من تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء |
| ١٥ - نولدكه | أمراء غسان . الترجمة العربية (بيروت الجامعة الأمريكية) |

٤ - كتب تاريخ الرجال

- | | |
|--|------------------------|
| الفهرست | ١ - ابن النديم |
| أخبار أصفهان | ٢ - أبو نعيم |
| تاريخ بغداد | ٣ - الخطيب |
| وفيات الأعيان | ٤ - ابن خلكان |
| تاريخ الإسلام الكبير مصورة رقم ٤٢ تاريخ دار الكتب | ٥ - الذهبي |
| عيون التواريخ . مخطوطة رقم ١٤٩٧ دار الكتب | ٦ - ابن شاكر |
| شذرات الذهب | ٧ - ابن العماد |
| ميزان الاعتدال | ٨ - الذهبي |
| لسان الميزان | ٩ - ابن حجر |
| الوافي بالوفيات . مصورة رقم ١٢١٩ تاريخ دار الكتب | ١٠ - الصفدي |
| أعيان الشيعة | ١١ - أعيان الشيعة |
| الأعلام | ١٢ - خير الدين الزركلي |
| الفهرست | ١٣ - الطومسي |
| الرجال | ١٤ - النجاشي |
| المنتظم مصورة رقم ١٢٩٦ تاريخ دار الكتب | ١٥ - ابن الجوزي |
| طبقات النحويين . نسخة خاصة نقلت عن نسخة نور عثمانية باستانبول ٣٣٩١ مكررة | ١٦ - الزبيدي |
| روضات الجنات | ١٧ - محمد باقر |

٥ - كتب عامة

- | | |
|-----------------------|-------------------------------------|
| ١ - طاشكبرى زاده | مفتاح السعادة |
| ٢ - ابن حزم | الجمهرة |
| ٣ - آدم متز | الترجمة العربية . الحضارة الإسلامية |
| ٤ - البكري | معجم ما استعجم |
| ٥ - أغا بزرك الطهراني | الذريعة إلى تصانيف الشيعة |
| ٦ - ياقوت | معجم البلدان |

فهرس لكتاب

المقدمة	١٠-١٠
التمهيد	١٠-١٠

الباب الأول

العوامل المؤثرة في حياة أبي الفرج

الفصل الأول :	(١) الحدود الزمانية	١٧-١١
	(ب) الحدود المكانية	٢٦-١٧
الفصل الثاني :	الأسرة وما لها من أثر	
	(١) أسرة الأب	٤٣-٢٧
	(ب) أسرة الأم	٥٠-٤٣
الفصل الثالث :	الجو المدرسي	٧١-٥١
الفصل الرابع :	الخططاء	٨٢-٧٢
الفصل الخامس :	رجال السياسة	١٠٢-٨٣

الباب الثاني

حياة أبي الفرج

الفصل الأول :	إصبيان وسر من رأى	١١١-١٠٣
الفصل الثاني :	الكوفة	١٢٢-١١٢
الفصل الثالث :	بغداد	١٤٠-١٢٣

١٥٠-١٤١	الحياة المادية	: الفصل الرابع
١٦١-١٥١	الحياة الإعتقادية والمذهبية	: الفصل الخامس
١٧٠-١٦٢	الحياة الخلقية	: الفصل السادس
١٨٨-١٧١	الحياة العقلية	: الفصل السابع
٢٠٩-١٨٩	الحياة الفنية	: الفصل الثامن

الباب الثالث

الرواية عند أبي الفرج

٢١٨-٢١٠	أبو الفرج وهل هو من الرواة؟	: الفصل الأول
٢٥٢-٢١٩	مرحلة التحمل	: الفصل الثاني
٢٥٨-٢٥٣	مرحلة الضبط	: الفصل الثالث
٢٧٣-٢٥٩	مرحلة الأداء	: الفصل الرابع
٢٧٦-٢٧٤		: خاتمه
٢٨٤-٢٧٧		: المراجع

الخطأ والصواب

الخطأ	صفحة	سطر	الصواب	صفحة	سطر
هذا سرقة	٤١	٨	وإثبات المستقيم ولم	٦	٧
يجادل فيها	٥١	٤	والثاني في كتابه	٧	٧
يقرأ لهم كتابا	٥٦	١٦	خلفوا ما خلفوا	٨	١١
الكتاب التاجي	٦٩	٧	وزدد ما يروون	٨	١٤
هما شخصيتا	٩٧	٤	فأن ذلك سيؤدى	٨	١٥
وإن كان أبو الفرج	١٠١	١٤	من الخراب	١٦	٦
بها وغلوا	١٠٥	١٥	تلك الغلبة	١٦	١٠
تردد	١٢٨	١	بعزى جعفر بن على	٢٣	١٣
أخذ عن	١٢٨	١٤	يخص أبا المعتصم	٢٤	٧
الدراسة المساجد	١٢٩	١٧	معجم الشعراء المرزبان	٢٤	١
في كتابي الأغاني	١٣٤	١٦	عندى القرا	٢٥	٢
أتبعته	١٣٤	٢٣	يبدأ تاريخها	٢٧	١٦
ترك الآن أبا الفرج	١٤٠	١٠	وذا قعددهم	٢٢	١٠

يظهر قريبا :

الكتاب التالي للمؤلف

وهو

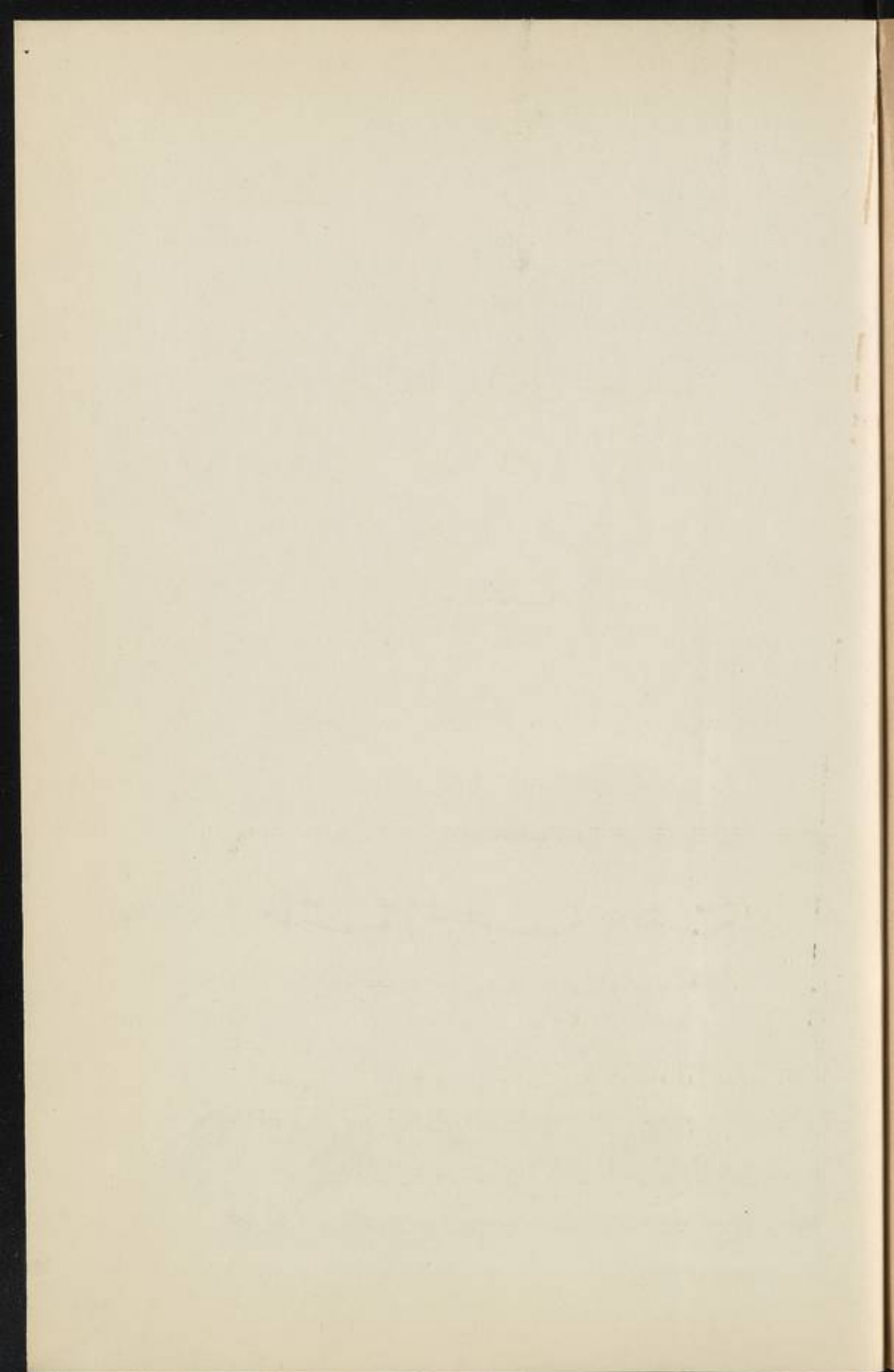
أحمد فارس الشدياق
وأثره في اللغة والأدب

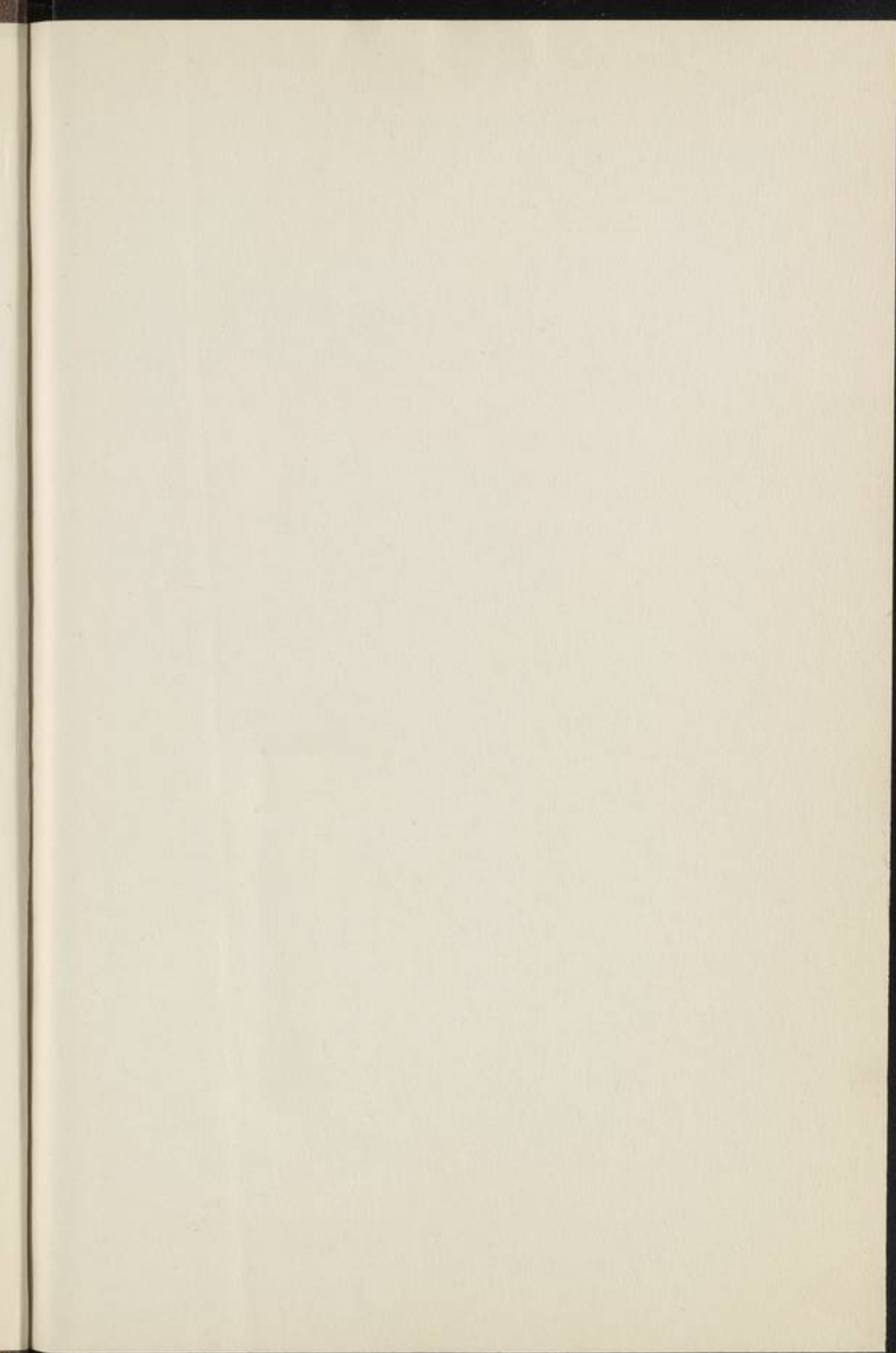
مكتبة ومطبعة نخبة مصر

المركز الرئيسي : ١٨ الفجالة . القاهرة

تليفون ٥٠٨٢٧

المكتبة : أكبر المكاتب في الشرق لتوريد الكتب والأدوات المدرسية
المطبعة : أرقى المطابع المصرية لتزويد المكتبات والأفراد والشركات
بمختلف المطبوعات مع الإتيان والسرعة ودقة المواعيد





893.7Is1
DK

BOUND

JUN 23 1959

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58871527

893.71s1 DK

Sahib al-Aghani.